

التراث الفنى

في القترن الرابع

تأليف

زكى مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية بباريس

(قدم هذا الكتاب بالفرنسية إلى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١)
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجته شرف جداً

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

منتدى سور الأزبكية

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص. ب. ٥٧٨

م . السعاده
بصر

مكتبة
www.books-fall.net

فهرس (١)

صفحة		صفحة
١٦٦ .	أبو محمد بن حزم وآراؤه في الحب	
١٧٩ .	أبو منصور الثعالبي	
	الباب السادس	الباب الرابع
	كتاب الرسائل والعهود	كتاب النقد الأدبي
١٩٣ .	أبو الفضل بن العميد	٧ .
٢٠٢ .	نثر ابن العميد	١٧ .
٢١١ .	أبو حفص بن برد	٢٧ .
٢١٨ .	أبو المغيرة بن حزم	٤٨ .
٢٢٦ .	أبو الفرج البيهقي	٤٨ .
٢٣٣ .	نثر أبي الفرج البيهقي	٥٩ .
٢٤٣ .	الصاحب بن عباد	٨٢ .
٢٥٩ .	أبو بكر الخوارزمي	٨٩ .
٢٧٧ .	قابوس بن وشمكير	٩٤ .
٢٩٠ .	أبو إسحاق الصابي	٩٦ .
٢٩٦ .	رسائل الصابي	١٠٣ .
٣٠٢ .	أبو عامر بن شهيد	١١١ .
٣١٠ .	نثر ابن شهيد	١٢٠ .
٣١٩ .	أبو الفضل الميكالي	
٣٢٥ .	بديع الزمان	
٣٥١ .	نثر بديع الزمان	
٣٥٧ .	عبد العزيز بن يوسف	
٣٦٣ .	الفهرس المفصل	
٣٧٣ .	فهرس الأعلام	
٣٩١ .	المراجع	
		أبو الحسن الجرجاني
		نقد كتاب الوساطة
		ابن فارس
		نقد آراء ابن فارس في فقه اللغة العربية
		النقد الأدبي عند ابن شهيد
		أبو بكر الباقلائي ونقد آرائه في إعجاز
		القرآن
		أبو القاسم الأمدي
		بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتری
		أبو أحمد العسكري
		أبو هلال العسكري
		نقد كتاب الصناعتين
		أبو علي الخاتمي
		أبو عبد الله المرزباني
		الباب الخامس
		كتاب الآراء والمذاهب
		أبو حيان التوحيدى
		أبو علي بن مسكويه
		الأخلاق عند ابن مسكويه
		ابن نباتة الخطيب

الباب الرابع

كتاب التفسير الأدبي

١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي نتحدّث عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية ، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزانة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل ، حيّ الإحساس ، حر الوجدان يلقى إلى فطرته القيادة فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزء بها الآداب العربية لو توقّر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه في تيار الجمود ! وأى خطر كان يحدق بالقضاء لو أضمّ هذا القاضي مشاعره ، وأمات ذوقه ، ودفن إحساسه ، وأغض عينيه عما في هذا العالم من فنون السحر ، وضروب الفنون !

أفتحسب القضاة بنجوة عما تعرض له النفس الإنسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أوّل صفات القاضي فيما أعتقد أن يكون « إنسانا » له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل ، وأمانى النفس ، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدين له النفس الإنسانية من نزوات المشاعر ، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن علي بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدمن الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وكذلك قال في بقية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدثين . وكانت لعهد من عرفت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة ، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبرسيم الجيد الذي لا يستحيل صبغه ، والذي كان يحمل إلى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والرمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرراير ، والطباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالتمر ، وفيها يقول ابن خريم ، أو الأفيشر اليربوعي — تردّد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانية لم يطف بها	حنيف ولم ينغر بها ساعةٍ قدر
ولم يشهد القس المهينم نارها	طروقاً ولم يحضر على طبخها حبر
أتانى بها يحيى وقد نمت نومة	وقد لاحت الشعرى وقد جنح النسر
فقلت أصطبحتها أو لغيرى فأسقتها	فأنا بعد الشيب ويحك والتمر
تعققت عنها في العصور التي مضت	فكيف التصابي بعد ما كلاً ^(١) العمر
إذ المرء وفي الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتى حياءً ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي آتى	وإن جرّ أسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فإنه ناقص المروءة^(٢) ونرى أن لوفرة ما كان بجرجان من الفواكه ولشهرتها بالتمر تأثيراً فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة المفتنة في تنسيق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تقدمه من الكاتبين في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان صاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .
قال : وقد أستعفيت به يوماً من فرط تحفيّ به وتواضعه لي فأشدني :
أكرم أخاك بأرحم مولده وأمدّه من فعلك الحسن

(١) كلاً العمر : انتهى إلى آخره وأقصاه .

(٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأملى . انظر ص ٨٥ ج ١ طبع بولاق .

فالعز مطلوب وملتمس^١ وأعزه ما نيل في الوطن
ثم قال: قد فرغت من هذا المعنى في العينية. يريد قوله:

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صنيعى

قال: والأصل فيه قوله تعالى: «يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من
المكرمين». ورغبة الرجل في أن يكرم في وطنه وبين أهله من الأمانى الإنسانية التي
تحدث بها الشعراء في مختلف الأجيال.

قال الثعالبي: «وكان في صباح خاف الخضر في قطع عرصة الأرمح وتدويخ بلاد العراق
والشام وغيرها وأقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم عالماً، وفي الكمال
عالماً. ثم عرج على حضرة المصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتدّ أختصاصه به، وحل منه
محلاً بعيداً في رفعة... وتقلد قضاء جرجان من يده. ثم تصرفت به أحوال في حياة
المصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة. وأفضى محله إلى ولاية القضاة بالرى فلم يعرله عنه
إلا موته رحمه الله»^(٢). وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة
٣٩٢—وحمل تابوته إلى جرجان فدفن بها. وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل
العارض راجلين. فيما ذكر ياقوت^(٣).

٤ — ألف أبو الحسن الجرجاني في الفقه والأدب والتاريخ. أما تأليفه في الفقه فلم
يصلنا منه شيء. وقد جاء في طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً في الوكالة فيه أربعة آلاف
مسألة. ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضي الأديب أن يخدم
التشريع، وأما تأليفه في التاريخ فلم يعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه
الثعالبي بأنه تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف في الانتقادات^(٤) وقد
ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبي حفظ منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منحنى هذا الرجل

(٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة.

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء.

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة.

(٣) ص ٢٤٩ ج ٥.

في دراسة التاريخ ؛ فهو يبين في الفصل الأوّل أن من غرضه أن يكشف عن مغازي رسول الله وحرابه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولان ، وفي أي وقت جاهر وكشف — ويبين في الفصل الثاني أنه يرمى بكتابه إلى غرض ديني وغرض دنيوي : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثراً يذكر به عند الصاحب بن عباد . . . وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الإسلامية . وأستخدم التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلاً ميلٌ خاص إلى بعض الأحزاب الإسلامية . ولهذا أثره المحتوم في كتاب يوضع بينته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى إليه : فطالما أعتزت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطيرة على التاريخ .

أما تأليفه في الأدب فقد بقى لنا منه « كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه » وسنعود إليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي عدتنا في تصوير نفس ذلك القاضي الأديب .

٥ — كانت نفس القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني نفساً غالية : فقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية العريضة ، التي حرمت عليه طيبات الحياة : إثارة للعزة والأنفة والكرامة ، وصوناً للعرض من الدنس ، وإبعاداً للعروة عن مواطن الأبتدال . وسيرى القارئ حين تقدّم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثاً . سيرى فيها عزاء له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية في سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصوله الجاه . ومن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فينقل ما نكتب عن هذه النفس إلى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزّت نفس قاضي القضاة وأسرفت في التصوّن ، إن كان في التصوّن إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرّيب والظنون حتى زينت له العزلة

والأفراد . وشعره في هذا المعنى مثال من الأمثلة العليا التي يعتز بمحاكاتهما كبار النفوس .
فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما
أرى الناس من دانا هو هان عندهم
وما زلت منحازاً بعرضي جانبا
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولم أفض حق العلم إن كان كلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً وأجنيه ذلة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

على مهجتي تجنى الحوادث والدهرُ
كأني ألقى كل يوم ينوبني
فإن لم يكن عند الزمان سوى الذي
وقالوا توصل بالخضوع إلى الغني
وبيني وبين المال بابان حرماً
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه
إذا قدّموا بالخير قدمت دونهم
فأما أصطباري فهو ممتنعٌ وعرُ
بذنب وما ذنبي سوى أنني حر
أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
على الغني : نفسى الأبية والدهر
مواقف خيرٌ من وقوفي بها العسر
بنفس فقير كل أخلاقه وفر

في هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التي قضى عليها الفضل بالشقوة
والحرمان . وأشرف ما وصف به ذلك القاضي حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرض
عليه عرضاً فيأبأها إيثارد للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحرّ تحتل الظما
وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر
وقوله :

ويبنى وبين المال بابان حرّما على الغنى : نفسى الأبية والدهر
ويرحم الله من يعانى ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ - وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبي الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارىء على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا سخطا على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يعتذر من أقباضه عن أخويه ، وكيف يلمح برفق ولطف إلى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هرباً من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سجية فطر عليها منذ قضى الله أن يلتقى به فى ظلمات هذا الوجود ، وذلك حيث يقول :

أبا معهد الأحباب ذكّرهم عهدى
وى خلقٌ لا أستطيع فراقه
نفور عن الإخوان من غير ريبة
غذيت به طفلا فإن رمت هجره
كما ألفت كفا كما البذل والندى
على أنتى أفضى الحقوق بنيتى
ويخدمهم قلبى وودى ومنطقى
فإن أتما لم تقبلا لى عذرة
فقولا لطبعى أن يزول فإنه
ودم لى وإن دام البعاد على الود
يفوتنى حظى ويمعنى رشدى
يعدّ جفاء والوفاء لهم وكدى
تأبى وأغرتنى به ألفة المهد
فأعيا كما أن تمنعا كف مستجدى
وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
وأبلغ فى رعى الذمام لهم جهدى
وألزمتانى فيه أكثر من وجدى
يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ - كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المغرمين بالتغريد على أفنان الجمال . وشعره في وصف الملاحه ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله - في الخلد المورد والطرف الكحيل - :

أنثر على خدّي من وردك أو دع في يقطفه من خدك
ارحم قضيب البان وأرفق به قد خفت أن ينقدّ من قدك
وقل لعينيك بنفسى هما يخففان السقم عن عبدك
وقوله - في مغازلة النديم - :

أفدى الذى قال وفي كفه مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع في وجنتي قلت في باللثم يحنيه
وقوله - في فتنه الأخطا - :

من ذا الغزال الفاتن الطرفِ الكامل البهجة والظرفِ
ما بال عينيه وأخطاه دأبة تعمل في حنفي
واهاً لذاك الورد في خده لو لم يكن ممنوع القطف
أشكو إلى قلبك يا سيدي ما يشتكى قلبي من طرفي
وقوله - في اختلاس التقيبيل - :

وغنج عينيك وما أودعت أجفانها قلب شجٍ وامقٍ
ما خلق الرحمن تفاحتي خديك إلا لقم العاشق
لكفى أمنع منها فما حظي إلا خلسة السارق
وقوله - في القسم بجنود الجمال - :

لا وجفون يفضها العذلُ عن وجنات تذيها القبلُ
ومهجة للهوى معرضة تعبث فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وإن أحر ميقات يومه الأجلُ

وهذه القطع التي أختارناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس .
وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضى العُرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب
فلنطوها عن القارىء طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يخلق الأسباب
ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدث عن سحر العيون
وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَنْ عاذرى من زمن ظالم ليس بمسـتـحى ولا راحم
تفعل بالأحـرار أحداثه فعل الهوى بالذنف الهائم
كأنما أصبح يرميهـم عن جفن مولاي أبى القاسم

وفى تصيد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول فى تغذية حبيب نال من دمه
مبضع الطيب :

يا ليت عيني تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سقمك
وليت كف الطيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظري دمك
أعمرته صمغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حد مبضعه فألحظ به العرق وأرتجز ألمك

٨ - وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما فى الجمال من نعيم الحواس ، ويعود إلى بكاء
ما ذهب من أنسه فى أيامه السوالمف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى
الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روجه وهو يناجى النسيم :

يانسيم الجنوب بالله بلغ ما يقول المتسيم المستهام
قل لأحبابه فداكم فؤاد ليس يسـلو ومقلـة لاتمام

وكيف يقول فى خطاب الديار ، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال بيكى بك فى مـضحك الرياض غمام
رب عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

في ليال كأنهن أمانٍ من زمان كأنه أحلام
 وكان الأوقات فيها كؤوس دأرات وأنسهن مدام
 زمن مسعدٌ وإلفٌ وصولٌ ومنى تستلذها الأوهام
 كل أنس ولذة وسرور قبل لقيا كمو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال في خيال . أليس
 يذكر أن عيشه الغض كان :

في ليال كأنهن أمانٍ من زمان كأنه أحلامُ

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال ؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون
 الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحنين إلى ليالي بغداد :

أراجعةٌ تلك الليالي كهدها إلى الوصل أم لا يرتجى لي رجوعها
 وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجدّ خليعها
 إذا لاح لي من نحو بغداد بارق تجافت جنوبي وأستطير هجوعها
 وإن أخلقتها الغاديات رعوها تكلف تصديق الغمام دموعها
 سقى جانبي بغداد كل غمامة يحاكي دموع المستهام هموعها
 معاهد من غزلان إنس تحالفت لواحظها أن لا يُدأوى صريعها
 بها تسكن النفس النَّفور ويغتندي بآنس من قلب المقيم نزيعها
 يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها
 فكل ليالي عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
 ومازلت طوع الحادثات تقودني على حكها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلِّب النظر في ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك
 اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان إلى الكلف بمظاهر الحسن ، والظماً إلى معاهد

تلك الظباء التي تحالفت لحاظها أن لا يداوى لها صربع ، أو يبرأ منها جريح ، أو يُبكي في ظلالها قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارىء عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد تلك الظباء :

بها تسكن النفس النفور ويعتدى بأنس من قلب المقيم نزيها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها^(١)

والعجيب في هذا الشعر أن تُصوّر نفس الحب في غربته ونواه وهي تأنس بديار الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك . وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشوة الاصطباح بوجوه الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانهم غربة النوى على نسيان العهود !

رويدكم لا تسبقوا بقطيعتى صروف الليالى إن فى الدهر كافيا
أفى الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديونى باقيات كما هيا
فواأسفى ختام أرعى مضىعا وآمن خوآنا وأذكر ناسيا
وما زال أحبابى يسيئون عشرتى ويجفوننى حتى عذرت الأعاديا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجاني بحمد القارىء فى أخباره باليتيمة ج ٣ ، ومعجم الأدباء ج ٥ .

٢ - كتاب الوساطة:

١ - «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان ، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في التمد لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض أفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . نقلنا عن نسختين مخطوطتين إحداها بمصر وأخرها بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتخريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ - ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوى المتنبي عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه^(١) .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب فى المتنبي فثنين : فئة تطنب فى تقرىظه وتتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل ، وفئة تجتهد فى إخفاء فضائله وإظهار معايبه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهى أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق فى الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول فى الحرص على الأواصر الأدبية: «وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضة ويمتنن فى إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذى هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عظم مزيته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه وما عقوق الوالد البرّ ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكراً ، ولا أقبل وسماً من عقوق من ناسبك إلى أكرم آبائك ، وشاركك فى أفر أنسابك ، وقاسمك فى أزين أوصافك ، ومتّ إليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك إلى الفخر»^(٢) .

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ يتيمة .

(٢) الوساطة ص ١٠

وهذا الحرص على بنوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والإنصاف فيقول في ذلك :

« وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل في نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف ، أو تخرج في بابه إلى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك ، وتقف على رسمه كيف وقفك . فنتصف تارة وتعتذر أخرى ، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهداً لك إذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة إذا قامت محتجاً عنك إذ خالفت . فإنه لا حال أشد استعطافاً للقلوب المنحرفة ، وأكثر استمالة للنفوس المشمزة ، من توقفتك عند الشبهة إذا عرضت ، واسترسالك للحجة إذا قهرت»^(١) .

وأخوة الأدب هذه عرفت قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحتري وعلى بن محمد الكوفى . وللقارىء أن يرجع إلى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب^(٢) ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفائه . وانتقل إلى الكلام عن أبى تمام والبحتري وجريز وأبى نواس فذكر ما لهم من الحاسن والعيوب .

وساقه هذا إلى بحث الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تلخيصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرت هذه الأبحاث إلى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات ، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى إلى غير ذلك مما كان يوجهه الأئس بالاستطراد عند المتقدمين .

وزريد في هذا الفصل أن ندرس مع القارىء بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن تبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تعينهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني ، أو كاد ، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف واللعن . فقد كانت جبهة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقطه . وكان من النحاة من يعنى نفسه بتصويب الجاهليين والحضرمين والأمويين حين يجد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء ، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لا تسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه وإعرابه ويقول :

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحنة لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة ومستردلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام»^(١) .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب^(٢) إثمًا من الله ولا واغل^(٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة في قوله :

لها متنتان خطاتا^(٤) كما أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

ترآك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم إذا اكتسبه كأنه شئ محسوس

حملة (مصباح) . (٣) الواغل المستر - وغل في الشجر وغولا توارى فيه ، ودخل على

القوم واغلا ، وقصده هنا غير مستر . (٤) الخطاة : المكتنزة من كل شئ .

وقول الأسدي :

كنا نرقعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع
وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسا وابنا نزار فأنتم بيضة البلد
وحذف النون في قول طرفه :
ورفع مايجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحنا أو مجلف
وخفض مايجب رفعه في قول امرئ القيس :

كأن ثبيراً من عرانيين^(١) وبله كبير أناس في بجاد^(٢) مزمل^(٣)

وقد أطال الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار إلى أنه تصفح ماتكلفه
النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج إذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالي الحركات
ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية إذا ضاقت الحجة . وتثبت ما راموه في ذلك من المرامي
البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التي يشهد القلب بأن الباعث عليها شدة إعظام
المتقدم والكلف بنصرة ماسبق إليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لانحب أن نكتفي بما أشار إليه الجرجاني من تعسف المناخين عن شعراء
الجاهلية ومن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لاتغنى هذه الإشارة . وإنما نذكر ماقلوه
في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحنا أو مجلف

فإنهم يذكرون أنه رفع «مجلف» بعد نصب «مسحنا» تبعاً للمعنى لأن المراد أنه لم يبق
من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلي — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرنيين وهو الأنف . وعرانيين الويل : أول المطر .

(٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أي ملتف في ثوبه . وكان يجب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا الثمام وإلا العصي
 بنصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصي حملا على المعنى^(١) . وكذلك
 قول الآخر :

غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والحمر
 برفع الحمر على توهم رفع العبيطات لأنه إذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي ، إلى آخر
 ما يتأول النحاة !!

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم
 نصبوا الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثاني وفقا للمعنى ؟ أكان الهذلي والفرزدق يحسبان
 حساب النحاة في مثل ذلك التأويل ؟ لا شيء من ذلك وإنما أنعب النحاة أنفسهم كلقا
 بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد وألفته النفس ، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن
 صريح : فإننا نرتاب في سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن
 المولدون وأن من الخطأ إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ^(٢) ... وهذا المذهب
 في استقراء أغلاط القدماء خير من التورط في النفع عنهم بما لا يغني ولا يفيد ، فقد كان
 الفراء يذكر أن من العرب من يقول في « أنظر » أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور
 وأنتى حيث ما يئى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور^(٣)

وهذا لحن لا ينبغي أن يتمحل له الصواب . فإن ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون
 قائله من قبيلة مهجورة تسيف هذا التعبير .

٦ — وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفائه وهو يرى أن
 للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أسره وصلابة معجمه . وأن للحاضرة فضلا على ورقة الشعر

(١) راجع الفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلي والأموي كان يجري
 على قواعد من النحو لم تأخذ صبغة نهائية في التحديد والترتيب، كما اتفق ذلك في العصر العباسي
 فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست أغلاطاً بالقياس إلى لغتهم هم، وإنما هي أغلاط بالإضافة إلى
 اللغة التي حدد قواعدها النحويون . (٣) انظر الصحابي ص ١٢

وعذوبته وسلامته من الوعورة والجفاء ! ومن هنا كان شعر عدى وهو جاهلي أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : باللازمة عدى الحضارة وبعده عن جلالة البدو وخشونة الأعراب^(١) . وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخل اليشكري وهو جاهلي صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك ، ولننظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة ، وقد ختلها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير
الكعب الحسنة تر فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعها فتدافت مشى القطة إلى الغدير
ولمستها فتتنفست كتنفس الطي الغرير
فدنت وقالت ما منخل ما يحمك من حرور
ما شف جسمي غير حبك فاهدني عنى وسيرى
وأحبها وتحبني ويحب ناقها بعيرى

٧ — وأظرف ما تنبه إليه الجرجاني إشارته إلى أن للطبع وللخلقة أثراً في رقة الشعر وجفائه فإن سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ومائة الكلام بقدر مائة الخلقة . ويقول :

« وأنت تجدد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم كز الأناظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته وفي جرسه ولهجته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك »^(٢) .

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضاً في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعاني أثراً لالتواء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوزان بين مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

راجعاً إلى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتي الشاعر وهو فتى بما لم يستطعه وهو كهل . وما أقوى سلطان الجسم والروح في حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدماثة الشعر ورقته : هو نفس الشاعر حين يتيمه الحب ويأسره العشق . ولم يذكر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاءً بوضوح الفكرة ، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرية غزال كحيل المقلتين ريب
فلا تحسب أن الغريب الذي نأى ولكن من تداين عنه غريب
قول الآخر :

فيا رب إن أهلك ولم ترو هامتي بليل أمت لا قبر أعطش من قبري
وإن أك عن ليلي سلوت فإنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وإن يك عن ليلي غنى وتجلد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته ، وإنما يريد النمط الأوسط الذي ارتفع عن الساقط السوقي وأنحط عن البدوي الوحشي . وهو لا يوصي بإجراء الشعر كله مجرى واحداً وإنما يرى أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ، ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كالتهريج . فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظراف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول : « و ليس مارسته لك في هذا الباب بقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر ، بل يجب أن يكون كتابك في الفتح والوعيد خلاف كتابك في التشويق والتهنئة واقتضاء المواصلة ، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومثيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما أعترض به التهريج والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس »^(١) .

فأما القذف والإفحاش فهو سباب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام «وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المهذب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردى والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح»^(١) .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبوقةً في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الأفكار تصرف المالكين أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمده به قريحته المتوقدة وذوقه السليم . . . وللقارى أن يرجع إلى صحيفة بشر بن المعتز^(٢) ووصية أبي تمام للبحترى^(٣) فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان .

ولكنه سيرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك لرأيه ، وأقرب إلى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب، وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من فى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

وأبهر آيات التهايم أنه أبوكم وإحدى مالكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبي نواس في مثل قوله في انتهاب اللذات والشك في عذاب الآخرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أولى .

فدع الملام فقد أطعت غوايتي ونبذت موعظتي وراء جداري
ورأيت إشار اللذادة والهوى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل ظنى به رحمة من الأخبار
إني بعاجل ما ترين موكل وسواء إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة مذ مات أو في نار

ويقول في تأييد هذه النظرية « فلو كانت الديانة عاراً على الشعر وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر»^(١) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو « قاضى القضاة » وسيد الفقهاء فى الرىّ وجرجان : نعرف إلى أى حدّ كانت النزعة الفنية مسيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وإنما الشاعرية روح يتمردّ به الشاعر فيهنز نفس القارىء أو السامع هزناً عنيفاً يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو إليه الشاعر من تزيين الإثم والبغى أو تقييح النغى والسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجنّ :

لما نظرت إلى عن حدق المها وبسمت عن متفتح الثوّار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة^(١) ولا حملتى نحو فاحشة رجل
ولا قادتى سمى ولا بصرى لها ولا دلتى رأى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولست بماش ما حيت لمنكر من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جدّه وهزله ، ويروك شكه ويقيهه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، ويتحدّث صادقاً عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف ذوقه وإحساسه : فإن الشعر كالمراة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر الجميل . وماذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية على الكتّاب والشعراء والفنانين لثلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلوّن العالم كل يوم بلون جديد وتمتّن يده الصنّاع فى تزيين الأرض والسماوات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تصوّر به محاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشرّبهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وإنجيل .

* * *

تلك نواح كشفنا عنها وبيناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود إليه القارئ طلباً للمزيد . فليس النقد إلا وسيلة إلى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق إلى الاطلاع .

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ - ابن فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسه ابن الأنباري إلى المكان الذي مات فيه وهو الري : فسماه أبا الحسين الرازي . والرازي نسبة شاذة إلى الري^(١) . ويقول ياقوت في معجم الأدباء^(٢) : « واختلفوا في وطنه فقيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ ، وقد حضرت القرينتين مراراً ولا خلاف أنه قروي . حدثني والدي محمد بن أحمد وكان من جملة حاضري مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :

بلاد بها شُدَّتْ على تَمَامِي وأوَّل أرض مس جلدِي ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالري في صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضي

القضاة علي بن عبد العزيز الجرجاني .

٢ - ذكر السيوطي في بغية الوعاة^(٣) أن ابن فارس كان نحوياً على طريقة الكوفيين

وأنه سمع أباه وعلي بن إبراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنباري أنه أخذ عن أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبي عبد الله أحمد بن طاهر المنجم ، وكان يقول عن أبي عبد الله هذا : « ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه^(٤) » وكان ابن فارس حريصاً على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنباري شاهداً على ذلك الحرص نكتني بالإشارة إليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناساً من هذيل فجارتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحداً منهم . ولكنني رأيت أمثال الجماعة رجلاً فصيحاً وأنشدني :

إذا لم تحظ في أرض فدعها وحث العملات على وجاها^(٥)

ولا يغرك حظ أخيك فيها إذاصفت يمينك من جداها

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣

(٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٥) العملات : الجمال .

ونفسك فزبها إن خفت ضيما واخل الدار تحزن من بكائها
فإنك واجد أرضاً بأرض ولست بواجد نفساً سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم الصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني . أما حاله مع الصاحب فقد ابتدأت بوفاق، وانهت بشقاق — نسجع على ذكرى الصاحب بن عباد ! — تمت بينهما الألفة في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبى » نسبة إلى الصاحب . وحتى مدح الصاحب ابن فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف^(١) » ثم انحرف الصاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فأنفذ إليه من همدان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب « رد الحجر من حيث جاءك » ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلته^(٢) . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء^(٣) يعرض أحياناً لابن فارس فيذكر أنه رأى « بعض الجهال يصحف ويقول » . وأما حاله مع بديع الزمان الهمداني فكانت فيما يظهر غاية في صفاء الوداد . نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جواباً على كتاب ورد إليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لترى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الإسلامية، وكيف كان يحذر قلب النفس الإنسانية التي سُجِّلَ غدرها في قصائد الشعراء ، وصحائف الأنبياء . ولننظر كيف يقول « نعم أبطال الله بقاء الشيخ الإمام إنه الحمأ المسنون^(٤) ، وإن ظنت الظنون ، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان العهد قد تقادم . وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاد . والشيخ الإمام يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحاً؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها؟ أم المدة الروائية وفى أخبارها لا تكسع الشول بأغبارها^(٥)؟ أم السنين الحربية^(٦) .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٩٢

(٤) الحمأ المسنون : الطين المتغير .

(٥) الشول مجمع شائلة على غير قياس . والأغبار جمع غبر وهو بقية اللبن . والكسع هو ترك بقية من اللبن فى أخلاف الناقة . المعنى لانغزر لبن إبلك واحلبها لأضيافك فإنك (لاتدرى من الناتج) كما فى بقية البيت .

(٦) نسبة إلى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

والرمح يركز في الكلى^(١) والسيف يغمد في الطلى^(٢)
ومبيت حجر في الفلا والحارثان وكر بلا

أم البيعة الهاشمية وعلى^٣ يقول: ليت العشرة منك براس من بنى فراس؟ أم الأيام
الأموية والنفیر إلى الحجاز، والعيون إلى الأعجاز؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول:
وهل بعد النزول إلا النزول؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول: طوبى لمن مات في نأنة
الإسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل: اسكتي يا فلانة، فقد ذهب الأمانة؟ أم في
الجاهلية وليد يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
أم قبل ذلك وأخو عاد يقول:

بلادها كنا وكنا نجها إذ الناس ناس والزمان زمان
أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبراً قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ وما فسد
الناس، وإنما اطرده القياس. وما أظلمت الأيام، وإنما امتد الظلام. وهل يفسد الشيء إلا
عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صباح؟ «
ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذة والعطف عليه فقال.

« ولعمري لئن كان كرم العهد كتاباً يرد، وجواباً يصدر، إنه لقريب المنال، وإني على
تو يبخه لي لفقير إلى لقائه، شفيق على بقائه، منتسب إلى ولائه، شاكر لآلائه. لأحل حريداً
عن أمره، ولا أقف بعيداً عن قلبه. ما نسيت ولا أنسا. إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها
الله ناراً، وعلى كل كلمة علمنيها منارا. ولو عرفت لكتابي موقعاً من قلبه لا غنمت خدمته
به ولرددت إليه سور كاسه، وفضل أنفاسه. ولكني خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردت

(١) الكلى جمع وكلية كلوة بالضم . (٢) الطلى بالضم الأعناق جمع طلية أو طلاوة .

إلينا) وله أيدى الله العتبي ، والمودة في القربى ، والمرباع ، وما ناله الباع . وما ضمه الجلد ، وضمه المشط . وليست رضاي ولكنها جل ما أملاك .

إلى آخر ما قال^(١) .

ولو وجدنا نص الكتاب الذى بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئاً من صور نفسه ، وألوان قلبه: فإن لأزمات القلب، وفجعات النفس ، دلالة كبيرة على المناحى التى ينجح إليها الكتاب والشعراء والباحثون^(٢) .

٥ — كان ابن فارس وسطاً في شعرد ونثره : فلم يكن يُسبّ حتى يصل إلى وسممة الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره في جملته بين واضح مقبول . يعجبني منه قوله — في تقرير رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب — : «وقد كان الناس قديماً يمتنون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا حتى إن الحدث يحدث فيلحن والفقير يؤلف فيلحن . فإذا نهاها قالوا (ما ندرى ما الإعراب وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كُتبت بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه؟ من أى شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدرى ما هو ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارىء أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقيمة الأسلوب ، وسيبرى كيف وصل الكاتب إلى ما يرمى إليه من التهمك اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ إلى غرابة المعانى

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ — من رسائل البديع .

(٢) الذى في رسائل بديع ائزمان أن هذه الرسالة جاءت جواباً عن كتاب ورد إليه من ابن فارس في ذم ائزمان . وفي نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع ائزمان ذكر في مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه وعقنا وشمخ بأنفهمنا فالحمد لله على فساد ائزمان وتغير نوع الإنسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب إلى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ ، وفي هذد الجملة أيضاً دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همذان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفي الدعاء لبلدة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيت الذي أحسنته غير أنني مدين وما في جوف بيتي درهم^(١)

وقوله في كثرة همومه وتعزيبه بالهرة والكتاب والمصباح إذا أوى إلى بينه المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج
نديمي هرتي وأنيس نفسي دفاتر لي ومعشوق السراج^(٢)

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضمون به يسخر الحقى لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حظي منها فلس إفلاس
قالوا فمالك منها قلت تحمدني لها ومن أجلها الحقى من الناس^(٣)

وقد يستجاد قوله في النغاضي عن هفوات الصديق :

عنتت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيراً منه عدت إليه^(٤)

ومن ظريف الإشارة إلى ضعف حجج النحاة قوله في فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تمنى لتركي
ترنو بطرف فاتر فآن أضعف من حجة نحوى^(٥)

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من اليتيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعيننا هو (الصاحبي) الذي قدّمه إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٣٢ صفحة بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً نقلاً عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطي « وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة : لا أبتدىء الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد » .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين تناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .
٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سني حياته العلمية وضع رسالته في الردّ على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيداً جداً بين رسالته هذه وكتابه ذلك : فهو في « الصاحبي » رجل حذر هيبوب يحسب مسaire العقل جرّيمة ، ويعدّ التفكير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته إلى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب « الصاحبي » كلها جمود وكلها ذهول . وقد يصحوا أحيانا فيرمي بالقول السديد . وحسب القاري في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في « الرجعية » أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه « علم العروض الذي يربي بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتجحج به الناسون أنفسهم إلى التي يقال لها الفلسفة » (٢) .

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله في رينان « ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف » .

وحقاً إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه « الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف » وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك « وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو ^(١) » ، ثم يقول « وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آنفاً بأهل الإسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك إلى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وأدّعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأنا فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن » ثم يقول في وصف العروض « ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه » ^(٢) .

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدمين في العلوم العقلية . ويرونها خطراً على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاق إلى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كما توغلوا في درس حقائق الأشياء ؟

٩ — نترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما توحى به العقول . وننتقل إلى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر إلى طائفتين تفتتلان . تدعو إحداها إلى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخرى إلى الإبداع والتجديد في عالم الآداب . ويكفي أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعر اكتفاءً بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس إلى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه إلى ابن سعيد « ألهيك الله الرشاد ؛ وأحبك السداد ، وحبك الخلاف ، وحب إليك الإنصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك ولعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريد ، ويرد المنهبل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه ، ومختارة ورقيه ، كثيراً مما فات الأول . فلماذا الإنكار ولم الاعتراض ؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال « ما ترك الأول للآخر شيئاً » وتدع قول الآخر « كم ترك الأول للآخر » وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود ؟ ولم ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، ويجمع مثل جمعه ، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا إذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أمر ما علمت أن لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجوز أن يؤلف مثل تأليفه ؟ ولم حجرت واسعاً وحظرت مباحاً وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكة ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحو في مصنفتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يجوز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدري قدره ! !

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ، ولذهب أدب غزير ، ولضلت أفهام ثاقبة ، ولكلت ألسن لسنة ، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شعبا من شعاب البلاغة ولجت الأسماع كل مردّد مكرر ، وللفنظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم (لو كنت من مازن لم تستبح إبلى) وإلى متى « صفحنا عن بني ذهل » — إلى أن قال « وهلا حثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجت خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر ؟ على أن ذلك لو رامه رأم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن درجة من قباه من جد يروعك ، وهزل يروقك ، واستنباط يعجبك ، ومزاح يلهيك »^(١).

١٠ — تلك هي الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارىء تختلف عن سابقتها أشد الاختلاف . وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءاً كبيراً من هذه الرسالة فليرجع إليها من يطلب المزيد . ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس وكانت تضيق به نفوس الرجعيين اذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف بالمنادى وكان من أهل قزوين :

حجٌ مثلى زيارة الخمار واقتنائى العقار شرب العقار
ووقارى إذا توقر ذو الشيبة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالى إذا المدامة دامت عدل ناه ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلي ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل أحور الطرف فاتن سحار^(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبى نواس مع اختلاف قليل، وربما كانت مما أضيف إلى شعر أبى نواس لاتصالها بفنه المعروف فى الغزل والشرب ، وهى فى الديوان طويلة تصل إلى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت الحكيم :

فمتى يفلح الفتى وهو إن را ح يسكر وإن غدا فى خمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في الدجى فتم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ما شبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت فل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

إلى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه إليه بعض التقريب إن لم
يمثله كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان
الخطأ ومواقع الصواب .

٤ - نقد آراء ابن فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة) وفي الحديث « من يرد الله به خيراً يققه في الدين » وققهت فلانا كذا وأققته إياه فهمته فققهه وتققهه . وقال عمر الجرير بن عبدالله كنت سيداً في الجاهلية وقيقهاً في الإسلام . قال الزمخشري وتقول فلان بين الفراهة : في أبواب الفقاهاة . وفل فقيه عالم بذوات الضبع^(١) وذوات الحمل .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعبارة « فقه اللغة » لم يكده يتفق القدماء على إفرادها بتداول خاص . وإنما نجدتها في تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لاعلى وجه التعيين . والثعالبي يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) إنما سمي بهذا الاسم وفقاً لاختيار الأمير الذي أهداه إليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه فى تأليفه لم يكن جرياً على خطة اتفق عليها الباحثون فى ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) فى العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدى فى محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ أن كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصاً لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب إلى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوها . وإذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل فى دائرة « الفيلولوجى » علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب فى معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضبع - بفتحين - شهوة الناقة إلى الفحل .

من حيث تصنيف الكتب العلمية، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه فى الجامعات والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام. ولا سبيل إلى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية.»

ويترب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح « الفيلولوج » مضطراً إلى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب، وإلى تأمل العلاقات التى كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية. ثم لا يكفي لمن يريد درس كتب الجوس الدينية مثلاً أن يقف عند معرفة اللغات الإيرانية بل عليه أن يطيل النظر فى كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات.

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكالفة الآداب. وهو كما يرى القارىء يجعل مهمة الباحث فى هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة إلى علم واحد تنوء به عزائم الأحاد. وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءاً واحداً من ذلك العلم الكثير الأجزاء!

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة « فقه اللغة » التى اختيرت لترجمة كتاب الثعالبي لم يَرْم بها قائلها من غير أن يكون لها فى نفسه مدلول خاص: فقد وردت هذه الكلمة فى فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال « هذا الكتاب الصحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها » وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى إليه هذه التعابير. فلم يبق إلا أن يكون الباحثون فى علوم اللغة العربية لذلك العهد قد فكروا فى فن جديد غير ما عُرِف من علوم البلاغة وما اصطُح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق. وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجد من يُعنى بتدوين أصوله، وتحقيق فروعه، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال. وإنما ظل كما ابتداء مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما إلى ذلك من أنواع العناية بمختلف فنون . وعندى أن أهم ما يؤخذ على المؤلفين في فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء في الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبي أن « الارتكاض » حركة الجنين « والنوس » حركة الغصن بالريح « والتدلبل » حركة الشيء المتدلى — و « التخرج » : حركة الكفل السمين والفالودج الرقيق . و « النسيم » : حركة الريح في لين وضعف . و « الذماء » : حركة التميل . و « النودان » حركة اليهود في مدارسهم ^(١) . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذي استعملت فيه كلمة « النودان » مثلاً وأن يبين أعربية هي أم عبرية .

وجاء في الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الإنسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذي يوجب الحد فهو سكران . فإذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فإذا كان لا يتماusk ولا يتمالك فهو ملتخ . فإذا كان لا يعقل شيئاً من أمره ولا ينطلق لسانه قيل سكران بات وسكران ما بيت ^(١) . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبي شيئاً عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : في شعر أو في نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلاً في صبغها بصيغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبي أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعي وأن (سكران بات وسكران ما بيت) كلاهما عن السكسائي ولم يتعرض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التي روعى فيها حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ماجرى عليه الثعالبي في « فقه اللغة » وابن سيدة في « المحمص » وابن الأجدابي في « كفاية المتحفظ » لم يلاحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر في الصفات والأسماء .

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفرّدوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما تبدا من الألفاظ والتعابير ، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم « لا يبينون ما أنقلب فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحدّون الموضع الذي انقلب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك كجذب وجذب . ويئس وأيس . ورأى وراء . . . وكذلك لا ينيهون على ما يسمعون غير مهموز مما أصله المهمز على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفاً قياسيًّا وما يعتقد منه بدلاً سماعياً ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع»^(١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى مارمى إليه ابن جنى في « الخصائص » وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه^(٢) . وهذا وذلك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جنى وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي ميّنت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيراً من الجهود .

٤ — في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في سداجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الفرق وجد

(١) راجع مقدمة الخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص .

كل قوم كتاباً فكتبوه فأصاب إسماعيل الكتاب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشيء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح » (١) .

٥ ٤٤٧

ويبالغ في إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى في زعمه ابن عباس أن الأسماء التي علمها الله آدم « هي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشبه ذلك » ويقول في سداجة « ولعل ظاننا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه في زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبياً نبياً ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤتاه أحدًا قبله تماماً على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فإن تعمل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده » (٢) وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبتدىء بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن العرب شيئاً من الاختيار في كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله : « إن العرب تفعل كذا بعد ما وطاناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهي الأمر إلى الموقف الأول » ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ في تأييد هذا الرأي إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الأصقاع والأقاليم تأثيراً في تكوين اللغة وإن لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ — وقد عني ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته: فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كتف شاه فيها «لم يتسن» و «فأمهل الكافرين» و «لا تبديل للخلق» فدعا بالدواة فحما إحدى اللامين وكتب «خلق الله» ومحا «فأمهل» وكتب «فمهل» وكتب لم «يتسنه» ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجهاً من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إليّ من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ « إن هذين لساحران » ^(١) ولست أجترى على ذلك وقرأ « فأصدّق وأكون » فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان عليّ ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير في رسم المصحف وأن يبين إلى أي حدّ يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضاً نكتفي بالإشارة إلى هذا البحث الخطير ^(٢) .

٦ — المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ إلا في الإسلام : فالنحو من وضع أبي الأسود الدؤلي . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . إلى آخر ما بهجس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس إلى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التي أولها :

شاقنك أظعان ليللي دون ناظرة بواكر

ف نجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها : لأن تساويها في حركة واحدة أتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون ^(٣) .

(١) ص ٩ و ١٠ و ١١ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلي والأموي ، ولغات العالم كله تعترف بما يسمى « النحو التاريخي » ونحن في حاجة إلى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذاً من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير الى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدوئلى والخليل . فقد نص على « أن هذين العلمين قد كانا قديماً وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جدّهما هذان الإمامان » .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدّد لا مبتكر ، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديماً على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا فى ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والتواعد مماثلاً لما عرف بعد الإسلام . لأن النحو الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة « العرب » فى عبارة ابن فارس تحتاج إلى تحديد .

٧ - ولابن فارس رأى فى التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوّاً من المدلول . وهو يرى أن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والإمكان ، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب فى الإغراء (كذبتك كذا) وما جاء فى الحديث من قوله (كذب عليكم الحجج) « وكذبتك العسل » .

وقول القائل :

كذبت عليكم أوعدونى وعللوا بنى الأرض والأقوام قردان موطبا
وقول الآخر :

كذب العقيق وماء شنّ بارد ان كنت سائلتى غبوقا فاذهبى

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك فى الأرض « عنك شيئاً » وقول الأَفْوَه :

عنكمو فى الأرض إنا مذحج ورويداً يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم « أحمد من سيد قتله قومه » أى « هل زاد ؟ » .

وقال ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُتَّ نيوبها
قال الخليل وغيره « معناه هل زدنا على أن كفينا » قال ابن فارس فهذا من مشكل
الكلام الذى لم يفسر بعد . وقول أبى ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبى ربيعة مسبع
قال ابن فارس : فقوله « مسبع » لم يفسر حتى الآن تفسيراً شافياً .

ومن هذا الباب قولهم « يا عيد مالك » و « يا هىء مالك » و « يا شىء مالك » ولم
ينسروا قولهم « صه » و « يهك » و « إنيه » ولا قول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون « خائبكما وخائبكم » . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضعه فكثير
كقولهم « حى » و « حى هلا » و « بعين ما أرينك » فى موضع اعجل . و (هج) و (هجا)
و « دع » و « دعا » و « لعا » للعائر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهر مطية حرج تنمى ملّ عثار بدعدع

ويروى عن النبي أنه قال « لا تقولوا دعدع ولا لعلع . ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع »
قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عند القوم ما ذكرهما النبي . وكقولهم فى
الزجر « آخر » و « أخرى » و « دها » و (هلا) و (هاب) و « ارحبى » و « عد »
و « عاج » و « يعاط » و « يعاط » وينشدون :

وما كان على الجىء ولا الهىء امتداحيكا

وكذلك « إجد » و « وأجدم » و « حدج » .

قال ابن فارس : لا نعلم أحداً فسر هذا .^(١)

تأمل أيها القارئ في هذه التعابير المجهولة وأذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هذه التعابير متأصلة في لغة قریش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير إلى أنه لا بدّ من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فإن المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرِف في عصر ثم جهل وما استعمل ثم تجافد الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب إليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقد تلبه ابن فارس إلى التعابير التي لا يمكن الوصول فيها إلى تعيين المراد . والمشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و (الزمان) و (الدهر) و (الأوان) فإنك لا تدري إذا قال الحالف « والله لا كلمته حيناً أو زماناً أو دهرماً » إلى أى حدّ يتصل الإعراض وكذلك « بضع سنين » مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حدّ معلوم ومن هذا الباب على رأيه قولهم في الغنى والفقر وفي الشريف والكريم واللئيم إذا قال « هذا لأغنياء أهلى » أو « فقراءهم » أو « أشرافهم » أو « كرامهم » أو « لثامهم » وكذلك إن قال « امنعوه سفهاء قومي » لم يمكن تحديد السفه^(١) .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضياً يريد حجراً على رجل مكتمل قتل وما السبب في حجره عليه ؟ فقيل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفیه . فقريء على القاضى قوله جل ثناؤه « وما علمتم من الجوارح مكابئين تعلموهن بما علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم » .

فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل^(٢) .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه « وإنه لثنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

ثم أعقب هذا الشاهد الذي لا يقيم حجته بهذه العبارة « فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربي لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

« وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة فأين هذا من ذلك ؟ وأين سائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ »^(١) .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ غير العرب في البلاغة والبيان ! ثم ماهو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح ؟ لا شيء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، وللحجبة مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدّة قرون وكان من آثاره أن سأل الرشيد الأصبغى عن شعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصبغى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال « يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً » وكان من آثاره أيضاً أن أفرد صاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) في درس الدكتور طه حسين فأشار إن أن هذا غير طبيعي أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات إلى هذا الحد ليست إلا أثراً من عبث الرواة ولعبهم بالجمهير . ويرى أنها ترجع إلى السياحات العديدة التي كان

يرمى بها الرواة واللغويون إلى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا إلى الخواضر مثلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يخرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحبة مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس ؟ أليسوا في أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء ؟ ولكن ألا تذكرون أننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التي نزل بها القرآن ؟ أفستطيعون أن تثبتوا أن قريشاً عرفت للحجر سبعين اسماً وللكلب ما لا ندري كم تعدون من الأسماء ؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الإقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب — لما تتأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلاً تطول به لغتهم سائر اللغات. وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قولهم (رحب العطن، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق الحجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعى بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلاً لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلاً لما يراء العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسيغوها لأنها وقعت على غير ما يالفون .

٥ - النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان - خصومة ابن شهيد وحقده على المعلمين في قرطبة - مذهب الجاحظ في تعليم البيان - كيف تكون ملاحظة النحو وفصاحة الغريب - الأنساب والقرابات بين الحروف - ربط القوافي والأوزان بالمعاني - كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقضاة - هل في مقدور كل بليغ أن يصل إلى كل غرض - البلاغة سياسة نفسية من التكلم للمخاطب - أثر الطبع في البلاغة - هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس؟ - وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحقق؟ - كيف نزن أقدار الرجال؟ .

١ - أشرنا عند الكلام على رسالة «التوابع والزوابع»^(١) إلى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب ، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدى فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصاً كل الإخلاص ، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصاً على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء . وقد اجتهدنا في أن نحفي علينا تحامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصنع أحكامه بصيغة التعميم ، ويبعد عن أذهاننا ما يريد من التخصيص ، ولكنه غلب على أمره فصرح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلطهم عليه وإسرافهم في ثلبه . فلنفهم هذا جيداً قبل عرض آرائه لنذكر أن أقواله مشربة بالضعف والحدق وأنه لا ينبغي أن نتخذها أساساً صالحاً لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف واشتقاق : لأن تلك العلوم ضرورية ، وليس من النفس أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها ، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحليل رسالة التوابع والزوابع في باب «الأخبار والأفاقيص» من الجزء الأول

٢ — يحدّثنا ابن شهيد أن قوماً من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران ، إلى فطن حمئة ، وأذهان صدئة ، لامنذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدبّ لها في نور البيان ، سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليماني من الرقص على الإيقاع والزمر على الألحان ، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم ، ولم يكن له آلة الصناعة ، كاللحمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسغه واستدارة حافره ، وأنه لو جاز لِحمار أن يغنى :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضراب على الأوتار ، ويرخي الوتر في مجرى السبابة والبنصر فيلبل بنشيدته ، ويولول في ضربه وكذلك حال المتعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد^(١).

٣ — وفي موطن آخر نراد يندّد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكّرة ثم يقول :

« وما علم من خلق هذه العصابة إذا لحتنا أبصارهم قابلونا بالملق ، وهم منطوون على الحسد والحنق ، فإذا جمعنا الحافل ، وضممتنا المجالس ، تراهم إلينا مبصصين ، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني واقفين ، وإنما يتبين تقصير المقصر ، وفضل السابق المبرز ، إذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق ، واستعجل المقال ... الخ »^(٢).

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات في تحقير المعلمين ، بل يضيف قول

الجاحظ :

« إنا إذا ا أكثرينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما في الشهر ، ولو ا أكثرينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم » وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه « عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج » ليرى القارىء كيف يكون وضع الكلام وتزويل البيان ،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل إلى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ « استمسك بفائدته ، وضمن بما عنده غيره على العلم ، وشحاً بشرة الفهم » لأنه عرف « أن النفع كثير والشاكر قليل » ولذلك كان كتابه في البيان موقوفاً على أهله ومن كبرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الإطلاق .

٥ -- ونحن لانوافق ابن شهيد على ما رآه في كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئاً عن عمد ، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن إلى فن ، ومن كلام إلى كلام ، جرياً على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطر من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وإنما تتمثله رجلاً يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفيهم أن يدونوا ما يسمعون أو ينتقل إليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا . وإنما يحتم أن يختار الكاتب ألمح النحو وأفصح الغريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيماً من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيماً من الوجهة البيانية ، فإن البلاغة في الواقع تبنى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الغلط حين يراد وزنه بالموازن النحوية ، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يهتم بتقييدها علماء المعاني . أما فصاحة الغريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الغريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوقة لتطرق إلى المعاني شيء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرّ بي وأنا أوصي رجلا عزيزاً على من أهل قرطبة وأقول له : إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام . فإذا جاور النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمت ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مליح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أتفهم شيئاً من عيون كلام القائل :

لعمرك إني يوم بانوا فلم أمت خفانا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفانا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسنت شيئاً من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد: «وكان ذلك اليهودي ساكتاً يعي ما أقول فغدا ذلك القرطبي فأشدني :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبي بالجبال

في أبيات تشبهه وجاء اليهودي فأشدني :

أيهم ركبناهم منعجا وقد ضمنا قلبك الهودجا

وأستمر إلى آخر القصيدة فأني بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بنهوك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه^(١) . ورآني أستعمل وحشى الكلام

(١) ضاع عقبه : انتشرت رائحته .

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فاستعمل شيئاً منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال ، تبخل علىّ به ! وعرضه على ابن الإفليلي فقال له : تنكب هذا الكلام ، فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه في موضعه وهو أدرب منك «^(١) .

وهذا كلام جيد ، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاوز النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا صاحب في مقدمة كتابه عن مساوي المتنبي أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن »^(٢) .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني ، فليس كل وزن يصلح لكل معنى ، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أضخم من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعاني ألطف أو أجزل من بعض ، وفتنة الشاعر والكاتب هي التي تؤلف بين المعنى وبين كبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ — ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس في جميع الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرمى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك :

« وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط^(٣) العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع في كبير مبرة قشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين ، فإذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة

(٢) مقدمة كشف مساوي المتنبي .

(٣) الخبط : السؤال ، من خبط الشجرة شدها ثم نفص ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس في عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب في فمه ، وتينة رطبة يسدّ بها حلقة ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغباً في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها إليه « (١) .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر النصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات .

المهم أن نعرف رأى صاحبنا أبي عامر حين طلب منه كشف السر الذي حرك العامة فجادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

« وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه ؛ لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب ، ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان » (٢) .

٨ — وابن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بليغ أن يصل إلى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجع فيهم تقرّيط ، وإذ ذاك « يحتاج إلى أثقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصاة لا يمكن لذي النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الأشراف عسيراً عويصاً فإنك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب » (٣) .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ ، وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لوناً من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب

والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، والكن في تلك المواطن وحدها يُحتاج إلى بيان الكتاب والخطباء والشعراء ، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في درك ما يتعسر على سواد المذثئين ، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبت ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود ؛ وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغاً من الكلام فيها ، وميئوساً من فائدة العود إلى شرحها وتفصيلها ، فإن المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الجوَّ جوَّ بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مردّد معاد ، عند ذلك يعرف البليغ الموفّق كيف يحوّل المسائل الظاهرة إلى مشاكل عقلية وروحية واجتماعية ، فينقل قلوب الجاحدين وعتولهم إلى جواء من البحث والتفكير ويقفهم موقف الحيرة والتردّد بين الخير والشر والبر والعقوق . فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف ، ولكن البليغ هو من يحوّل الموضوعات العادية إلى شئون جديدة طريفة تتحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود . وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم ، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاول محطمة من الهجو القبيح .

والبليغ يستطيع أن يصل دائماً من طريق علم النفس إلى مكان الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقعون أمام دعوات الخير والبر والإحسان ، ففي كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان .

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية ، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشدّ خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل ، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شراً مستطيلاً على المعاندين ممن يخاطبهم أو يرأسهم أو يحاورهم في جدّ أو في هزل ، من قرب أو من بعد ، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما في الروح من حب أو حقد ، أو عتب ، أو ملام وصبّ ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدو أو صديق . وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التيقظ والقوّة ، وفي أسنى أوج من الغضب أو الحنان ، بحيث تكون أنفاسنا

شواظا يتلظى حين نهاجم ونفتك ، ونسيا يتأرجح حين نحنو ونعطف . أو وضع الكلام في ذهول ومن غير درس لأنفس المخاطبة فهو العي الذي استعاذ منه الخطباء ، والإفهام الذي تهيب عواقبه الشعراء .

ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفته أن يقرر أن سر البلاغة يرجع إلى الطبع قبل أن يرجع إلى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

«فن كانت نفسه مستوية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يُطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستويا على نفسه من أصل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق .

«فن كانت نفسه هي المستوية على جسمه فقد تأتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ القلوب وتنعش النفوس ، فإذا قدشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالي

فهذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى» (٢) .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد : وهو جانب الطبع . ومعنى ذلك أنه قد يتفق لنا أن نعجب بفقره من النثر ، أو بدت من الشعر ، بدون أن يكون لما أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع إلى ما طُبع به الكلام من شرف الطبع وسمو الروح . والجانب الثاني عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبُوس لا قوام له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصى الناقد بأن «يقنص من شرف المعاني ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ» (٣) .

ويقرر أن البليغ «إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان ، وتعمد كرائم المعاني» ولا يتم له ذلك إلا بأن «يمتطى الفصل ويركب الحد ، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته» (١) .

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة ، ألسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقوائد نماذج فائتة ، وهي مع ذلك خلو من غرائب المعاني؟ فلنعرف الآن أن السر في إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه إلى الطبع والروح . ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس ، فهناك أفراد غناؤهم قليل ، ومحصولهم ضئيل ، ومع ذلك تُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للحب والإعجاب . وهذا هو سر ذبوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن ، القليلة العمق ، فإنها قد تصدر عن فطر سليمة ، وطبائع شريفة ، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء .

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس ، وكرم الطبع ، بل يتعدى ذلك إلى الصفات الجسمية : وهو يرى الأجسام من صور النفوس . يوضح ذلك قوله في المعلمين بقرطبة : «يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة ، من فساد الآلة الروحانية ، والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في الشريان إلى القاب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي ، وما يعين على ذلك بالحس وطريق القراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسقيطه ، وتواء القمحدوة (٢) ، والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة . فستعيذ بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أكبادنا» (٣) .

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء ، فليس من شك في أن للجسم تأثيراً شديداً على الروح حتى في صورته . والصور المقبولة تبعث في أصحابها روح الثقة بالنفس . وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تعليلاً لهفوات العظام : فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات ، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح .

١١ — وابن شهيد وفيّ لمبدئه في ربط الصلة بين النفس والأعضاء ، وقد حمّله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية ، ورميه بالغفلة والحق . وقد خطأ أبا القاسم الإفليلي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدّم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصراً في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط المهمة ، أو لأن إفراط جحوظ عينيه قعد به ؛ لأنه لا بدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف ذكي لا تُدَمِّم أنفاسه عند مقارنته له . ولذلك استحسنا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة ، مكحل الأظفور ، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

« ربما أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة فقيل : وأى أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أوّل أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالماً غير عاقل ، وجدلياً غير حصيف ، وفقيراً غير حلیم . وقد وجدنا من ينسب العقل إلى سهل أكثر ممن ينسبه إلى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلاً يخادع الرشيد ملكاً ويدبر له حرباً ، ويعانى له إطفاء جمره فتنة ، ناهضاً في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البغال ، وغير الكلام في الجرذان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا »^(١) وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكاتب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قعدت به كما قصّر ابن شهيد نفسه ثقل سمعه ، وكما تخلف صاحبه الأفليلي لورم أنفه . وإذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافاً بيناً في تركيب النفوس؟ إننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو إليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب في أن العلم أيضاً شهوة ، وكان الجاحظ مفتوناً أشدّ الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتوناً بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات ، فليس من العيب أن يهتم بالصغائر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون : يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال .

ويا ويل أهل الفضل إن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ - أبو بكر الباقلاني^(١)

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه «عجاز القرآن» وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دليل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه في عجاز القرآن فإننا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه في موضوع خطير جداً كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالفتن . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في عجاز القرآن وكان في ارتيابهم ميسوقة إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحدون في الحواضر الإسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التي أبطقت على معاصريه إذ يقول :

«ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواماً ، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً ، وعلى صدق نبيهم برهاناً ، ولمعجزته ثبناً وحجة ، لاسياً والجهل ممدود الرواق ، شديد التفاق ، مستول على الآفاق . والعلم إلى عناء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله في جنوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشميم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته ، فقد أدى ذلك إلى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :
انظر إلى جبل تمشى الرجال به وانظر إلى القبر ما يحوى من الصلف
وانظر إلى صارم الإسلام معتمداً وانظر إلى درة الإسلام في الصدف
والباقلاني : نسبة إلى الباقل - بتشديد اللام وقصر الألف - وفيها كلام تجده في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره ، واشتغل عنه أعوانه ، وأسلمه أهله ، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأوّل على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر ، وقائل يقول إنه شعر وآخر يقول إنه أساطير الأوّلين ... إلخ» (١).

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الإنسانية التي يجدها المطلع في أكثر ما أثر عن القدماء والحديثين . ورجال الدين خاصة يكثر من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيف والإلحاد والنسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف ، وفي هذا ما يدفعه إلى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ — ونحب في بداية هذا الفصل أن نحدّد موقفنا في درس كتاب الباقلائي عن الإعجاز . وتقرّر — في صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وإنما يهمنّا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم في وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلائي في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو ببلاغته على ما يتطلع إليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار إليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن ، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمنّا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدور تفريق بين الخطأ والصواب . فإن ذلك في جملته يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدّثنا الباقلائي أنه نُقل إليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضاه عليه) (٢)

ففى هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغى أن نقيدها أنها وقعت فى القرن الرابع . ولو أن الباقلانى بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لأستطعنا أن نعرف إلى أى حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبى ، ولكن ما صنعه الباقلانى نفسه فى نقد امرىء القيس والبحترى يحدد لنا ذلك المهيج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت إلى امرىء القيس وهى المعاقبة فنقدها بيتاً بيتاً بعد أن أشار إلى أنه لا يرتاب فى جودة شعر امرىء القيس ولا يشك فى براعته وفصاحته وما أبدع فى طرق الشعر من أمور أُتبع فيها كذ كر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذى أحدثه والتلميح الذى يوجد فى شعره والتصرف الكثير الذى يصادف فى قوله والوجوه التى ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة . ولم ينقد الباقلانى معلقة امرىء القيس إلا ليين للقارىء أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتاً بيناً فى الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والأنحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والنوحش والاستكراه : فهى على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويدوب تارة . ويتلون تلون الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر فى تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه ، ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذى يصفه بأنه « قول يجرى فى سبيله على نظام ، وفى وصفه على منهاج ، وفى وضعه على حد ، وفى صفاته على باب ، وفى بهجته ورواقه على طريق مختلفة مؤتلفة ، ومؤتلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب فى حال ولا يتعقد فى شأن » .

٤ — ونتيجة هذا — من وجهة تاريخية — أن الباقلانى ومعاصريه رأوا أنه فى الإمكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وإن لم يتحد الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمردول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التى توازىها فى الكمية ليظهر ما فى السورة من المحاسن التى لم يشمها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يعدّ من المحاولات البارعة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فإن خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يخمكون لها بالفضل . والباقلاني كان يعمد إلى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً إلى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك يا سعاد بحسن فيما أتاه ولا البطل بجمال

وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بجياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وقفاً أجملى

مع أن الذي يفهم الشعر ويندوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله « عندك » حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلنة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن في تهيبج وجده وفي تهيبم قابله . وضد هذا المعنى هو الذي يميل إليه أهل الهوى والحب .

٥ — هذا كلام الباقلاني . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟

إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوى القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يجد في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستبجح لنفسه التمكن من وضع ألفاظها أو معانيها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريح ما هموا به قديماً من الموازنة بين اثنين : أحدهما من الشعر ، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالتوراة والإنجيل والصحف الربانية .

ويجيب الباقلاني بأنه لا شيء من ذلك بمعجز في النظم والتأليف وإن كان معجزاً كالتوراة فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزاً لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن^(١) .

ومعنى ذلك أن الباقلاني يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزاً لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التي منحها القرآن ؟ .

وقد توقع الباقلاني أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته في فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التي كتبت بها التوراة والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز . وإنما يقع فيها التقارب في البيان^(١) .

فإن سأل القارئ : أكان الباقلاني يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل في وجوه الفصاحة ؟ فإننا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا في سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب^(١) .

٧ — وهنا يتطوع الباقلاني بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

«ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشئ الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية»^(١).

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

«إنالواحتجناأن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب»^(٢).

والفكرة في ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع إلى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التي لا يحتاج إليها إلا عند اللغو والتطويل . والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وإنما هو كلام طلق يجرى إلى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ — ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من إجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية فجاء أخيراً وطعن لغتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه إلى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة «مائعة» لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات^(٣).

والمسيو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتنامى أن المترادفات التي كان منها خمسون اسماً للحجر ومائة للسيف وخمسمائة للأسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لغتنا العربية وإنما هي كلمات «تصيدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المباغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلائي وابن فارس إن ما كان غرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبى ص ١٢

(٣) كان ذلك في خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف

الفرنسية .

وذلك أتمحل من جانب الباقلاني ساقه إلى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ — وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء إلى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم إلى اللغة العربية : فلغتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الإنجليزية والفرنسية والألمانية مثلاً « وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما تتشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام الباقلاني له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنا لنجد عند الجاحظ أصلاً لهذا القول . وهو يحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان^(١) .

١٠ — وللقارىء أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني ظناً منهم أن في شعر امرئ القيس مثلاً غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الإعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفردت بالتصرف في الاستعارات والإشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا في هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الإعجاز لذاتها . وإنما يقع الإعجاز حيث تكون العبقريّة في القلوب والعقول .

ونؤمن بأن في اللغات ضرباً من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحياناً للغة العربية ولكننا لم ننقل من الشعر الأجنبي شيئاً يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

(١) راجع البيان ج ٣ ص ١٢

كثير من شباننا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين .
الفن لا ينضب ولا يغيض .

ووقف المجددون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال
الفرزدق والبحتري والمتنبي ، ولا هم في طبعهم فرنجة يحميدون محاكاة يبرون وجوت ولا مرتين .

١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام
العرب !

فما هي حجة الباقلاني ؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن
يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك أن جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة إلى الرسول — وكان عتبه
حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل إلى الرسول طمعاً في أن يأتي أصحابه
بما عنده قرأ عليه النبي سورة « حم . السجدة » من أولها حتى انتهى إلى قوله : « فإن
أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .
فوثب عتبه مخافة العذاب .

قال الباقلاني « فاستحكوه ماسم فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه .
ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان
ابن مظعون : لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه » (١) .

ذلك ما قرره الباقلاني . وما نحسب أحداً يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فإنه
لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة
والقصاص .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

« قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يبين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم
ولغتهم فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً

لقالوا لولا فصلت آياته أَعْجَمِيَّ وعَرَبِيَّ» ، فأخبر أنه لو كان أعجمياً لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحدّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجّة عليهم^(١) .

والقارى يرى تناقضاً بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي نقلناها آنفاً . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو مائتي صفحة فللباقلاني عذره حين غاب عنه هنا ما أثبتته هناك .

مخلاصة الفقرة الأولى أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خضع له بدون أن يستطع حكاية لفظه أو معناه .

ومخلاصة الفقرة الثانية أن القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم ، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب : فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلاً أن نفتح كتاباً تركياً أو فارسياً فترى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لانفهم شيئاً لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لانفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لأنه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلاني من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آى القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويناقض ما من به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - بقي نوع آخر من وجوه التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يمكن أن يكون المعنى صحيحاً ليكون الكلام بليغاً . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأنا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذي يقيم وزناً لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة أن البديهيّات لا تسمى كلاماً . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول « السماء فوقنا والأرض تحتنا » لم يقل شيئاً ولا يضاف ما يلفظ به إلى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يمكن أن يكون الكلام صادقاً ليكون بليغاً . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريقاً يستهوى العقل والقلب . ومن أمثلة ذلك قول قريظ بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خُشْنُ	عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحदानا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم	في النائبات على ما قال برهانا .
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق نخشيتته	سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربي . وهي قطعة خالدة سنظل قوية بارعة ما بقي في العالم ناس يفهمون سر العربية ، ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظاً يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوباً في التعبير يتميز عن غيره من الأساليب ، وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخيّر الألفاظ تخييراً يجعلها تتمثل مع المعنى كتلة واحدة . فقوله مثلاً :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحदानا

هذا البيت يمكن رجح طرافته إلى كلمة « أبدى ناجذيه » وكلمة « طاروا » وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرف في شيء وإن هانا

فقوة هذا البيت ترجع إلى قوله « وإن كانوا ذوى عدد » وقوله — « وإن هانا » وفيهما أيضاً يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم في قوله :

كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانا

١٤ — وقد تجدد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة

الروح تصل به إلى أسنى غايات الإبداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلى الدهر على حكمه من شامخ عالٍ إلى خفضٍ
وغالى الدهر بوفر الغنى فليس لى مال سوى عرضي
أبكاني الدهر ويا ربما أضحكني الدهر بما يرضى
لولا بنيات كزغب القطا رُددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع إلى الشاعر لا إلى اللفظ ولا إلى الأسلوب : ومن ذلك يتضح

أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئاً من أسرار الإعجاز . ولذلك نراه يدورون حول الظواهر والمحسنات اللغوية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهزم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون فجاء القرآن فجمع بين السجع والترسل في نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب « الجمل » الذى قررت الوزارة

تدرسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه فجاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد^(١) .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع إلى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فترى أن محمداً عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبي ولم يجتذبهم لأنه فنان . فالقن الكلامي لم يكن جديداً عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التي كانوا يألفون . ولو رجعنا إلى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعرض مطلقاً لما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول مافي القرآن من الدعوة إلى توحيد الله عز شأنه وإفراده بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلاً لرأينا أن الذي يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

« لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس » .

وصح لهم أيضاً أن يقولوا :

« أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو

ابن كلثوم إذا غضب » .

وهذا كلام دقيق جداً لأنه يضيف قوة الشعراء إلى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع إلى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبغ إذا مدح . وذاك أفصح إذا شتب . وذلك أفحل إذا تمس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع إلى المعاني والأغراض لا إلى الألفاظ والأساليب . فالنزاع في فرنسا مثلاً بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعاً حول الفكرة .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الأغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعاً حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبدالعزیز جاویش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جداً بين الجديد والقديم كان نزاعاً حول فكرة . وما نحسب أحداً ممن هاجموا المنفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فإذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها إلى الفكرة لأنه شاعر ودیع يعبر عن معاني ودیعة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . وإذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجعها أيضاً إلى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح إليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أفبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت إليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الإنسانية التي تفصح عما يطيف بها من معاني وأفكار وآراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذلك : أ كان القرآن كلاماً من جنس كلام العرب أم كان لوناً من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فإن قيل : ولم تعذر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فإننا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

فى هذه المسألة حين قال « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

فلنتأمل جيداً عبارة « إن كنتم صادقين » ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان فى مقدور العرب أن يكونوا جميعاً أنبياء حتى يصلوا إلى ما وصل إليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذى صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع إلى المعانى : لأن المعانى فى رأيهم يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى . وإنما ترجع البلاغة إلى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعانى فقط . لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام وأن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذبا ومعناه وسطاً دخل فى جملة الجيد ، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ بارداً دخل فى جملة المستهجن الملقوظ^(١) .

١٩ — أما نحن فنلقى العجم والقرويين جانباً ونحصر البلاغة فى جمهور المنقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجودونها حيث أرادوا فى المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعاً للجهد والعتى أو العبقرية إلا المعانى والأغراض . ومن العبث أن نزن أن البلاغة لا تخرج عن انناورات اللفظية . فإن هذا إسراف فى تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ فى مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزناً للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولاً ويحىء الورق ثانياً كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلانى « ليس القرآن من جنس كلام العرب » فقررروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزاً ميبناً ، لأن الأسلوب فى رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وروحه وفكرته ومرماه ، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديداً منطقياً يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق إليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض ، فإن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فإن أراد أحد شاهداً على ما تقول فإننا نفتح المصحف عرضاً بدون تخير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ماجاء فيه غريباً عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : « أقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » .

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب ؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات إلى المعنى والروح ؟ أترونها تمتاز بالسجع ؟ وكيف والسجع كان معروفاً قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة منتقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ ؟ أترون لاختيار الألفاظ مداراً غير موجبات المعانى والأغراض ؟ فإن كانت هذه الآيات الخمس لاتكفي فإلى القارىء شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا » .

وأنا أشهد صادقاً أنى مافكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية ؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى ؟ هيئات ! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يميز بشيء عن غيره من التراكيب .

ولكن الجمال هنا في المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة إلى إثثار العدل في جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشنآن ، وقد راجعت صديقاً أديباً في هذه الآية فأراد أن ياتمس الجمال الفنى في كلمة (ولا يجرمنكم) فإن صح افتراض ذلك الصديق

فإننا نسأل أيضاً ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز . أليس مرجع ذلك إلى ربطها بالمعنى الذى اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ثقل في قوتها عن كلمة (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فإن القرآن تفرد في رأى مخالفينا بوحدة الاداء والتعبير ، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى بكر لا يجرى إلا على السنة الحكاء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدي معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل ثنائه « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونها في اللفظ ؟ أترونها في الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يجدها من يريد في أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتبين . إن الجمال هنا في الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم في نار الجحيم .

٢٠ — تترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا

بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابي يسوق مالا كثيراً : لمن هذا المال ؟ قال : لله في يدي !

تأملوا عبارة «لله في يدي» لتروا أنها من نوادر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترون

فيها شيئاً غير جمال المعنى ؟

إن الأدباء جميعاً يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة ، كتاب التوصية الذى ضربت

ببلاغته الأمثال ، فلندكر به القراء :

« كتابي هذا كتاب معنى بمن كتب له ، واثق بمن كتب إليه ، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام » .

أفترون هنا جديداً في لفظ أو في أسلوب؟ إن الطرافة كلها تنحصر في المعنى لو تنظرون.

وكتب أحد الأمراء يوصي بعض قواد الجيش :

« وكن من احتيالك على عدوك أشدّ حذراً من احتيالك عدوك عليك » .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله؟ أترونه في شيء غير المعنى؟

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري :

« عدّ مرضى المسلمين ، وأشهد جنازهم ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم

غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً » .

وهي نصائح عادية وأبلغها جميعاً قوله : « فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك

أثقلهم حملاً » .

أفترون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، في شيء غير المعنى؟

٢١ - والشعر؟ ما جماله وما عدو بته؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصـب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادي لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول « فعندكم

شهوات السمع والبصر » ألا ترون أنه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت؟ ألا ترون

أن لفظة « شهوات » لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتماشت ماعداها

من نعيم الحواس؟ .

وانظروا قول قيس بن ذريح :

إلى الله أشكو فقد بُني كما شكَا إلى الله بعد الوالدين يتيمُ

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته في غير معناه؟ أليس كل ما هنا من روعة

يعود إلى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الرؤوم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوماً بثينة تبتغي	يميني ولو عزت عليّ يميني
لأعطيها ما جاء يبغى رسوها	وقلت لها بعد اليمين سلمي
سليميَ مالي يابسين فإنما	يبينّ عند المال كل ضنين
فالك لما خبرّ الناس أنني	أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلىَ عذراً أو أجيء بشاهد	من الناس عدل أنهم ظموني
لحا الله من لا ينفع الود عنده	ومن حبله إن مُدّ غير متين
ومن هو ذولونين ليس بدأم	على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمرة لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجرالة هي صفات للمعاني تتمثل في أشباح الألفاظ ! .

٢٢ — ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يُعد الشاعر سارقاً للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يحيى حديثها بخير وقد أعيأ كليباً قديمها

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يحيى صغارها بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المدح إلى الهجاء ومن النسيب إلى الرثاء وهي كثيرة جداً ، ومع ذلك تنبه النقاد إلى أنها سرقة ، وتنبه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : « نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة »^(١) .

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية ، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل ، فالسيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان ، ولكنه في يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد . والخيال هي الخيل ، ولكن الجواد لا يكون جواداً إلا إذا اعتلى صهوته فارس مغوار ، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالحمار « تحت الفلاح العبيط » والمرأة هي المرأة ، ولكنها بين يدي الرجل الغزير أنضرت منها في حضرة الرجل البليد ! والكتاب المجيدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتاً شديداً : فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان ، وهم في أيام آخر يُسقون ويتهافنون . فما سبب ذلك ؟ السبب معروف فإن روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثراً بليغاً . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغاً في جميع أحواله ، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائفة للكاتب في كل لحظة ، ولا الروح القوى بمواتيه في كل حين . أي فهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب ؟ أي فهمون الآن أن القرآن يمثل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سرّ إعجازه راجع إلى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلائي قوله بنفي السجع من القرآن ، وهو يتابع في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه ، ويعارض جمهوراً كبيراً من أهل العلم والأدب ، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، ووجه مخالفته أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون ، ومع ذلك قيل في موضع « هارون وموسى » مراعاة للسجع ، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل « موسى وهارون »^(١) .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة، ولا يتركه إلا معاند لا يفقه ما يقول، ومن أمثلته: « والسما ذات الرجح، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل، وما هو بالهزل »^(١).

ومن أمثلته أيضاً: « والسما ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود »^(٢).

وكذلك: « إذا الشمس كورت، وإذا النجوم أنكدرت، وإذا الجبال سُيرت، وإذا العِشار عَطَّت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجَّرت، وإذا النفوس زوجت، وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت، وإذا الصحف نشرت، وإذا السماء كشطت، وإذا الجحيم سعرت، وإذا الجنة أزلقت، علمت نفس ما أحضرت، فلا أقسم بالحنّس، الجوارِ الكنّس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم، ذي قوّة عند ذى العرش مكين، مطاع ثمّ أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين »^(٣).

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة، ففي السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج.

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هي حجة الباقلاني على نفي السجع من القرآن لتقدر وزنه للحجج والبيّنات، وهو يقول:

« لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب، ولو كان داخلها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات، وليس كذلك الشعر »^(٤).

(١) سورة الطارق . (٢) سورة البروج . (٣) سورة التكوير . (٤) ص ٦٠

وهذا كلام ساقط ضعيف، فالسجع موجود في القرآن ، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والإعجاز في رأيه ينحصر في الأسلوب ، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فإنه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف أتفق للباقلاني وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفي السجع من القرآن قياساً على نفي الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفي السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لوناً من الزخرف الفنيّ يلجأ إليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية } والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الإعجاز كما أسلفنا مرجعه إلى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة إلى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها إليهم في أجمل ما عرفوا من الأساليب . ونفي الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلاني ، ولكني أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليد الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويتهم الشعراء باللغو والفضول والهيام في أودية الخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التي أطال في شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعراً لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلاني وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلاني لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه إلى خطأ أشنع في فهم

السجع فيقول :

« والذي يقدر أن سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى ، وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى » (١) .

— وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعاً للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، كما أشار إلى ذلك غير واحد ممن كتبوا في فنون البيان ، ونحن إذا تأملنا السجع في القرآن رأينا اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، ونرى القرآن في مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع في سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلمون حين يضحون بالمعنى في سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

« لو كان الذي في القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً ، لأن السجع إذا تغابت أوزانه واختلفت طرقة كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أدخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه ونُسب إلى الخروج على الفصاحة كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مردولاً وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً منقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طولُه عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأوّل بعد كلام كثير ، وهذا في السجع غير مرضى ولا محمود » (٢) .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن إلى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، وخروج القرآن على السجع من حين إلى حين من دلائل سلامته و بلاغته ، لأن التزام السجع باب إلى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على السنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم في التزيين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقعوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين نفاه على الإطلاق^(١) .

(١) يحسن بالقارىء أن يرجع إلى الفصل اثنى بسطنا فيه « أطوار السجع » في الجزء الأول

٧- أبو القاسم الأمدى

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الأمدى شىء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولاندرى متى - وأنه انتقل إلى بغداد فتلقى النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد إلى البصرة فكتب لأبى الحسن أحمد وأبى أحمد طلحة ابن الحسن بن المثنى . وكتب بعدها للقاضى أبى جعفر بن عبدالواحد . ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبدالواحد ثم لزم بيته بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١هـ^(١) .

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه فى الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التى أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى . وكتاب فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما وكتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معانى الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر . وكتاب معانى شعر البحترى . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت^(٢) .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه فى حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحترى وأبى تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل إلى شىء كثير من المعارف الأدبية التى كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته فى معجم الأنداء ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

إلى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التي تسبق إلى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وفقاً لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه في حياته الاجتماعية كان حريصاً على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل إليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ — وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهراً بالتشبيهات — كما قال ياقوت — ولكن شعره ضاع وما بق منه يدل على أنه كان جيد المعاني في أسلوبه ينقصه الرُواء . من ذلك قوله :

يا واحدا بان في الزمان من يجاريه أو يداني
دعنى من نائل جزيل يعجز عن شكره لساني
فلست والله مستميحا ولا أخوا طامعاً تراني
وهب إذا كنت لي وهوبا من بعض أخلاقك الحسان

وقوله في عالم تتمام :

لا تنظرن إلى تمتعه إذا رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر إلى الحكم التي يأتى بها تشفيك عند تطلق وخلص
فالدر ليس يناله غواصه حتى تقطع أنفاس الغواص

ومن الشعر الفكاهي قوله في أحد القضاة :

رأيت قلنسوة تستغيث من فوق رأس تنادى خذوني
وقد قلقت فهي طوراً تميم ل من عن يسار ومن عن يمين
فطوراً تراها فويق القفا وطوراً تراها فويق الجبين
فقلت لها أى شيء دهاك فردت بقول كئيب حزين
دهانى أن لست في قالبى وأخشى من الناس أن يبصرونى

وأن يعبثوا بمزاح معى وإن فعلوا ذلك بى قطعونى
 فقلت لها مرّاً من تعرفين من المنكرين لهذى الشئون
 ومن كان يشهق إما رآك ويخرج من جوفه كالرنين
 ومن كان يصفع فى الله لا يمل ويشتد فى غير لين
 ويسلح ملاك كىل التمام إما على صحة أو جنون
 ففارقها ذلك الانزعاج وعادت إلى حالها فى السكون

٤ — وأهم ما بقى من آثار الأمدى هو كتابه « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدین .

وأسلوبه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفها وأبعدها من اللغو والفضول ، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة تعجب لها اليوم أشد العجب وبيئنا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدياء أدياء الأدب والبيان : فهو يقرر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمة إياها فى المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحظة سديبه ، واستدارة كفله ، وبريق شعره ، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه ، وبرائه من العيوب الظاهرة والباطنة ، ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره أصحاب البصر به . ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه ، وصقاله ، وصفاء حديده ، ولكنه لا يمضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطلبعه وجوهره وفرنده ومضاءه ، ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزده ، وكثرة صورده ، وبديع نقوشه ، واختلاط ألوانه ، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعته وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أو دقة معانيها أو ما أشتملت عليه من مواظ و آداب و حكم و أمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر و استواء نظمه و وضع ألفاظه في مواضعها ، و غير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة^(١).

٦ — ومن الدقائق الغربية أن نرى الأمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يتحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق و الجودة و النجابة و يكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة و الدراية الطويلة ، و تكون الجاريتان بارعتين في الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه و كثرة دربته و طول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناها واحداً ، و أيهما أجود في معناه إن كان معناها مختلفاً^(٢).

٧ — وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الأمدى : فقد سبق إليها ولكنه أستغلها أحسن أستغلال . و أجل ماجاء في هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلي : « قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النعم و بينها لي — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة » .

قال : « وسألني محمد الأمين عن شعرين متقاربان وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتتا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان » . و قيل خلف الأحمر : إنك لاتزال ترد الشئ من الشعر و تقول هو رديء و الناس يستحسنونه فقال :

« إذا قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيرد إنه جيد »^(٣).

ولكن كيف السبيل إلى كسب النوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

هنا يجيب الأمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر في الشعر ، والارتياض فيه ، وطول الملابس له والانتطاع إليه ، والانكباب عليه ، والجد فيه ، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه .

٨ — والأمدى مع هذا يقرر بأنه ليس في مقدور كل إنسان أن يصل إلى كسب الذوق الأدبي بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلاً لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذي تسأله ليس في وسعه أن يجعلك في العلم بالصناعة كمنه . ولا يجد سبيلاً إلى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به ، ولا أن يأتيك بعد ذلك بعة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذي لا يستقر في الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابس لا يمكن أن ينتقل إلى ذهن آخر بمجرد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر ، بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها في لحظة واحدة ، عالمًا بكل علة محيطاً بكل حجة .

« و بعد فعل الذي غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدة من دواوين الشعراء تتصفحها أحياناً وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بتياب بدنك ، وأثاث بيتك ، وطرق نفقتك ؛ لأننا لا نراك تتباع وشيا ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهماً بدينار ، حتى ترجع إلى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع في مالك . فكان خليقا بك أن تسلّم أمر الشعر إلى أهله مخافة أن تفجع في عقلك . ومصيبة الغبن في العقل أكبر من مصيبة الغبن في المال»^(١) .

٩ — والأمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل إلى وحشي المعاني والألفاظ ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجد

للأعراب « لأن الأعرابي لا يقول إلا على قريحته ، ولا يعتصم إلا بخاطره ، ولا يستقي إلا من قلبه . وأما المتأخر الذى يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلمًا ويأخذه تلقائياً فن شأنه أن يتجنب المذموم ، ولا يتبع من تقدمه إلا فيما استحسن منهم واستجيد لهم واختير من كلامهم ... فإن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصفة سائر شعره ، وبالإبداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القرينة مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكلف وشدة التعمل . ولكل شيء حدّ إذا تجاوزته المتجاوز سمي مفرطاً . وما وقع الإفراط في شيء إلا شأنه ، وأعاد إلى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهائه » .

وخلاصة هذا الرأي أن الأعراب يغفر لهم ما لا يغفر للشعراء المثقفين لأنهم محتذون على غير مثال ، وهذا أحلى في النفوس ، وأشهى إلى الأسماع ، وأحق بالاستجداء مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ما روى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جهرته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون ، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هي أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين فى الصقل والتجميل .

فإننا نرى للأعراب حرية فى الحذف والإيصال لا نجد لها ظالماً عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية فى الحذف والإيصال هى أخص سمات اللغات الحية . وفى اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة فى كتاب الموازنة أن الأمدى يريد بالذات مسألة التعمل والتكلف والإغراب بإيثار وحشى المعانى والألفاظ . فهذا يُقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة ، ويُرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو إلى تهذيب اللغة وتصفيتها وتخليصها من عنجبية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضاً أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضري لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ،

وقد يقبل من البدوى لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هي الميزان . وهذا كما يرى القارىء من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمرٌ طويلا لأنه وافق هوى فى أنفُس الحضريين وبعضها هجر فمات لقلّة الاستعمال . ومن هذه الناحية فضّل الأمدى البحترى على أبى تمام : لأنّ البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقر به من فهم من يتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكتفى بأبى عبادة ، فلما دخل العراق تكنى أبى الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية إلى أهل النباهة والكتاب من الشيعة^(١) . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فإنه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينمق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والأمدى لا يستبعد اللحن بل يقرر أنه « لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الإسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحترى من مخالفة المقاييس والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء »^(٢) .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطباع الشعراء والكتاب دخلا فيما أثر عنهم من اللحن : لأنّ لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعد انحرفا عن الصواب . فى حين أنها تنصح عن أغراض أحبابها أتم الإفصاح -- ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادة صالحة لعلم النفس : لأنّ الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى

اخترع الأمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحترى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارىء فى صدر كتاب « الموازنة بين الطائيين » ورأينا أن ثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارىء كيف لانَ النثر وعَدْبُ على قلم الأمدى وهو يصوغ هذا الحديث^(١) :

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حدوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحترى — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف النعمرى وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أولها :

* أفاق صب من هوى فأفقا *

وأبو تمام حاضر فلما أشدها علق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحداً يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحترى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

«أيها الأمير والله ما الشعر إلاله وإنه أحسن فيه الإحسان كله» وأقبل يقرضه، ويصف معانيه ، ويدكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة. فن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفاخر كلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى المنفلوطى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع إليها فى صدر كتاب الموازنة فهى هناك أوفى وأمنع .

أن يستغنى عن أن يصحبه ، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا بمانع أن يكون البحرى أشعر من أبى تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه ، فما رأينا أحداً قال إن جميلاً أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحرى نفسه يعترف أن أباً تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جیده خير من جیدی » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحرى — إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحرئى لا عليه ، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف ، وشعره شديد الاستواء ، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أباً تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً . وأن البحرئى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسْف أفضل ممن يسقط ويُسْف .

صاحب أبى تمام — إن أباً تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولاً وإماماً متبوعاً وشهراً به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره ، وهى فضيلة عرى عن مثلها البحرئى .

صاحب البحرئى — ليس الأمر على ما وصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد واحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف ، والسنن المألوف ، بل إن مسلماً غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل إنه أول من أفسد الشعر فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبها ، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف ، فسلك طريقاً وعراً ، واستكرد الألفاظ

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه . وكل ما في المسألة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحترى فإنه مافارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجداته وتداوله . ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاحه بما يلائم الأذواق ويلاص القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحترى — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزازي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العلم . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلثه مسروق ، وثلثه صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دون له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبل كان يشنأ^(١) أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سأل عن شيء منها يأنف أن يقول لأدرى فيعدل إلى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونا على هذا القياس .

(١) يشنأ : يبغض .

صاحب البحترى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة . واليب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المظلمين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحترى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحترى — كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمى شاعراً عالماً ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحترى فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يعده فضيلة ولا يراه عالماً ، بل كان يرى أنه شاعر لا بد له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحنا يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً منه إلا بالحيلة والتمحل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من الحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلال فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح فى سهوه ويتجاوز له عن خطاه . وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط واليب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل بل عني إحسانهم على إساءتهم ، وتجويدهم على تقصيرهم .

صاحب البحترى — أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو مُحْيِلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً أستمارة قبيحة أو مخطئاً المعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهما بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام — إنكم تتذكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحترى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحترى — لم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشيد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، على أن الميث خاصة يُعطى في تأيينه من التقرُّيب والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام — كيفما كان الأمر لا يستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ، وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى — إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لندرته ووقوعه في تضاعيف الردى فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه ، وجيد البحترى كجيد أبي تمام إلا أنه يقع في جيد مثله أو متوسط فلا يفاجيء النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

٨ - أبو هلال العسكري

١ - في الأدب العربي رجلان باسم العسكري يشتهان كثيراً على الباحثين ، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكري . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه « الأعلام »^(١) فأرّخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتماداً على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني منها شيء غير أنني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجي زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبي أحمد^(٢) .

والعسكري نسبة إلى عسكر مكرم ، وهي مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذي تنسب إليه مكرم الباهلي وهو أول من اختطها ، كما يقول ابن خلكان^(٣) .

٢ - وكان أبو أحمد العسكري من رجال اللغة والرواية . وكان الصاحب ابن عباد يودّ الاجتماع به ولا يجد إليه سبيلاً ، فقال لخدمته مؤيد الدولة بن بويه : إن عسكر مكرم قد اختلت أحوالها ، وأحتاج إلى كشفها بنفسى ، فأذن له في ذلك ، فلما أتتها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكري فلم يزوره . فكتب الصاحب إليه :

ولما أيتّم أن تزوروا وقلتمو ضعفتا فلم تقدر على الوخدان^(٤)

(٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣

(١) ص ٢٢٩ ج ١

(٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١ (٤) الوخدان : سعة الخطو ، كالوخذ والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض نزوركم وكم منزل بسكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئاً من النثر فجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله ، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضاً ثم يثى عزيمتي تعود أعضاء من الرجفان
فضممت بيت ابن الشريد كأنما تعمد تشيبي به وعاني
« أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان »

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت إليه على هذا الروى » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقع الصاحب وأنه لا بدّ من الحمل على النفس ، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول إليه لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لى عمل زالك فادخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر إليه أصحابه فخلوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : تفاءلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢^(١) .

وإنما كتبنا هذه الحكمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذاً أبي هلال ، ولترشد القارىء إلى أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فإنه لا يريد رجلاً سواه .

ومن كتاب الصناعتين نعرف شيئاً كثيراً عن أبي أحمد العسكري من الوجهة الأدبية ، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان ، واختار شذرات من نثره تمثله من أوساط الكتاب^(١) .

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربية ، ولو لم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عنى به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب .

كان أبو هلال أبا النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنيا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أديعاء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف إلى الأمراء والرؤساء . وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكري كان قدوة له في ذلك ، إذ كان الصاحب يستدعيه إلى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فراراً من أن يحشر في زمرة الأتباع وطلاب المغام وأرباب الغايات .

كان أبو هلال يتجر في الثياب احترازاً من الطمع والدناءة والتبذل^(٢) ، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه ، فكان يزفر بمثل قوله :

جلسى فى سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قروء
ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويجهومو عنى رثائة كسوتى هجاء قبيحاً ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم^(٣) وحالى فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتى فلا يلعن القرطاس والخبر والقلم^(٤)

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الجبل بالصاحب بن عباد ، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) انظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ١٣٥ ج ٣ ياقوت .

(٣) العجم : النوى . (٤) ص ١٣٦ .

والشعراء ، ولكنني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ،
ولذلك مظهران :

الأول إشادته بأدب الصاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي
كرهاً شديداً لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد إلى النيل منه والوقوع فيه ،
والغض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع
والازدواج : « ومثله قول الصاحب : لكنه عمد إلى الشوق فأجرى جواده غرا وقرحا ،
وأورى زناده قدحا قدحا . . . وقوله : هل من حق الفضل تهمضه شغفا ببلدتك ، وتظاهه
كلفا بأهل جلدتك ، . . . وقوله : وقد كتبت إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تخاية
نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه »^(١) .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : « روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد
ابن عباس رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك . . . وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض
واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة . . .
وأنشدت الصاحب إسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فعدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم^(٢) .

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي هلال للصاحب ، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلاً على أن حضور الذهن من النعم التي قد يهبها الله للناس !
وزاد في باب الفصل والوصل يقول : « وهكذا يفعل الكتاب الخذاق ، والمتسلون المبرزون ، ... ألا ترى ما كتب الصحاب في آخر رسالة له : فإن حنثت فيما حلفت ، فلا خطوط لتحصيل مجد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعيت إلى مقام فخر ، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس^(١) ، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضاً في آخر رسالة : وأنا متوقع لكتابك ، توقع الظمان للماء الزلال ، والصوام لهلل شوال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تجشيم مولاي إلى هذا المجتمع ، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بفرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع ، ولفظ شريف «^(٢) .

٥ — وأما تحامله على المتنبي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففي باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الحميري :

أيارب إني لم أرد بالذي به مدحت علياً غير وجهك فارحم

ثم يقول : « فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانته ، ليس كمن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل^(٣)
فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالعين المعجمة التي تنعس صاحبها في النار (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفي باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :
إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها
وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ » .
و « بعض الشيوخ » ذاك هو صاحب بن عباد الذي قيد هذه الملاحظة في آخر
رسالته في الكشف من مساوي المتنبي ^(١) .

وفي باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضاً قول بعض المتأخرين :
عجب الوشاة من اللحاة وقولهم دع مارك ضعفت عن إخفائه
هذا ردىء لتعمية معناه » ^(٢) .

وفي باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :
فقلقت بالهمّ الذي قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل
وإنما أخذه من قول أبي تمام فأفسده :
طلبتك من نسل الجدليل وشدقم كومٌ عقائلٌ من عقائل كوم » ^(٣)

٦ — وتحامل أبي هلال على المتنبي هو المطنع الظاهر في أخلاقه ، فقد كان يستطيع
أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك
خطة واحدة هي النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله
الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبي ابتغاء
مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أحط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ نثر أبي هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ،
والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاتة ، ولا يكاد القارىء يرى في نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة في دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠

(٣) ص ٣٠٤ والجدال وشدقم فخان كانا للنعمان

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى في الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعترها ضعف ولا التواء . وانظر قوله في جودة الرصف وحسن النظم :

« أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية . فإذا كان المعنى سيئاً^(١) ، ورصف الكلام ردياً ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطاً ، ورصف الكلام جيداً ، كان أحسن موقعاً وأطيب مستمعاً ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعاً في المرأى وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمتها العين وإن كان فائقاً ثميناً . وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرافها عن وجوهها وتغير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها^(٢) .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف في مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون .

وانظر أيضاً قوله :

« البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هي مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهي موجودة في كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها في العرب أكثر لكثرة تصرفها في النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضاً متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغاً ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون في أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة^(٣) .

(١) السي ، هنا ، معناه الجيد ، والسبية : الدرة .

(٢) ص ١٢٠ الصناعتين .

(٣) ص ٢١٣ التفصيل بين بلاغتي العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع إلى دقتها وسلامتها من الفضول ، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة ، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بغير ذلك ، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته ، إذ كان تذوق الأساليب يرجع إلى طول الألفة والصدقة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء . وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع ، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون ، لسخروا منها وغدوها من عبث الرعاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدرها إلا الغربيون ولو سمعها الشرقيون لسدوا آذانهم وقالوا هذه هذه مهمة الأعجم !

٨ — وكان أبو هلال يمجيد الشعر ، ويضع شعره في طبقة أشعار المفلقين ، فينشده في الصناعتين مستشهداً به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحترى ، أو النابغة وأمرى القيس ، ومن إليهم من القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المجيدين ، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدى وهو يقصينيَ جهده
ولمن ترضاه مولا ك ولا يرضاك عبده
أملحٌ بملح الشـكل أن يخلف وعده
أم جميلٌ بجـمـيل الـسـوجـه أن ينقض عهده
ما الذي صدك عنى ليت ما صدك صدّه^(١)

ونستجيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلّص روحى من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد سرق البرد من جوانحِ خلّو

ريجه تلمس الصدور فتشفي وغماماته تصوب فتروى
 لست أنسى منه دماثة دجن ثم من بعده نضارة صحو
 وجنوبا يبشر الأرض بالقطر كما بشر العليل ببرو
 وغيوما مطرّزات الحواشي بوميض من البروق وخفو
 كلما أرخت السماء عُراها جمع القطر بين سفلى وعلو
 وهى تعطيك حين هبت شمالا برد ماء فيها ورقة جوّ
 وليال أطلن مدّة درسى مثلما قد مددن فى عمر لهوى^(١)

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٣ - كتاب الصناعتين

١ - أجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر. وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلاً ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتمييز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب بإعجاز القرآن . وهي فكرة كثيرة الذبوع عند المتقدمين : فعلم اللغة العربية في عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن إلى إعجاز القرآن اطمئناناً مؤسساً على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء^(١) . وقد أشار أبو هلال إلى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهد قليلة وأن أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو في رأيه كتاب جمّ المنافع لما أشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبنوثة في تضاعيفه: فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير^(٢) .

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإننا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : « ولم يسبقني إلى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة إليه من إيضاح غامضها ، وإزالة مظلمها ،

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز ، فسقطت عنه معرفة كثير منها ، وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك ؛ وتأمّ بما شرحته منه، وتستدل به على ما ألفتته من جنسه إذا عثرت به ، لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة ، وسأمر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة ، إن شاء الله «^(١) .

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : « وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية ، ولا أعلم أحداً ممن صنف في سرق الشعر فمثل بين قول المبتدىء وقول التالى وبين فضل الأوّل على الآخر والآخر على الأوّل غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط ، فقس بما أوردته على ما تركته ، فإنى لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد »^(٢) .

٣ — وأول ما يلاحظ في كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فإن المؤلف يتهيز جميع الفرص ليعرض للقارىء طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، وإنما يندفع فينقل من رسالة أنيقة إلى حكمة بليغة، ومن بيت جيد إلى قطعة مختارة. وقد بقي كتاب الصناعتين لذلك مرجعاً لأجل ما أنتجتته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد يندر أن نجدها في كتاب سواه ، وإليك هذه الدرّة التي نقلها عن كثير ابن هراسة في وصية ابنه :

« يا بنى ! إن من الناس ناساً ينفصونك إذا زدتهم ، وتهون عليهم إذا أكرمتمهم ، ليس لرضاهم . موضع فتقصده ، ولا لسخطهم موقع فتحذره ، فإذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودّة وأمنعهم موضع الخلاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودّة حاجزاً دون شرهم وما منعهم من موضع الخلاصة فاطعاً بجرمتهم »^(٣) .

٤ — ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد ، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص ، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية ، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة ، ومن أمثلة

استطراذه أنه أراد أن يضرب مثلاً للعلم الكثير في القول اليسير فقال: وسئل بعض الأوائل: ما كان سبب موت أخيك؟ قال: كونه! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى. فقد قيل لأعرابي: كيف حالك؟ فقال: ما حال من يفنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمته. وأن النبي عليه السلام قال: كفى بالسلامة داء. وأن حميد بن ثور قال:

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتساما
وقال آخر:

كانت قناتي لاتلين لغامز فألانها الإصباح والإماء
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحنى فإذا السلامة داء
وقال ابن الرومي:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة إذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وإنما ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وقريب من ذلك قول محمد بن علي: مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك، وتقر بك من يومك. فأية أكلة ليس معها غصص، وشربة ليس معها شرق؟ فتأمل أمرك. فكأنك قد صرت الحبيب^(١) المفقود أو الخيال المحترم. وقال أبو العتاهية:

* أسرع في نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى الممر بن تولب في الجاهلية إذ قال:

يود الفتى طول السلامة والغنى وكيف يرى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل

ثم ذكر من الأمثال: كل من أقام شخص، وكل من زاد نقص. وأضاف إلى ذلك شيئاً من مختار شعره في هذا المعنى^(٢).

(١) في الأصل «الجيب» وهو تحريف، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧

طبعة الخشاب. (٢) راجع ص ٢٧ - ٢٩

٥ — وما يؤاخذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من الشواهد ، كأن يقول : كتب بعضهم إلى أخ^(١) له « أما بعد فإن المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك فيما قدمت من خير ، وأسفك على ما فاتك من بر » وكان يقول : كتب بعضهم يصف رجلاً فقال : « أما بعد فإنك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه ، أو حدثت نفسك بالوفود إليه ، فلا تفعل ، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بمخذلان الله تعالى ، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى ، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى ، لا يرى إلا أن الإقتار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه ، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يفضب منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة ، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرهقة ، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ! »^(٢) .

٦ — ويكثر أبو هلال من كلمة « قال الشاعر ، وقال الآخر » من غير تعيين ، وهذا عيب لم ينفرد به ، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية ، وصلنا به إلى الجبل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض ، ولو نسبت كل كلمة إلى قائلها لعرفنا كثيراً من تطورات المعاني والألفاظ والأساليب .

٧ — وسر البلاغة عند أبي هلال يرجع إلى الألفاظ « وليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي ، والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه^(٣) » ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة ، والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط ، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام . ودليل آخر عنده أن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً ومعناه وسطاً دخل في جملة الجيد ، وإذا كان المعنى صواباً واللفظ بارداً فاتراً — والفاتر شر من البارد — كان مستهجنًا ملفوظًا ، ومذمومًا مردودًا^(٤) .

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فإنه يكون أروع إذا جعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقاً ثميناً .

وقد عرض في باب التتميم إلى قول الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتُدْفَن منه الصالحات وإن يُسَىٰ يكن ما أساء النار في رأسى كبكبا

إلا أنها أخرجته في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : « وهذا دليل على

صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة » (١) .

٨ — وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أُجيد لفظه إذا سخف معناه (٢) . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجوده مطالعته واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنشور في حسن رصفه وتأليفه ، وكال صوغه وتركيبه (٣) . وهو يفضل الكلام السهل ، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب (٤) .

وهذا حق : فإن سهولة الكلام تحتاج إلى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعاً بما يفهمون في لغة سهلة تجرى إلى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشيء من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعاني الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل الممتنع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكورب ماحلّ بي من صدّ هذا التائه المعجب

إن قال لم يفعل وإن سيل لم يبذل وإن عوتب لم يُعتب

صبّ بعصيانى ولو قال لى لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البحتري :

أيها العاتب الذي ليس يرضى نم هنيئاً فليست أطعم غمضا
 إن لي من هواك وجداً قد استهلك نومي ومضجعا قد أقضا
 فحفوني في عبرة ليس ترقا وفؤادي في لوعة ما تقضى
 بأبي شادنُ تعلق قلبي بحفون فواتر اللحظ مرضى
 لست أنساه إذ بدا من قريب يثنى ثثنى العصن غضا
 واعتذارى إليه حين تجافى لى عن بعض ما أتيت وأغضى
 واعتلاقي تفاح خديه تقبيلاً ولثماً طوراً وشماً وعضا

وقول الآخر :

صرفتَ القلب فانصرفا ولم ترع الذي سلفا
 وبتَ فلم أذب كمدًا عليك ولم أمت أسفا
 كلانا واجد في الناء س ممن ماله خلفا

ولكن السهولة عند أبي هلال شيء آخر غير الليونة ، فالكلام الذي يسهل حتى يصل إلى الرخاوة والانهلال ردىء مردود^(١) .

والكلام الجزل يحمىء بعد السهل في الرتبة ، والجزل في رأيه هو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها^(٢) . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه .

والجزالة عند أبي هلال شيء آخر غير الوعورة ، فهي الجمع بين القوة والسهولة ، كقول سعيد بن حميد :

« وأنا من لا يماجك عن نفسه ، ولا يغالطك عن جرمه ، ولا يلتبس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعى برك إلا من طريقتة ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بي عنك غمرة الحداثة، ووردتني إليك الحكمة ، وواعدتني منك الثقة بالأيام ، وأدنتني إليك الضرورة . فإن رأيت أن تستقبل الصنعة بقبول العذر، وتجدد النعمة بأطراح الحقد ، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة ، فإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة ، والمتعة بها وإن كثرت قليلة ، فعلت ^(١) .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :

« أجذب بنا الجناب ، وأحزن بنا المنزل ، واستحلنا الحذر ^(٢) ، واكتحلنا السمير ، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء » فعفا عنه ^(٣) .

ومع اهتمام أبي هلال باللفظ نراه ينص في مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ^(٤) . وهنا يناقض رأيه الأوّل ، فضلا عن ضعف تشبيه المعاني بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعاني بالأرواح . وفي رأيه أنه يجب أن يُفترق بين المعنى والغرض ، لأن ماجرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت في الشعر ، وعلى وحدة الفاصلة في النثر ، مع أنه يجب التفكير في وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام ، وبذلك نقل النقد إلى أفق أوسع ، وتكون المعاني الجزئية وحدات تتكوّن منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة ، كما ينظم العقد من حبات اللجان ^(٥) .

وهناك أبواب في كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل ، وإن لم تكن في جملتها مبتكرات أبي هلال . ففي باب الالتفات شواهد بديعة مسندة إلى الأصمعي إذ قال : أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى يعود بشامة ؟ سقى البشام

(١) ص ٤٩ (٢) استحلنا الحذر : اتخذناه حلسا . والحلس بالكسر كساء على ظهر

البعير تحت البرذعة ويبسط في البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١

(٥) انظر الصفحات ٩٣ - ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت إلى البشام فدعا له ؟
وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقتي لا زلت في عَلى^(١) وأيك ناصر^(٢)

وفي باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء ، بلى بمقدار ما يوجب
الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها إليك ؟ وكلا ليس منك قليل^(٣)

وفي تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من نثره هو — طيب الله ثراه —
إذ يقول :

« سمعت بورود كتابك ، فاستفزني الفرح قبل رؤيته ، وهز عطفى المرح أمام مشاهدته
فما أدري أسمع بورود كتاب ، أم ظفرت برجوع شباب ، ولم أدر ما رأيت : أخط
مطور ، أم روض ممتور ؟ وكلام منشور ، أم وشى منشور ؟ ولم أدر ما أبصرت
في أثنائه : أأبيات شعر ، أم عقود در ؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادى ظمان ،
أم غوث سيق إلى لهفان »^(٤) .

وقد يلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا في نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حجر في قوله :

ولست بخابئ أبدا طعاما حذار غد ، لكل غد طعام

لما تكرر فيه من لفظ غد^(٥) .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب في كل أحكامه ، فذلك مطلب عسير ،
وإنما يكفي أن نقول إن كتابه يضع القارىء في حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا
مدین له ، فقد قرأته أكثر من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت إليه بأنه كتاب جديد يُقرأ
لأول مرة ، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) العلى ، بالتحريك ، الشرب بعد الشرب تباعا . (٢) ص ٣١٠

(٣) ص ٣١٣ (٤) ص ١٣٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو على الخاتمي

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الخاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صبابات كافية تميّط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلاً ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة الخمر الذي ينظر حواليه فتتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوروبيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الخاتمي تشعره بأن من المحجل أن يُنسى مثل هذا الرجل في عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكريّ المجيد .

٢ - ألف أبو على الخاتمي عدّة كتب في اللغة والأدب والنقد ، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضح في مساوي المتنبي ، والمهلباجة في صناعة الشعر ، وسر الصناعة في الشعر أيضاً ، والحالي والمائل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضاً^(١) . وهذا الإلحاح في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف المروع ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تدكي الحسرة في أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق في دلالة على ثقابة الذهن ، ومتانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت في « زهر الآداب » تمثل فهم الخاتمي لوحدة القصيدة إذ يقول :

« مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبأينه في صحة التركيب غادر الجسم ذاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالمة . وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون في مثل هذه الحال احتباساً يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمدحها ، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ، ولطف أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ، ونهجو دارسه . فأما النحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين فذهبهم التعامل عن كذا إلى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعنق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطأها فأدرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به إلى غرض لم يعتمده ، إلا أن طبعه السليم ، وصراطه في الشعر المستقيم ، نضا بتارده ، وأوقد بالبقياع ناره . فمن أحسن تلخيص شاعر إلى معتد قول النابغة الذبياني :

فكنفكفت عنى عبرة فرددتها على النحر منها مستهلٌ وداعمٌ
على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع
وقد حال همّ دون ذلك شاغل مكان الشغاف تبغية الأصابع
وعيد أبى قابوس في غير كنهه أتانى ودونى راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله أوآخره ، ولا يتميز منه شيء عن شيء . ولو توصل إلى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنبوا ثمر الآداب ، وفتحوا زهر الكلام ، لكان معجزاً عجيباً ، فكيف بجاهل بدوى إنما يعترف من قلبه قلبه ، ويستمدّ عفوهاجسه « (١) .

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد الغور في نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه إلى أدق ما وصل إليه النقاد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف إلى ذلك جرأته في رمي الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع. وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأي الغالب في تلك الأيام كان يميل إلى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر ورمي من عداهم بالتخلف والإسفاف. على أن الحاتمي لم يفته أن يقرر أن البدوي الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمدّ عفوه هاجسه فيأتي بالمعجز الذي يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان.

٣ — ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقي للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترفع به كثيراً في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه معاصريه إلا القليل. فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن خمول الحاتمي يرجع إلى انصراف الناس عنه لصكفه وكبريائه وذهابه بنفسه إلى أبعد غايات الزهو والخيلاء، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبعثاً إلى أهل العلم فهجاه ابن المحجاج وغيره بأهاج مرة^(١). ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إصراف الحاتمي في العجب ودعواه التفرد بالحذق واللوزعية والذكاء. والحذقة من أخطر ما يبرزأ به العلماء والأدباء وهي تجلب إلى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكريم الصيت. وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفائاتهم فيكون ذلك أسرع إلى هدمهم وتهوين أقدارهم في أنفس الناس. وكيف لا يضيق الجمهور صدرأً بحذقة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقدّمة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر:

« وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطانه! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بي سنة الصبا وتنقاد بي أريحية الشباب بهذا العلم، وكان كلنا به علقاً علاقة المعرّم

(١) معجم الأدباء ج ٦ صفحة ٥٠١

بأهله ، منقباً عن أسراره . ووُزِنَتْ في مجلسه تـكـرمـة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تسفر خدای عن عذاريهما — بأبي علي الفارسي وهو فارس بالعربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبي عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفأز في علوم العربية تصرفاً في أنواعه ، وتوسعاً في معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبي الطيب اللغوي وكان كما قيل حنف الكلمة الشرود حفظاً وتيقظاً ، وتنازعت العلماء ومُدحت في مصنفاتهم ، وُعِدَّت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضاً ممن كان يقع الايماء عليه سخرة ، وأنا إذ ذاك غزير الغرارة ، تيمد بي أسرار السرور ، ويسرى عليّ رخاء الاقبال ، وأختال في ملائمة العز في بَهْئِيَّة من العيش وخنض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل علي أن الحاتمي كان مفتوناً بنفسه أشد الفتنة ، ومسرطاً في الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يحدد فضله ، ويطمس محاسنه ، ولكننا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائماً أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كبرياء الحاتمي بكبرياء المتنبي ، وكانا متعاصرين يضمرا كلاهما لصاحبه أقم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان إلى أبشع صور التحامل والعدوان ، ولا سيما إذا أصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذي وقع في خصومة الحاتمي للمتنبي : فقد كان الحاتمي صديقاً أو تبعاً للوزير المهلب ، وكان المهلب يبغض المتنبي بغضاً شديداً لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمي وانتظر قدوم المتنبي إلى بغداد لينظره ويؤلب العامة عليه ويهدمهم في شعره ، فتم له من ذلك ما أراد .

٥ — ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي

تلاقيا فيه لأول مرة ، وهي رسالة مغرضة بالطبع ، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضايق المتنبي ، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر ، لأن كل معول يؤثر في كل بناء ، والناقد يستطيع كل شيء متى أستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير في الغالب جناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأجد الأعمال ، ويأتي على أرفع الأقدار . وبعض هذا الوهم صواب .

ولنترك الحاتمي يتحدث قليلا لنرى خيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر ، وأذال ذيول التيه ، وصعّر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحداً إلا نافضاً مذرويه ^(١) ، رافلا في التيه في برديه ، يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نيمائه غيره ، وروض لم يرع نواره سواه ، فدل بذلك مُدیده ... حتى تخيل أنه القرع الذي لا يقارع ، والنزيع الذي لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغلب ، ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فطأطأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطمأن على التسليم له جأشه ، تخيل أبو محمد المهلبى أن أحداً لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتبعه بشيء من مطاعنه . وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوّه رجل فلا يكون في مملكته أحد يمثاله في صناعته ويساويه في منزلته ، نهدت حينئذ متنبعاً عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومظفياً ناره ، ومهتكا أسراره ، ومقلماً أظفاره ، وناشراً لمطاويه ، وممرقا جلباب مساويه ... إلخ » ^(٢) .

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال ، وهي تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومذهبه في النقد ، وفيها فقرات قوية ، كقوله يجب المتنبي وقد سأله عن خبرد

(١) المذروان بالكسر أطراف الآلية ، بلا واحد ، أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيته ، ومن القوس مايقع عليها طرف من الوتر من أعلى وأسفل . وجاء ينفض مذرويه باغيا متهددا (قاموس) . (٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

في تناقل وفتور: «أنا بخير، لولا ما جنيت على نفسي من قصدك، وكلفت قدمي في المسير إلى مثلك»^(١) وتقدت الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرقات الشعرية وسوء التعبير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين. وقد ختمت هذه الرسالة بققرات تفصح عن سرور المهلبي ومعز الدواة بهزيمة المتنبي؛ وهي كذلك دليل على ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه والخيلاء.

٦ - أما الرسالة الثانية فهي أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي، وهي رسالة ردّ فيها حكم المتنبي إلى أصولها من كلام أرسططاليس، وقد وضع لها مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في نقده عف نزيه إذ حدثنا أنه يدافع عن المتنبي «حين اتهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية»^(٢) لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي «عن شخص ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة»^(٣) وهو في الحاليين على غاية من الفضل، ونهاية من النبل.

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللطف ما لم ينله بالعنف، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعقبها بشعر، المتنبي، فاستطاع بذلك أن يفصح المتنبي فضيحة شنعاء. وفي الحق أن هذا العمل كان غاية في اللؤم من جانب الحاتمي، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأوّل وهلة، وذلك سر سحرها في أنفس القراء، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن إلى ما نقلت عنه من كلام أرسططاليس، وذلك سهم من النقد مسموم.

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي:

فإن قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدٌ
وهو بيت مقبول، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التي أخذ عنها في قول أرسططاليس
«يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة»^(٣).

(١) ص ٥٠٦ (٢) الرسالة الحاتمية (ص ١٤٤ من مجموعة التحفة البهية).

(٣) ص ١٤٦

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
يبدو للقارى متنافر المعنى بعض الشيء ، ثم يُفصح تنافره حين يُنظر إلى أصله في قول
أرسططاليس « روم نقل الطباع من ردى الأَطَاع شديد الامتناع »^(١) .

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
أقل عمقا من قول أرسططاليس :

« من لم يردك لنفسه فهو النأى عنك وإن كنت قريباً منه ، ومن يردك لنفسك فأنت
قريب منه وإن تباعدت عنه »^(٢) .

وقول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه فر بما سحت الأجسام بالعلل
أقل وضوحاً من قول أرسططاليس :

«وقد يفسد العضو لصالح أعضاء كالكي والفصد الذين يفسدان الأعضاء لصالح غيرها»^(٣)

وقول المتنبي :

وما التيه طبي فيهمو غير أنتى بغيض إلى الجاهل المتعائل
أقل تعليلاً من قول أرسططاليس :

« إن الحكيم تربه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل
يظن أنه قد تناهى فيسقط بجعله فتمتقته النفوس »^(٤) .

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
منقول من قول أرسططاليس :

« من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم »^(٤) .

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي ، وهي كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل مالتى المتنبي من خصومه المسرفين .
٧ - ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رمى به المتنبي من سرقة معاني أرسططاليس ، فقد يتفق الرجلان أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .

فقول المتنبي :

إذا أعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمرّ به الوحولُ
أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :
« من أستمرت عليه الحوادث لم يَألم بحلولها »^(١) .

وقول المتنبي :

إنعم وُلدٌ فلأُمورٍ أو آخرُ أبداً كما كانت لهن أوائلُ
معنى عادي : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس .
« كل ما له أوّل تدعو الضرورة إلى أن له آخراً »^(٢) .

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنسا نعاف ما لا بدّ من شربه
أفعل في النفس من قول أرسططاليس :
« كرهُ ما لا بد من كونه مجزئاً في صحة العقل »^(٣) .

٨ - ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس ، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفاً سواه ، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفاً جداً عند العرب لذلك العهد ، حتى أستطاع الحاتمي أن يرجع إليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي ، ويشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل ، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : « ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم » .

ثم أدارد في نفسه وما زال به حتى أغرقه في لجة من الشعر حين قال :
 لا يعجبني مَضِيماً حسن بزته وهل يروق دفيناً جودة الكفن
 ٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمي أوفر أدباً من رسالته الأولى عن
 المتنبي ، وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر : بدليل قوله في أول
 المراجعة « قال المتنبي رحمه الله ! » .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمي كتب رسالته الثانية وقد اكتمل وغلب عليه الوقار
 وفارقه النزق الذي ساد في رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدمة الرسالة الثانية :
 «أما بعد فإن أحق ما احتكت إليه نفوس أولى النظر ، وانقادت إليه آراء أهل الفكر ،
 وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعتبرين : العدل ، فإنه
 سنخ^(١) العقل ، وحليف النهي ، وصنو النهم ، وعدو الهوى » .

١٠ — هذا وكان الحاتمي متين الشعر ، كما كان رصين النثر ، وهو الذي يقول :

لى حبيب لوقيل لى ما تمنى ما تعديته ولو بالمنون
 أشتهى أن أحلّ في كل جسم فأراه بلحظ تلك العيون
 وهو القائل في قصر الليل :

يارب ليل سرور خلته قصرا كعارض البرق في أفق الدجى برقاً
 قد كاد يعثر أولاد بأخره وكاد يسبق منه فجره الشفقا
 وهو القائل في وصف الثريا:

وليل أقنافية نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح في الليل عسكر
 ونجم الثريا في السماء كأنه على حلة زرقاء جيب مدن

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعراً أثبت له صاحب اليتيمة عدة
 مقطوعات فليرجع إليها القارئ هناك^(٢) .

١١- أبو عبد الله المرزباني

١ - المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان - كما ذكر ابن النديم ^(١) - وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالبواب ببغداد . وقد نسب إلى بعض أجداده ، وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدّر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد ^(٢) .

ولد في بغداد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزباني إلا نتف يسيرة ، وأظهر أخباره أنه كان رجلاً غنيا كريماً يُفَضِّلُ على أساتذته وتلاميذه ، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من المفوات إلا إيمان الشراب . وكان من عادته في ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر وزجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والإحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخاطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تملله حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين فارورتين؟! » يعني فارورة الحبر وفارورة الخمر .

٢ - وكان في حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف في أخبارهم كتاباً كبيراً . وكان المعتزلة في تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية في الأقطار الإسلامية . وقد أخذ عليه سامحه الله شيء من التسامح في رواية الحديث .

وكان في جملة حاله معروفاً بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا ، ومنهم من يقدره على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المغرضين عليه كأبي حيان التوحيدي الذي كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة .

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إجمام^(١). ولو بقيت كتب المرزباني كلها أو جلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل. غير أننا نجد ابن النديم مفتوناً به أشد الفتون. وابن النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حدثنا أنه رأى كتاب المرزباني عن الشعراء المشهورين والمكثرتين من شعراء المحدثين. وقد أثبت في هذا الكتاب مختار أشعارهم وبين أنسابهم وأزمانهم. وأن له كتاباً آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأوّل منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والإسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر بكنية ابنه أو عرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال. ويشتمل الفصل الثاني على ما روى من نعوت الشعراء وعيوبهم في أجسامهم وصورهم كالسودان، والعمور، والعميان والعمش والبرصان، وسائر ما يؤثّر في الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضواً. ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء في دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر في الجاهلية تكبراً وفي الإسلام تديناً، ومن ترك المديح ترفعاً، والهجاء تكبراً، والغزل تعففاً، ومن أنفذ شعره في معنى واحد كالسيد بن محمد الحميري والعباس بن الأحنف ومن جرى مجراهاً. وله كتاب آخر اسمه «الرياض» ذكر فيه أخبار المتيمنين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وأنتهائه وما ذكر من أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين.

٣ - وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزباني ففي مقدور القارىء أن يرجع إليه في فهرست^(٢)، ولكن يهمننا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزباني تدور حول نقطة واحدة هي تنظيم الثقافة الأدبية.

فقد عني الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع للجاهليين كتاباً، وللمحدثين كتاباً، وعني كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحرّ والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في جملتها من أوصاف الربيع والخريف . وكتبه عن الزهد والزهاد والحجابه والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم ، وكتابه عن الأنوار والثمار الذي ساق فيه طرفاً مما قيل في الورد والزرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار . وكتابه في نسخ العمود إلى القضاة وكتابه عن أشعار النساء ، إلخ .

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه « المعجم » تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتاً لكل من تحدث عنهم من الشعراء . فمن الذي يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزباني لم يجتز منه غير خمسة قرون ؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً سماه « تلقيح العقول » في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهيم المتأدبين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والأدب وما جانس ذلك ^(١) .

٤ --- ولم يطبع من مؤلفات المرزباني — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذي نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف في مقدمته أنه اهتم بذكر ما أنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التي سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن يحتنبوها يعدلوا عنها . وأنه أودع كتابه ماسهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التي نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء قدامهم ومحدثيهم في أشعارهم خاصة ، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم ، وغير هذه الخصال من معاييرهم التي استقصاها في كتابة الملقب «بالمفيد» ، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدّث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائله ومشدّيه والبيان عن منحوله ومسروقه ، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض^(١) .

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدّة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفي الروايات والأخبار . وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدّم للقارىء معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء . وأكثر ما أثبتته لانجده اليوم في غير كتابه . وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك فأنت حين تطلع على كتاب الموشح ترى موادّه معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها في شتى المطالعات . ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قاله النقاد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلا لما استطعت أن تجدّها منظمّة على نحو ما تجدّها في هذا الكتاب . على أن المؤلف كثيراً ما تظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلا في نقد قول الطائي :

وقد سدّ مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالناقعاء

« ولم نعب من هذه الألفاظ شيئاً غير أنها من الغريب المصدود عنه . وليس يحسن من الحديث استعمالها : لأنها لا تجاور بأمثالها ولا تتبع أشكالها . فكانها تشكو الغرقة في كلامهم»^(٢) .

ومعنى هذا أن الغريب الوحشى قد يحسن استعماله إذا أطرّد في كلام متأبد غريب . أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول . وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى . والتفاهم عند المرزبانى والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألون .

٦ — ولا يخلو المرزباني — على فضله — من تحامل : فقد رأيتُه بغض من قيمة مختارات أبي تمام إذ يقول :

« وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألقه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر إحصان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم فتغبي عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام الأوّل ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدّمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لافقير إليه ^(١) .

ففي هذه الفقرة تجنّ شديد على أبي تمام وإزراء بإحسانه في تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذي مرّ ببال المرزباني مرّ ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الأشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدبين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استجيد من شعره...

ولا أدري كيف يصح هذا من المرزباني إلا أن أرحّج أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعده بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترى به في هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أخملت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم مخلقاً وترى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح في خلقها إنما ولا جنابة ، حتى صح للمرزباني على نزاهته أن يتهمه بسوء النية في تأليف المختارات مع أن في الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلاً في مجموعة أدبية وهما باب المراثي و باب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزباني أن يسوق المآخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ، وأحياناً يضيف إليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

« دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعراً لم أسمع أحسن منه وفي الأبيات بيت واحد ليس كسأرها . فعمل أنى قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أتراك أعلم بهذا منى؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتهي أن يموت . ولهذا العلة ما وقع مثل هذا في أشعار الناس^(١) » .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . « قال منقال الشاعر : قلت لأبي تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الرديء! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يحب أن يموت » وفي التعقيب على هاتين الفقرتين يكتبني المرزباني بأن يقول « وهذه حجة ضعيفة جداً^(١) » .

وأحياناً قليلة يبسط القول بعض الشيء في النقد والمقابلة كما فعل في نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فقد بين أن أفضل منه قول الطرمّاح بن حكيم :

بلى إن للعينين في الصبح راحة لطحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال « فأحسن في قوله وأجل وأتى بحق لا يدفع ، و بين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد الجيب وتقييد اللحظ عن أقصى مرامي النظر الذي لا بد أن يؤدي إلى القلب بتأمله سبباً يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه^(٢) » .

ولمرزباني ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا ينتبه إليها القارئ المتصفح ويستجيدها التأمل كقوله في التعقيب على قول أبي العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

فالغنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلاً لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها. ولكن يلاحظ المرزباني أن العبارة غير مرضية: لأننا لم نر أحداً أكل شهيداً بسم. وأجود من هذا البيت لفظاً وأصح معنى قول ابن الرومي:

وهل خُلة معسولة الطعم تجتني من البيض إلا حيث واشٍ يكيدها
مع الواصل الواشى وهل تجتني يد جنى النحل إلا حيث نحلّ يزودها^(١)
وتلك ملاحظة دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام: أخبرني عن قولك:

كأن بنى نهبان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدر
أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم؟ فأجاب أبو تمام: لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب. فقال المعارض: والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا لم يكن معها قمر^(٢).

٨ - وقد أشار المرزباني في غير موضع إلى وحدة البيت فقد تحدّث عما أخذ على امرئ القيس في قوله يصف الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءً بكل كل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلّ بصبح وما الإصباح منك بأمثل
إنه لم يشرح ما أراد بالبيت الأوّل إلا في البيت الثاني. وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتج البيت منه إلى بيت آخر. وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض إلى وصول القافية كقول الشاعر:

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيية الرجل

فإن قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت. على أن في هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ. وأجود من هذا قول النابغة الذبياني في اعتذاره إلى النعمان:

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث ، أى الرجال المهذبُ

فكلامه فى أوّل البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو أبدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لا اعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوفٍ لا يحتاج إلى سواه^(١) .

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه إلى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ إلى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة ، وإن ظن ناس غير ذلك ، فإن الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت ، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشدّ الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض ، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويداً رويداً فى نظام وانسجام إلى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جداً لحفظ الموسيقى الشعرية ونقل له قطعة لأبى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلاً ، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلجى أما	والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخيّم لما	لمت على الحب فذرني وما
ألقى فإنى لست أدرى بما	بليت إلا أنى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بسهام فما	أخطأ بها قلبي ، ولكما
سهماه عينان له كلما	أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء « المضمن » وهو عندهم من الشعر المغيّب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن تتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثراً شديداً فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تتحكم فى قدرها الأذواق .

٩ - وفي الموشح عبارات نقديه تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف ولتأمل القارىء ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوى :

« أحسن الشعر ما قارب فيه انقائل إذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بفظته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط »^(١) .

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجانه قول بعضهم في النحافة:

فلو أن ما أبقيت منى معلق يعود ثمّام ما تآرد عودها
وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها * *

لأن في الإزراء بمثل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنّها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها الذوق لدلالاتها على ما وهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كفى بجسمى نحولاً أنتى رجل لولا مخاطبى إياك لم ترنى
وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولدين :

عادنى ممرضى فلم ير مئى فوق فرش السقام شيئاً يراه
قال لى أين أنت قلت التمنى فبكى حين لم تجدى يداه

ولسنا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيعه للصورة التي قدمها الشاعر في وصف آثار النحوك .

١٠ - والمرزباني يهتم بتقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في ثنايا كلامه نزعة الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحاول أن يصيغ كلامه بصيغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهاجى البحترى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعامهم وأنها تجمع بين

سخافة اللفظ وهلهة النسيج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجا نحواً من أربعين رئيساً من مدحهم منهم خليفتان : هما المنتصر والمستعين . وساق بعدها الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك تنبى عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحهم لجماعة توفر حفظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحهم أولاً مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزباني في التعقيب على هذه المثالب .

«ولم أذكر حاله في ذلك على طريق التحامل مع اعتقادي فضله وتقديمه ولما كنتي أحببت أن أبين أمره لمن لعله أنستر عنه وحسبنا الله ونعم الوكيل» (١) .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزباني مشكور على أي حال : فمن أمثال هذه الهفوات تنكشف جوانب من النفس الإنسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدرى ! فاعل الناس يعيشون في رذائلهم أضعاف ما يعيشون في فضائلهم ، ولست أريد بهذا كمية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فإن النفس لا تجانب المادة السوية إلا وهي نائرة . والنفس في لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه في هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزباني قدر أنه قديمجيء من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحتری بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشق النفس أن يبين أمر البحتری لمن لعله انستر عنه ! وما الذي كان يقع لو ظلت صفائر البحتری مستورة وظفر بلسان صدق في الآخرين ؟

١١— هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول في نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسي وبين رجال اللغة كالأصمعي وابن الأعرابي ، فإن ذلك

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزباني طائفة من الطُرف والفكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب، ولكننا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجحاً أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .
والموشح مطبوع يستطيع الرجوع إليه من يريد المزيد ^(١) .

(١) من أطرف ما نقل المرزباني من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء في ص ٢٩٦ « حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعي يقول : حضرنا مأدبة وأبو محرز الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن أمرؤ القيس والناطقة وزهير ماتوا فبئس أشعارهم مخلدة ، فقس شعري إلى أشعارهم ، قال : فأخذ صفحة مملوءة مرقاً فرمى بها عليه ! »

الباب الخامس

كتاب الأراء والملاذيب

١ - أبو حيان التوحيدى

١ - لست أعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثراً بعاطفتين اثنتين :
 الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الآداب العربية كاتباً مجيداً أو شاعراً بليغاً أو خطيباً
 منطقياً خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرفى عبقرية البحرى مثلاً يرجع
 إلى قوة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السرفى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقده على
 من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السرفى تفوق عبد الحميد بن يحيى
 إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج إلى
 ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثأرين من
 أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقتة البأساء ،
 وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجده فى صميم أدبه إلا رعداً
 يزجر كلما مر ببالة خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والمحول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تسكن تطمع
 فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم ترددوا بين
 نسبه إلى واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ،
 فقد نص فى كتاب الصداقة والصدى على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ
 شيراز أنه توفى سنة ٤١٤^(١) وفى هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون
 هذا حظ التوحيدى فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده

(١) حدثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطيع مع
 الأسف أن نجد نسخة فى مصر من ذلك الكتاب .

فى مصر مع أنه نشأ فى عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض فى حياة التوحيدى قيمة فى فهم جدّه العاثر، وحظه المنكود ، فلو كان رجلاً مجدوداً فى دنياه لتلفت الناس إليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه ، لكنهم عرفوه شقيماً محروماً فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عنى به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتاب والشعراء .

٣ - قلت إن نبوغ أبى حيان التوحيدى يرجع إلى حقله وثورته على الحياة والأحياء ، فلا ذكر أن تلك، الثورة شبت فى مفتاح حياته ومستهل صباه ، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد وأستظل بفنائيه حيناً ، ثم تحول إلى ظلال ابن عباد ، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينقع غلته ، ويطفىء صداه . هنالك انفجر بركان غضبه وتحول إلى أتون متسعري يرمى باللهب المالح والشواظ المبيد . وقد حدثنا فى كتابه (مثالب الوزيرين) (١) أنه لما قدم على الصاحب قدّم إليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا انسخ هذا فإنه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التى لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل إلى الصاحب فحمد عليه ، وكان رجلاً لا يقبل أن يعصى له أمر أو يراجع فى قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان ، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

« ما ذنبى ، أكرمك الله ، إذا سألت عنه مشايخ الوقت ، وأعلام العصر ، فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيراً من مخازيه ، إما هرباً من الإطالة ، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضأح ، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتنى من حديثه ، فإنى فارقتة سنة ٣٧٠ » .

« وما ذنبى إن ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحملى عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل ، والظن الحسن ، حتى كأتى خُصصت بحساسته وحدى ، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى »^(١) .

٤ - وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى ، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولاً ما على يدّ لأجنيّ ولا فضلّ لذى رحم
الحمد لله شكراً قد قنعت فلا أشكو لثيماً ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل ، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبدور فى الطينة ، ثم استحسّن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قنعنا بقسمنا لكفانا
ما لنا نعبد الأنام إذا كان إلى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

« اللهم صن وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإقتار ، فسترزق أهل رزقك ، ونسأل شر خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع . وأنت من دونهم ولىّ الإعطاء ، وبيدك خزان الأرض والسماء »^(٢) .

وهذا نص فى أنه كان مشغولاً برزقه ، وأنه كان لذلك معنياً بحمد الكرماء ، وذم البخلاء ، دفعا للفقير وطلباً للمال ، فدرجت نفسه على الحرص والطمع ، وأنف الحقد على الأغنياء الباخلين ، وكان مثاه مثل المتنبي الذى تنفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك ، ومن هنا قلت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء . لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والضغن والجحود .

٥ — وما زال التوحيدى يقدم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجامح في أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيعة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدثنا في تلك الرسالة بما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

« على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، واعقد الرياسة بينهم ، وولد الجاد عندهم ، فحرمت ذلك كله » .

وفي تلك الرسالة فقرات مصرية موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى شقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، وودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صور بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

« فجوأبى لك : أن عياني منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حناظ ، ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة . وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والذفاق ، وإلى الملايحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب ما فعلته وأتيت به بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هر با من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل » .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تتور

مجرجانه بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ماهو الضمير ، وماهى

متانة الخلق ، وما معنى الكرامة ، وما مدلول الإباء ، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملق والمداهنة والرياء ، فشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان والصغار مما يضرم في نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ — وفي تلك المعركة الدامية التي خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأخش من ابن الرومى بين الشعراء ، لأنجد بدأ من الحكم عليه بأنه كان رجلاً ظاهر الطمع والجشع والحرص ، قبل في جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومرءته وأن يقترف ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : في حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استدرار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبي هلال :

جلوسى فى سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قرود

ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

واسكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .
ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

« جرى بينى وبين ابن مسكويه شىء : قال لى مرة أماترى إلى خطأ صاحبنا --- يعنى

ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة ؟ لقد أضع هذا المال الخطير فىمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إني أسألك عن شىء واحد فاصدق فإنه لا مدبّ للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فىك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أ كنت تخيله فى نفسك مخطئاً ومبذراً ومفسداً أو جاهلاً بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فإن كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يرد ورد مقلالك إنما هو الحسد ، أو شىء آخر من جنسه ، وأنت تدعى

الحكمة وتتكلف فى الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار منها المختار ، فأظن لأمرك ، وأطلع على شرك وشرك»^(١) .

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود ، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .
ويظهر مع الأسف أن الإنسان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع ، فإذا وصل إلى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق ، وأسبع على خصاله وشمائله أثواب الرضا والإعجاب .

* * *

٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يتحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه إلينا رجال فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية ، ثم صورها لنا تصويراً يقرب من الإتقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم ، طبع أولاً بالهند ، ثم طبع أخيراً فى مصر طبعاً منتقناً معنياً به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلاً ، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الإسلامية ولعل أهم مافيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهد ، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب ، لأنه يحاكى الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج ، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد ، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف ، فإذا حاولوا

الإجابة والتعليل ظهوروا ضعفاء عاجزين . وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم ينتج لهم التغلب عليها ، وكان من أثرها أن كثرت الشك والارتياب والإلحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبوحيان التوحيدى في إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

« ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبداً هناك ، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح ؟ أما تضيق صدورهم ! أما يكونون ! أما يرأبون بأنفسهم عن هذه الحال الحسيسة التي هي مشاكلة لحال البهيمة ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ؟^(١) »

وفي الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبوحيان إطالة مملّة لا تنفع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتره الملل ، ولا تصيبه الكافة ، ولا يسه اللغوب . وعلى ذلك بقي الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنًا غير قليل ، وجعلها من الغايات التي يسمو إليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهي الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى وتمثل هذه الشخصية الرائعة في رسائله الوجدانية ، وفي استطراداته الممتعة التي جرى بها قلمه في كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجداني من التوحيدى تكون ونشأ في هجبرالفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياد وسواد ليلاليه . وإنك لترثى له وتبكي لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

« وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : « اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمننى حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم » وأقول : « اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشقى الرجاء »^(٢) والخوارزمي

(١) راجع ص ١٩٤ من المقابسات . (٢) ص ١ من الصداقة والصديق .

هذا الذى يعجب به التوحيدى ويتحدث عنه ويتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف ، ورأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الأهاب ، فلا عجب أن يردد « التوحيدى » شكاته وأنينه وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ — ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فإليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفاً عن الخوارزمى ، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة « فاقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأت وأعدته ، ونشرته وطويته ، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى أى حال تمت ، لتعجبت ، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منها بتقديك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة ، وعاقبة مفضية إلى كرامة ، فقد بلغت شمسى رأس الحائط ، والله أستعين على كل مامم النفس ووزع الفكر ، وأدنى من الوسواس » .

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى ، كتب حين بلغت شمسه رأس الحائط كما قال ، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة ، فهو أنضح ثمرة من أدب التوحيدى . وليس يهمننا فى هذا المقام ما أشتمل عليه من الفقرات الجميلة والمقصوعات البديعة ، والأخبار الطريفة ، إنما يهمننا بنوع خاص مامر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات ، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة السمات .

١١ — والصور التى يقدمها التوحيدى تمرُّ غالباً على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويراً عجيباً يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنى اللغة قوى الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يند منها شيء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

« وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامِل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو وليّ أو خليط . كما لا يخلو أيضاً من عدوّ أو كاشح أو مداحٍ أو مكاشف أو حاسد ، أو شامت ، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو منزل أو مزل أو مغل أو مغل » (١) .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أ كثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدّة صور في الصداقة والحب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : « الصداقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازي الشهوة ، وأنزّه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى إلى حدود الرشاد ، وأخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحدائث . فأما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتتيم والتهم والهوى والصبابة والتدائف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كالأعراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ ليفيئثوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط » (٢) .

ونقل في موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق ، لأنك تفرع بحديث المعشوق إلى الصديق ولا تفرع بحديث الصديق إلى المعشوق (٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل إلى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن إلى والده للتعز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى إليه ؛ وينزع إلى الوالدة لشفتها ودعائها الذى لا يعرج إلى الله مثله ؛ ويشتاق إلى أخته للصيانة لها والترحُّ إليها ؛ وإلى ابن عمه للاتصار به ،

ولابنة عمه لأنها لحم على وضم ؛ ويصبو إلى عشيقه لأن ذلك شيء يجده بالفطرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض ، وفى المحجون جوادرا كض . ثم قال : أما الصديق فوجدى به فوق شوقى إلى كل من نعتته لك ، لأنى أبأته بما أجل أبى عنه ، وأجبا من أمى فيه ، وأطويه عن أختى خجلا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفاً من حسد يققاً ما بينى وبينه . فأما العشيقه فقصاراى معها أن أشوب لها صدقاً بكذب وغلظة بلبين لأفوز منها بحظ من نظر ، ونصيب من زيارة ، وتحفة من حديث . وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم إلى دون الصديق الذى حرىمى له مباح ، وسارحى عنده مراح ، أرى الدنيا بعينيه إذا رنوت ، وأجد فائتئ عنده إذا دنوت ، إذا عززت له ذل لى ، وإذا ذلت له عز بى ، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودّة ، وإذا تصاممتنا تناجينا باسان الثقة ، لا يتوارى عنى إلا حافظاً للغيب ، ولا يتراءى لى إلا ساتراً للغيب^(١) .

وقد عرض التوحيدى للصدقة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فايرجع إليه من شاء .

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها إلينا التوحيدى حين قال :

«قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إنى أرى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازجةً نفسية ، وصدقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، وموآاة خلقية ، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال : يا بنى ! اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر . ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة ، حتى أنا نلتقى كثيراً فى الإرادات ، والاختيارات ، والشهوات ، والطلبات . وربما تراورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمر حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسأم بينى وبينه ، أو كأنى هو فيها أو هو أنا . وربما حدثته برؤيا فيحدثنى بأختها فتراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل ، أو بعده بقليل » .

وقال بعد كلام : فقلت هل تجد عليه في شيء ، أو يجد عليك في شيء ؟ فقال : وجدى به في الأوّل قد حجبني عن موجودتي عليه في الثاني ، على أنه يكتفى مني فيما خالف هواي باللمحة الضئيلة ، واكتفى أنا أيضاً منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة . وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق السكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا في ذلك مقنع ، وإليه مفرغ ، وقلمنا نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي ، ولا ندّت عن صدرى إلى لفظي ، وذلك للصفاء الذي تساهمه ، والوفاء الذي تتقاسمه ، والباطن الذي تتفق عليه ، والظاهر الذي نرجع إليه ، والأصل الذي رسوخنا فيه ، والفرع الذي تشبنا به . والله ما يسرنى بصداقة حُرِّ النعم . وإذا كنت أعشق الحياة لأنى بها أحيا كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها ، وجلب إلى روحها ، وخالط بي طيبها وحلاوتها» (١) .

والقارىء الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث الشائق الخلاب ، وما عسانا نجد فى الإفصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله « وقلمنا نجتمع إلا ويحدثني عنى بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي ، ولا ندّت عن صدرى إلى لفظي » .

هيهات هيهات ، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق إليها إلا الملهمون .

١٤ — وينبغى أن نشير إلى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا ، ولكنه كان يستتر اتقاء لسخط الجمهور ، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مربية ، كقوله : « الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأسماء ، والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعترتهم مرض أصلا . وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فوق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به إلى الصحة — هذا إذا كان الدواء ناجعاً والطبع قابلاً والطبيب ناصحاً — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة وإذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

الفضائل وفرغها لها وعرضه لاقتنائها ، وصاحب هذه الحال فأثر بالسعادة العظمى ، وقد صار مستحقاً للحياة الآلهية ، والحياة الآلهية هي الخلود والديمومة «^(١) .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت في القرن الرابع وهي من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية ، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط ، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم . أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتاب فى ذلك العصر ، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف ، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية ، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس ، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان^(٢) .

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات . (٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هذا الكتاب. ولكنارأينا الباحثين أطلالوا فيها القول قديما وحديثا ، ورأينا من ناحية ثانية أن النثر الفنى فيها قليل. على أننا لم نغفلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأفاسيص) - راجع «الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن» فى الجزء الأول وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصل (السجع والازدواج) .

٢ - أبو علي به مسكويه

١ - لما أصل إلى التثب من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة « مسكويه » وتارة « ابن مسكويه » وقد حدث ياقوت أنه « كان مجوسياً وأسلم » فظن صديقنا الأستاذ الزركلى صاحب « الأعلام » أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسياً وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل « اسمه أحمد بن محمد » والأرجح عندي أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل « وكان جده مجوسياً وأسلم » وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه في شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاخص بأعلام بني بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب في ذلك العهد تسمى « الخزانة » وظل متصلاً بأولئك الملوك إلى أخريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهنيء عميد الملك باتفاق الأضي والمهرجان في يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	أسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائقٌ خُيرت في كل صالحة	فلو دعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرح شباب لست أذكره	بعدا ، وردّ على العمر من كتب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرّس بى خصم تعصب لى	وإن أساء إلى الدهر أحسن بى
وقد بلغت إلى أقصى مدى عمرى	وكلّ غربى واستأنست بالنوب
إذا تملأت من غيظ على زمنى	وجدتنى ناخفا في جذوة اللهب

٣ - شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء ، ولكنه لم يكن فيها من الموقنين وكان إخفاقه مثاراً لسخرية أبي حيان التوحيدى ، فقد غمزده فى كتاب الإمتاع ووصفه بأنه « فقير بين أغنياء ، وغنى بين أنبياء » (١) واتهمه بالجهل وقلة المحصول ، وأنطق بعض محادثيه بهذه الجملة « يا مجباً لرجل يحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى ما عنده وهذا حظه ! ثم أجاب : قد كان هذا ! ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمياءى الرازى مملوك الهمة فى طلبه ، والحرص على إصابته ، ففتونا بكتب أبى زكريا وجابر بن حيان ، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه فى خزانه كتبه . هذا مع تقطيع الوقت فى الحاجات الضرورية والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ؛ والحركات دائمة ، والفرص بروق تأتلق ، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس عن فوائدها تذوب وتتحرق . ولقد قطن العامرى الرى خمس سنين ودرس وأملى وصىف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كان بينه وبينه سد . ولقد تجرع على هذا الصاب والعلقم ، ومضغ لقمة حنظل الندامة فى نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه ، حين لم ينفع ذلك كله وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ .

وقد أولع التوحيدى بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل وادعا الحكمة والتكلف فى الأخلاق . ولننظر كيف يقول فى كتاب الوزيرين :

« جرى بينى وبين أبى على مسكويه شئ : قال لى مرة : أما ترى إلى خطأ صاحبنا — وهو يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة ! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! أسألك عن شئ واحد ، فاصدق فإنه لامدب للكذب بينى وبينك : لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضاعفه أكنت تخيله فى نفسك مخطئاً ومبذراً ومفسداً أو جاهلاً بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ، وليته أربى عليه ! فإن كان

الذى تسمع على حقيقة فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شئ آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك وأطلع على شرك وشرك» (١).

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق، ومثانة الخلق قوة مرعبة يرعد لها الأدباء المساكين الذين أبتلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء، وألقوا التزلف والتودد إلى أقطاب الجاه والمال. والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خالقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غربياً بين معاصريه من الأدباء، فليس عجيباً أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موقف مطمئن العيش كابن مسكويه. ولو شئنا لأضفنا أيضاً نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حدّ مدهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل، ولهذا نراه حين يستر تحامله على ابن مسكويه لا يجد غير هذا النناء الهزيل إذ يقول:

« و بعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ » (٢).

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدّحاً يتملقه لثام الشعراء والكتّاب، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمداني رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص؛ وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان، لا يعترف لأحد بفضل، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يمرّ به من مختلف البلاد: حتى لا يذكر بالعلم والنبيل إنسان سواه وتكاد رسائله وقصائده تقصر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

(١) مرت هذه الكلمة فى الفصل السابق ص ١٣٧ (١) ٢ ياقوت ج ٢ ص ٩٠

وأضغان وأحقاد ، وقد أتصل بابن مسكويه حيناً ، ثم سعى بينهما الواشون فكدرُوا ما كان
ينتظره البديع من طيب الصلوات ، فكتب إلى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عزّ إن واش وشى بى عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلا
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا تزحزح لاقربياً ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره،
ولا الصدق ظهوره ، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فناء ظنه ، ومعاذ الله
أن أقولها ، وأستجيز معقولها . بلى كان بينى وبينه عتاب لا يزرع كنفه ، ولا يجذب أنفه ،
وحديث لا يتعدى النفس وضميرها ، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعربة كربة أهل
الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة ، كغناء جحظة ، فسبحان
من ربى هذا الأمر حتى صار أمراً ، وتأبط شراً ، وأوحش حراً ، وأوجب عذراً ، بل
سبحان من جعلنى فى حيز العذر أشيم بارقته ، وأستخيل صاعقته ، أنا المساء إليه ، والمجنّى
عليه ، والمستخف به ، لكن من بلى من الأعداء كما بليت ، ورمى من الحسدة بما رميت ،
ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكارد ما وصفت ، إعتذر
مظلوماً ، وأحسن ملوماً ، وضحك مشتوماً . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحداد ، وأولاد العدد،
بهذا البلد ، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية ، لضىن بعشرة غريب
إذا بدر ، وبعيد إذا حضر ، ولصان مجلسه عن لا يصونه عمارق إليه . فهبنى قلت ما حُكى
له ، أليس الشاتم من أسمع؟ أليس الجانى من أبلغ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا
من الأستاذ نفساً لا تستفز ، وجبالاً لا يهز ، وشوا إليه بما أرثوا به نارهم . ورد على ما قالوه
فما لبثت أن قلت :

فإن يك حربٌ بين قومى وقومها فأنى لها فى كل نائبة سلمٌ

فيعلم الشيخ الفاضل أن فى كيد الأعداء منى جرة ، وأن أولاد الزنا عندنا كثرة ،
وقصاراهم نار يشبونها ، أو عقرب يديبونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل ، وأكره أن أستقيل ، بسطت في الاعتذار شاذرواناً ، ودخلت في الاستقالة ميداناً ،
لكنه أمر لم أضع أوله فلا أندارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاي إن عدت ولم ترض لى أن أشرب البارد لم أشربِ
إمتط خدى وأنتعل ناظري وصدِّ بكفى حمة العقب
بالله ما أنطق عن كاذب فيك ولا أبرق عن خلَّب
فالصفو بعد الكدر المفترى كالصحو بعد المطر الصيَّب
أن أجتن الغلظة من سيدى فالشوك عند الثمر الطيب^(١)

ثم انتظر من ابن مسكويه أن يعتذر عن إعراضه عنه ، فأجابه بما نصه بعد الديباجة :
« أما البلاغات التي أوما إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبتني عن هذه
الطريقة وما أبعدني عنها ! وقد نزه الله لساني عن الفحشاء ، وسمعي عن الإصغاء ، وما يتخذ
العدو بينهما مجالاً »^(٢) .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من
المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات ، وإن كانت عبارة
ياقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب ووداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفاً بالغاً بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف
العرب من مؤلفات اليونان ، ويرى القارىء في آثاره ظلالاً كثيرة لآراء سقراط وجالينوس
وأرسطاطليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت إلى أعماق نفسه في وضوح وجلاء
فاقتنى منهاج اليونان في عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية .
وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كان يكتفى بها الصوفية

والناسكون والزاهدون ، بل ساير العقل وصاحبه وأنس به واطمأن إليه ، ثم اتخذ أساساً للأخلاق ، فصار العقل عنده نظيراً للوحى فى عرف المتبتلين ، ومازال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يجتنب الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقاً لطمأن إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق .
وإلى القارى وصيته — أو دستورده إن شاء — فى نظام السلوك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد ربّه وهو يومئذ آمن فى سر به ، معافى فى جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعو إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة : عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمه الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، وعلامة حكته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولاً نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر باباً :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد التى ينجزها ، وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل وقلة الثقة بالناس وبترك الاسترسال ، ومحبة الجميل لأنه جميل لاغير ذلك ، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل . وحفظ الحال التى تحصل

فى شىء شىء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والإقدام على كل ما كان صواباً ، والإشفاق على الزمان الذى هو العمل ليستعمل فى المهم دون غيره ، وترك الخوف من الموت والفقير لعمل ما ينبغى ، وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقير والكرامة والهوان ، وذكور المرض وقت الصحة ، والمهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقبل الطغى والبغى وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال إليه^(١) .

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الاخلاق عند ابن مسكويه

١ - كما عرّفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير المتخلق : لأن المتخلق يقتضى شعوراً بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء في أصل الخلق ، فبين أن منهم من ظنوا « أن الناس كلهم يخلقون اختياراً بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشراراً بمجالسة أهل الشر والميل إلى الشهوات الرديئة التي لا تقمع إلا بالتأديب »^(١) وأن منهم آخرين « ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهل لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون اختياراً بالتأديب والتعليم »^(٢) وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه « ليس شىء من الأخلاق طبيعياً للإنسان » وإنما طبع الإنسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقاً لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الآراء ، ومزيتته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلاً « وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهد عياناً » وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال ، فإن أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكاله إلى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وصدده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الإنسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم

معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوائن والمتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر والخير والشرير»^(١) .

٢ — والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهي محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكدرت عليه بسبب حيرته في تحليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع أرسططاليس ، وطوراً مع العقل وطوراً مع الشرع ، بحيث تصطدم في كتبه معالم المعقول والمنقول، ولذلك تراد يرتب أقوال الحكماء ترتيباً سيئاً في أكثر الأحوال ، لأنه لا يعمى إلى غاية معينة يسوق في سبيلها الحجج والبراهين وقد يحتطب أحياناً في ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردى والطيب والخبيث ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت في أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذي يثور عند هبوب الرياح، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة نجأتها فلسفة اليونان بزواجر وأعاصير أطارت ما كان استقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التي تأتي من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموا من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلهم في ذلك مثل من يشرب الدواء لاتصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسططاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد في عصرنا شواهد لذلك ، ففي رجال اليوم من له في كل صباح رأى جديد، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتناخذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لهم في توافقيهم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون في المساء صدى لكتاب قرأه في الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرينا من خلص من قيود ماقرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والإحسان .

٣ — رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي القصد إلى تنقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بأرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر — فيما يظهر — بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا نراه يهتم أولاً وقبل كل شيء بإثبات وجود النفس وجوداً مستقلاً عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المحاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلهام الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون — وما أكثر ما يضلون ! إلا لياسهم من خلود النفس الإنسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين « إن هي إلا حياتنا الدنيا تموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

٤ — وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئناً إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج . فلنختبر ما صنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر « أنا لما وجدنا في الإنسان شيئاً ما يضاف لأفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضاً أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه في حال من الأحوال ، وكذلك نجد بين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام أجساماً والأعراض أعراضاً حكماً بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضاً ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضاً فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص » (١) .

ومعنى هذا أن الإنسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعاً للنزاع إلا النفس وهي عنده تضاد الأجسام في الحدود والخواص .

« وبيان ذلك - كما شرح في كتاب تهذيب الأخلاق^(١) - أن كل جسم له صورة ما فإنه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة .

مثال ذلك أن الجسم إذا قبل صورة وشكلاً من الأشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير وغيرها إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شيء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وطلانها ألبتة . فإن بقي فيه شيء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام . بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداها على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول » .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات « على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثانى أيضاً تاماً كاملاً ؛ ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبداً دائماً من غير أن تضعف أو تقصر في وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور » .

٥ - تلك إحدى محاولات ابن مسكويه في استقلال النفس ، وكلامه في هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شيء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشيء على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف في محو ما يحيك في الصدور من الريب في استقلالها

عن الجسم وتفردا دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما أدعاه من أن النفس «تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا ياحقها فتور ولا كلال ولا نقص» فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والجمول، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكييف ما يعتلج بصدرة من ألوان المودات والعداوات. وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضي أن يتمتع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع ، فليس من السهل الإقناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد ، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يعنيان في كشف ذلك السر الذي لم يجادل كشفه القرآن .

٦ — فإذا تركنا الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضينا تتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأينا في أكثر الأحوال من الموقنين ، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول « الإنسان مدني بالطبع » فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه « أنه لم يخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، لأن كل واحد من تلك خلق مكتملاً بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره ، بل قد أريحت علته في جميع ما تتم به حياته خلقه وإلهاما . أما الخلقه فلا نه مكتمس بما يوافق من وبروصوف وشعروريش وما أشبه ذلك ، وذو آلة يتناول بها حاجته: إن كان لاقط حب فمقاره ، وإن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع ،

وإن كان سبباً أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر.... وأما الإلهام فلا أنه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره، وينتقل من مصيفه إلى مشتاه، ويعدّ مصالحه كلها من القوت ولكنّ بغير تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه، فكل واحد منها مكتف بذاته في حياته التي قدرّت له. فأما الإنسان فإنه خلق عارياً غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم، ولا يكفيه القليل من المعاونين حتى يكونوا عدّة كثيرة وجماعة وافرة، وإذا كان هذا على هذا وكان سبيل الإنسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدني بالطبع: أي محتاج إلى ضروب المعاونات التي تتم بالمدينة واجتماع الناس. وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدّن سواء كان ذلك الناس وبراً ومدراً أو على رأس جبل» (١).

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى تيجتين عظيمتين:

الأولى: أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا.

الثانية: أن الذهاب إلى التزهّد وتحريم المكاسب ظلم: لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده، فهو يطلب معاوتهم ثم لا يعاونهم، وذلك ظلم وعدوان. فإن ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معاونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون «وإن كان لا يشعر بذلك» (٢).

وهذه دقة في فهم الأخلاق، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون. وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد، فالمصباح الذي نقرأ في ضوئه، ونظام البيت الذي نأوى إليه، والكتاب الذي نهتدي بهديه؛ والشرائع التي نعيش في حماها؛ كل أولئك جزء من جهود إنسانية

عديدة منها القريب ومنها البعيد ، وتلك الجهود تظننا ونحن أجنه في بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد ، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية ؛ ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذي عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق ، وهو في هذا مسبوق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين ، ولكنه بسط القول في الصداقة بسطاً شافياً ينساب إلى النفس انسياب الماء إلى الأشجار الظماء ، وهو في ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المحرّب الذي صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات ، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقد تقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألف العدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة في غاية من الدقة : فظالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن في الصداقة ما يعنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ - ابنه نباتة الخطيب

١ - اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤ ، والثاني محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب « سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته الصلاح الصفدى وهى مذكورة في خزائن الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨) ^(١) والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ - وابن نباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفق رزق مالم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته ^(٢) . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ^(٣) وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر فى عدة مواطن فى كتابه ^(٤) ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القليوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كُتب عنه أن الرجل كان قد فنى فى الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوقاً بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتمنى لو يرى الرسول فى المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل إلى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت فى منامى

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائرى ومقدمة ديوان ابن نباتة للبشتكى .

(٢) ص ٥٠٧ ج ١ (٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٣ و ٤٦٠

كأني بظاهر ميفارقين عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى فائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآنى فقال : مرحباً يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوماً إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأساً مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر آلية برة ، أن لا يجعل لهم إلى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدوا فى الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسجددهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يعيد الله خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً — وأومات عند قولى تكونون شهداء على الناس إلى الصحابة ، وبقولى شهيداً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

فقال لى : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله ونقل فى فى وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحنى ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شىء أكثر من شغل الرأى وأتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يجدته إلا بما يجب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغرماً بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجه الرسول أهتامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة إلى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله بإدائهم تغله فى فه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاماً ولا يشربه مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى ترد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده إلى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض الجامعات ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

الخطيب ابن نباتة في المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا واليوم أضحي لك أمنان
والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جاني

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة ، فالله عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر ، وفيها بيتان من الشعر . فالرأى صور له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعراً تكون أدل على العناية . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفر لى بقولى :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك واجدٌ رباً غفورا

وقد أشرت فى كتاب الأخلاق عند الغزالي إلى المنامات التى رآها أنصار الغزالي وخصومه بعد موته ثم قلت فى التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالي من أصحاب الكرامات ، كما نوه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما أتخذها دليلا على ما وصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فإن لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته ، وهؤلاء الذين جلدوا فى منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالي وهم أيقاظ ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء ، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء » (١) .

٤ — هذا الجوِّ الذى أحاط بابن نباتة ، جوِّ التقى والصلاح والزهد ، أثر فى خطبه أبلغ تأثير ، فأفاض فى ذكر الموت والبعث والحشر والميزان ، وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب ، وما سيعانى المسيئون من العقاب ، وهناك جوِّ آخر أثر فى خطبه وأعطاه صبغة قوية رهيبة ، فلهذا ذلك الجوِّ هو أتصالة بسيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ويحثهم على نصرته سيف الدولة .

(١) الأخلاق عند الغزالي صفحة ٣٤٧

٥ - ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حدّثنا صاحب المثل السائر^(١) أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يغمرون بها ويكبون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوى مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعدّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، وسجعه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع إلى لغة الخطباء ؛ فهو أسرع تأثيراً في الجماهير التي لا تنظن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصالاً للتقاليد القديمة التي عرفت عن السكّهان ، والسكّهان هؤلاء كانوا رجالاً يؤدّون في البيئات الجاهلية ما يؤدّيه الخطباء الواعظون في البيئات الإسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائماً عامة الناس الذين يجدون فيما تحتوي السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيراً لما لا يدركون من النزعات الإنسانية الكامنة التي يهبجها النغم والإيقاع .

٦ - وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما يهتم به الحريرسون على التفوق في الصناعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

« حتى إذا استحكمت فيهم طاعة التخليد ، واستولت عليهم رفاهية التمهيد »^(٢) .

وهو في هذه الكلمة قابل بين « طاعة » و « رفاهية » وبين « التخليد » و « التمهيد » . . . وقوله :

« ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا ، وطال بهم العفاء فأخلقوا »^(٣) .

فقد قابل بين « صال » و « طال » وبين « القضاء » و « العفاء » وبين « أطرقوا » و « أخلقوا » .

وكذلك قوله : « فلهم عباد الله إلى محاسبة النفوس ، قبل موآبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس ، يوم غض الرؤوس ، وفض الطروس »^(٤) .

(٢) صفحة ٦٠ من ديوان الخطب النباتية .

(٤) صفحة ٦٢

(١) صفحة ١١٨

(٣) صفحة ٦١

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج إلى تعيين .

ومما يجيده ابن نباتة تضمين آي القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاماً تاماً حتى تقع الآية في سياق الكلام موقفاً لطيفاً لا يتنبه له القارىء إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له ابن الأثير العبارات الآتية :

« فأيها الغفلة المطرقون ، أما أتمم بهذا الحديث مصدقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .
وقوله في ذكر يوم القيامة :

« هناك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتاباً ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرايا يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » . وقوله أيضاً « هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »
وهذه التضمينات كثيرة جداً في خطبه ، وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يخفى في هذا النوع ^(١) .

٧ - وبجانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فن آخر لابن نباتة هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد في أمثال تعابيره المثقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ، لأن رواد المساجد والمعابد يقبلون عليها غالباً بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخيل البارع قوله يتحدث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الحجاج في عرفات :

« يحنون إلى حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون على من فجاج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء ، خواصاً لجج الرمضاء » ^(٢) وأنا يعجبني الخيال في قوله « أنضاء على الأنضاء » يريد الحجاج الذين أنضاهم التقى والخوف على المطايا التي أنضاهها السير والسرى .

وقوله «خوفاً لجلج الرمضاء» فيه أيضاً خيال جميل ، وإن كنت لا أستجيد إضافة اللجج إلى الرمضاء ، لأن أيام الحج لا تكون دائماً في القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل إلى بعض الصور الطريقة كقوله في بعض خطب الجهاد :

« قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا إطاع السراب ، تهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونبلس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، تنظر إلى المعروف نظر الخزر الغضاب ، ونسكن إلى المنكر سكون الباني بالحدود الكعاب ، وقد أظلنا من العدوّ سحائب ممتدة الأطناب ، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب»^(١) .

وقوله في خطبة أخرى : « إن للجنة باباً حدوده تطهير الأعمال ، وتشيدته إنفاق الأموال ، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات في معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال»^(٢) .

٨ - أما من الوجهة العقلية فإن نباتة يقف دائماً في حدود الأفكار السطحية ، فيبدى ويعيد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أول السنة ويبين فضل يوم عاشوراء ، ثم يخطب في فضل رجب ، ثم يودّعه ليستقبل شعبان ، ثم يودّع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التي تهتم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضاً خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح الملتهب والرأى السديد . وهي دائماً دون خطب على بن أبي طالب التي كان يحفظها ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقفه الخطابية . ومن الصعب أن نجد في خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله : « فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء»^(٣) وقوله : « واستشعروا السكينة إذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عقابها ، وأحرّ اللطام ضرابها ، وأمرّ الحمام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلاً قد أشرعت إليه

الجنة أبوابها ، وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خطابها ، وصرخ الشيطان بطنام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهول باحتشاد عبدة صُلبانه ، وضمن لهم ما هو مخفر في ضمانه ؛ وجاء الحق وبطل النفاق ، وانسدت بجيش العدو الجهات والآفاق ، فأخذوا هنالك بصواعق العزمات رهجه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ، وأضربوا ببيض الصفاح ثبجه ، وأركبوا ببذل الأرواح لوجهه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه» (١) .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألسان الجماهير بخطبه ، وعرف كيف تساس العامة وكيف تغرس في صدورهم بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدي الأغراض المرجوة من مثله في تعابير فصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت مثلا في براعة الإنشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمق في مخاطبتها عي ، والتدلى في إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

٥ - أبو محمد بن هزيم^(١)

١ - كان الناس يعرفون عن ابن هزيم أشياء قليلة من حياته الخاصة . ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التي تأصلت جذورها عند علماء المسامين . وكتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .
ويعد ابن هزيم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه والتشريع .

ولكن تبين أخيراً أنه كان لذلك الإمام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب في زمانه واستهدف على عظمته للقبل والقال . وأوّل ما عرف ذلك كان في دوائر المستشرقين حين طبع كتابه « طوق الحمامة » في ليدين سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ بـُروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جداً في أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل . وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتاباً ألف في « فن الحب » قبل ذلك الكتاب لافي اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة ، لأن أوروبا في القرن العاشر للميلاد كانت معارفها قليلة جداً في الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقاً أن يكتشف الباحثون أنه كان في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث الحب والعشق والهيام في تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماماً من أئمة الدين ، ومثالا يُحتذى في أدب النفس ، وكرم الطبع ، ومثانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن هزيم خليقاً بأن يكتب في ترجمة حياته فصل خاص ، ولكننا راعينا أن شخصيته فلسفية وفقهية قبل أن تكون أدبية ، ولولا كتابه في الحب لما عرضنا لثره الفني في هذا الكتاب .
ولد أبو محمد بن هزيم سنة ٣٨٣ في قرطبة . وتوفي سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وإن مكانا ضاق عني لضيق على أنه فيح مهامه سهب
وإن رجلا ضيعوني لضيع وإن زمانا لم أنل خصبه جذب

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم: جولديزهير، ودوزي، وبروكلان، والدكتور سنوك هوجرنه، والمسيو مرسيه. وتسبق المستشرقون الألمان والنمسيون والهولنديون والفرنسيون والإنجليز والأمريكيون إلى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه.

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون ويعيدون حتى جاء المسيو مرسيه فوضع بحثاً هاماً جداً بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من الأغلاط. وقد رأى أحد المصريين وهو في باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق الحمامة فراجعته مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين أراد أن ينطق بالقول الفصل في تحرير ذلك الكتاب. ثم قدمت تلك التصحيحات إلى جامعة باريس فأقرها المسيو دي مومبين والمسيو ماسينيون.

٢ - في كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم، وهو يتحدثنا بأنه كانت له صوبات في عهد الطفولة. وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أوّلها:

دليل الأسي نار على القلب تلتفحُ ودمع على الخدين يهيمى ويسفحُ
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه فإن دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ففي القلب داء للغرام مبرح^(١)

ويرى ابن حزم أن الحجة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمادى الأنا، ويقول في ذلك:

« وإني لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يجب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة. وما لصق بأحشأى حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لى دهماً، وأخذى معه في كل جد وهزل. وكذلك أنا في السلو والتوق: فما نسيت لى ودّاً قط. وإن حنيني إلى كل عهد تقدّم لى ليغصّنى بالماء، ويشرقني

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئاً قط بعدمعرفتي به ولا أسرعت إلى الأُنس بشيء قط أول لقاءٍ له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابي مذكنت . لا أقول في الألف والإخوان وحدهم . لكن في كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقني الإطراق مذقت طعم فراق الأُحبة . وأنه لشجا يعتادني وولوع همّ ما ينفك يطرقني . ولقد نغّصت ذكرى ماضى كل عيش أستأنفه . وإني لقتيل الموم في عداد الأحياء ودفين الأسي بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفي ذلك أقول شعراً منه :

محبة صدق لم تكن بنت ساعة	ولا وريت حين ارتياد زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت	لطول امتزاج فاستقرّ عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها	ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة	تم سريعاً عن قريب نفاها
ولكنني أرض عناز صلية	منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما فذت منها لديها عروقيها	فليست تبالي أن يجود عهادها ^(١)

٣ - ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودي بالحب . وله في ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها في شعر ولا نثر . وأنظر كيف يقول :

« إني مارويت قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمًا : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سريعاً . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعدهم الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمى فما وجدتني إلا مستزيدا . ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسامة ولا رهقتني قفرة . ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصراً عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل لبانة من لباناتي ، ووجدتني كلما ازدددت دنواً ازدددت تلداً^(٢) ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي . فقلت في ذلك المجلس :

(١) طوق الحمامة صفحة ٢٣ ، ٢٤ (٢) التلدد : التلهف والحيرة .

وددت بأن القلب شُقَّ بمديّة وأدخلت فيه ثم أطبق في صدرى
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حيت فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البين ، ورغبا
عن الهجر ، وبعدا عن الملل ، وفقدا العزال ، وتوافقا في الأخلاق ، وتكافيا في الحجة ، وأناح
اللهما رزقا داراً ، وعيشاً قاراً ، وزماناً هادياً . وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال»^(١) .

٤ — وكان ابن حزم مغرماً أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة
الكتاب والشعراء والوزراء . وكان يجد في ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التي
عرفها بنفسه أو نقلت إليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدث عن
الواقع لا عن الخيال . وقد تَلَقَّ كثيراً من محاسن العشاق ومساويهم ودون في كتابه أخباراً
غريبة عن أهل العشق وأهل العفاف .. ومن ذا الذي لا يستطيب قوله :

« وإني لأعلم من نأت دار محبوبه زماناً ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم
وأستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك ؛ وفي ذلك أقول :

أطلت زمان البعد حتى إذا انقضى زمان النوى بالتقرب عدت إلى البعد
فلم يك إلا كرة الطرف قر بكم وعاودكم بعدى وعاودنى وجدى
كذا حائر في الليل ضاقت وجوهه رأى البرق في داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لاتفيد ولا تجدى^(٢)»

ولننظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب — وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت
التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين في أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس — :
« وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبجلها في الماء
ويعمحو أثرها فرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفي ذلك أقول :

عزيز على اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطعُ
 فأثرت أن يبق وداد ويمتحي مداد فإن القرع للأصل تابع
 فكم من كتاب فيه ميتة ربه ولم يدره إذ نمتته الأصابع
 وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال وجسه أملح الأجناس. ولعمري إن
 الكتاب للسان في بعض الأحيان: إما لحرص في الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة. نعم حتى أن
 لوصول الكتاب إلى المحبوب وعلم الحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها الحب عجيبة تقوم
 مقام الرؤية، وإن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يعدل اللقاء. ولهذا ما ترى العاشق يضع
 الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه. ولعمري ببعض أهل الحبة ممن كان يدرى ما يقول
 ويحسن الوصف ويعبر عما في ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق في الحقائق لا يدع
 المراسلة وهو ممكن الوصل، قريب الدار، داني المزار، ويحكى أنها من وجوه اللذة. وأما سقى
 الخبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه بسقى الخبر بالريق. وفي ذلك أقول:

جوابٌ أتاني عن كتاب بعثتهُ فسكن مهتاجاً وهييج ساكنا
 سقيت بدمع العين لما كتبتَه فعال محب ليس في الود خائنا
 فما زال ماء العين يمحو سطورده فيا ماء عيني قد محوت المحاسنا
 غدا بدموعي أول الخط بيننا وأضحى بدمعي آخر الخط بائنا

واقدر رأيت كتاب محب إلى محبوبه وقد قطع في يده بسكين له فسال الدم وأستمد منه
 وكتب إليه الكتاب أجمع: واقدر رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصيغ اللك»^(١).
 ٥ — وفي هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التي كان يجيها أهل الأدب
 والفلسفة وبعض رجال الدين في تلك العصور.

وفي اهتمام ابن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب في الأندلس كانوا ينظرون
 إلى الحب في القرن العاشر بنفس العين التي كان ينظر بها الفرنسيون والإنجليز والألمان إلى
 الحب في القرن التاسع عشر.

(١) صفحة ٣١ و ٣٢، واللک بالفتح نبات بصيغ به وبالضم ثقله أو عصارته.

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وإنما كانت معروفة عند العرب في الشرق . ومن العجب أن فقهاء الشريعة الإسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربي بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد ابن داود صاحب كتاب الزهرة الذي ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لا يتقنه إلا الأقولون . والناس يحسبون الكلام في الحب لوناً من العبث . لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الإنسانية التي لا تخلو من صبوات في كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكره قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها إلى علم النفس ثروة عظيمة لا تحظر لكتاب الشرق في بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم إلى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلاً أن الحسن يتلون وفاقاً لألفتنا له ، فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر ، لأن الفتاة التي أحبها لأول عهده بالحب كانت شقراء الشعر وفي هذا يقول :

« ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون في تمييزهم ، ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا تقصير في حدسهم قد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يُرضى في الجمال فصارت هجيراتهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إما بسلو أو بين هجر أو بعض عوارض الحب وفارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخلق^(١) ولا مالوا إلى سواها . بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم إلى أن فارقوا الدنيا . وانقضت أعمارهم حينئذ منهم إلى من فقدوه وألغى لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً واختياراً لا دخله فيه ولا يرون سواه ولا يقولون في طيِّ عقدهم بغيره . وإني لأعرف من كان في جيد حبيبه بعض الوقص^(٢) فما

(١) في الأصل (الخليقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر العنق .

استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية في فمها فوه لطيف فلقد كان يتقدر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصي الحظوظ في العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطاً في الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية . دعني أخبرك أني أحببت في صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه ، وإني لأجد هذا في أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تواتبني نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى إلى أن وافاد أجله»^(١) .
ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتامه القارىء إن شاء .
وليعلم أن هذا منهج جميل في علم النفس وبمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة في تقييد ألوان الطباع والغرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم في طبيعة المرأة لنرى ما فطرت عليه في علاقاتها مع الرجال فقد شقى الناس قبلنا في فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الحظوظ في خبث ولؤم ويقضى بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفي ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل في صور مختلفة بعضها كرهه وبعضها مقبول ، وفقاً لما تتلون به من غدر أو وفاء ، وهى في حالها سم حلو المذاق ، فهى سرمانلقى في دنيانا من رشد وغى ، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارىء أولاً أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عوناً على فهم المرأة فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل في مثل هذه الدراسات أنها تقدم إلى القارىء صورة حية لنفس صدقت في الحب :هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل الأمثال بين رجال الوجدان .

وإني لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير في تذوق المرأة وأن المرأة لم تتغير في حبها للرجل وطغيانها عليه . فنحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية في الأذواق والأحاسيس ، وأن الزمان باعد بين القدماء والمحدثين في فهم طبائع الأشياء ولكننا حين نستمع ما قال الأسلاف في صدق وإخلاص ، نجد الطبيعة الإنسانية هي هي لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر في تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون «القدم» لونا لغويا يرجع إلى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف العصور متقاربا جداً في شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرماً بدرس المرأة ، ولننظر قوله :

« لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى : لأنى ربيت في حجوهرهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب أو حين تبقل وجهى . وهن علمنى القرآن ، وروينى كثيراً من الأشعار ودر بنى في الخط . ولم يكن وكدى وأعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا في سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك ، وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل » (١) .

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا إلى النساء في الأندلس في أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضاً أن النساء في منازل الوزراء — كما هو الحال في جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتحملهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع إلى أخبار من يعاشر من النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التي كان يتلقى فيها الدروس ، بل اتفق وهو يافع أن أحب جارياً كانت له اسمها «نعم» وكانت أمنية التمنى، وغاية في حسن

الخلق والخلق . وقد فجعته فيها الأقدار واخترمتها الليالي وسنه دون العشرين وكانت هي
دونه في السن وفي فجيعة بها يقول :

« لقد أمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي ، ولا تفتر لي دمة على جمود عيني
وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفتيتها بكل ما أملك
من نالد وطارف ، وما طاب لي عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا
حبي لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده »^(١) .

٨ — تحدث ابن حزم كثيراً عن وفاء المرأة وغدرها ، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير
الطباع والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

« أدركت بنت زكريا بن يحيى التيمي ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد بن الوزير
يحيى بن إسحاق فعاجلته المنايا وهما في أغص عيشهما ، وأنصر سرورها . فبلغ من أسفها عليه
أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات . وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف
بعده إلى حين موتها »^(٢) .

وهذه قصة تستثير الدمع ، وفيها أبلغ معاني الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجهة قوله في كلمة ثانية :

« وأنا أخبرك عن أبي بكر أخى رحمه الله وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند صاحب النفر
الأعلى أيمن المنصور أبي عامر . وكانت التي لامرئى وراءها في جمالها وكريم خلاها . ولا تأتي
الدينا بمثلها في فضائلها . وكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه . يفضب كل واحد منهما للكلمة
التي لا قدر لها : فكانا لم يزالا في تغاضب وتعاتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفيها حبه
وأضناها الوجد فيه وأحملها شدة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسم ، لا يلهيها من الدنيا
شيء ، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها ، إلى أن توفي
أخى رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت

بعده بعام في اليوم الذي أكمل فيه هو تحت الأرض عاماً . ولقد أخبرتني عنها أمها وجميع جواربها أنها كانت تقول بعده : ما يقوَّى صبرى ويمسك رمقى في الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم اللحاق به «^(١) .

٩ — والمرأة — كما عرفها ابن حزم — أكثر مواساة وإسعاد فى الحب من الرجل ، وعند النساء من المحافظة على سر الحب والتواصى بكتمانها ما ليس عند الرجال . ويقول فى ذلك :

« وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة . وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل النغائر ، وهذا لا يكون إلا فى الندوة . وأما العجائز فقد يؤسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن .

وإنى لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جواربها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها ، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذكر لها فلم تفعل ألبتة ... وإنى لأعلم امرأة جلية حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يكاف بها وكان فى غير ملكها فعرفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهياً له ذلك . فقالت له : مالك ؟ ومن ذا الذى عَصِمَ ؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلعت على سر كما أحداً أبداً ، ولو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى لو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه لا يشعر بذلك أحد «^(٢) .

هذه الفقرة تشعرنا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح !

١٠— وقد فكر ابن حزم في تعليل هذا الخلق وهو يرى أن السرفى تمكن طبع المواسة من النساء أنهن متفرغات البال من كل شيء إلا من الحب ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فإنهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار ، ومباشرة الحروب ، وملاقة الفتن ، وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معاني المواسة والإسعاد . ومن هنا يحدثنا ابن حزم أنه قرأ في سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقى عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تتشوق إلى الرجال^(١) .

وهذا الذى يشير إليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصل فى فساد النساء . وهو كذلك الأصل فى فساد الرجال : فإن العلائق الدنسة المنحطة لا تقع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللاتى ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما تتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهمن أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فإن تلك الصلات أساس المجتمع ، وهى كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن نقضى بالرياضات المعقولة على النزق والطيش والإسراف فى الشهوات . وملاك الأمر فى هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١— ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء فى الضعف . ليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطلال ذلك ولم يكن ثم مانع إلا وقع فى شرك الشيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته إن طال الزمان .

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعاً معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم في هذا المعنى فإنه خير ما قرأت في الأدب القديم والحديث :

« ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً وأعوذ بالله أن أظن غير هذا » .

وإن رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة — أعنى الصلاح — غلطاً بعيداً. والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضُبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هي التي إذا ضُبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصلاح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض للمناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويجب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء^(١) .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرماً بدرس المرأة، ونضيف إلى ذلك أنه حدثنا بأنه قضى حياته في البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتمان فكان يطلعنه على غوامض أمورهن: فأطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبههن في الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فإن التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الغواية . ولكن اسمع ما يقول في ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به عليماً أني برىء الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقي الحجة^(٢) وإني أقسم بالله أجل الأقسام إنى ما حلت منزى على فرج حرام قط ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا. والله الحمد على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى^(٣) .

(١) ص ١١٦ (٢) الحجة ، بالضم ، معقد الإزار ، ومن السراويل موضع التكة .

(٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يجد حرجا من الكتابة في الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يتهمونه بالميل إلى الإثم والفسوق. فجاء يقسم بالله أنه برىء الساحة سليم الأديم. حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وقد يهزئ ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته في درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس. ومن هنا أستبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم: ظناً منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث إلا الفاسقون. وكان ابن حزم من أئمة الإسلام. فلا يعقل في ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال!

وهذا الغلط يرجع إلى حقيقة ثابتة: فإن الفسق حجاب كفيف يحول دون فهم الحسن والعشق. وأكثر الناس لا يتمثلون الحب إلا موصولاً بالفسوق. وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين.

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحر مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته. فإن الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسرار من يسومونه الهوان حين يطمعون في الدون من ملذات الحياة؟

الجمال أهل للدرس. وليس بكثير عليه أن تنقضى في درسه أعمار الأئمة وعطاء الباحثين فإنه أشرف وأنفس مافي الوجود.

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو أنصرف الباحثون إلى درس ما في وجوههم من دمامة، وما في طباعهم من عوج، وما في عقولهم من أتواء.

إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت في مواجهته إلا أصحاء العيون. فلا يحسب قوم أننا نرتاب في عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدرس أسرار الجمال!

(١)

٦- أبو منصور الثعالبي

١ - كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات في عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان في وقته راعي تلعات العلم ، وجامع أشنات النثر والنظم ؛ ورأس المؤلفين في زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت إليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه في المشارق والمغرب ، طلوع النجم في الغياهب » (٢) .

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذي يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءاً عظيماً جداً من ثروتها الأدبية ومن الذي يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت تيممة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفي سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فراءً قبل أن يظهر أدبه ويعلو نجمه ، وبعده صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك في عصره ، منهم عبید الله بن أحمد الميكالي ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضياً عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ - كان الثعالبي شاعراً وكاتباً ، وإن لم يكن شعره في الطبقة العالية . وقد استجاد قوله في النسب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي وأمعنت نار شوق في تلهبها
ولم أجد حيلة تبقى على رمقي قبلت عين رسولي إذ رآك بها

(١) كان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبي أليق من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكننا

لاحظنا أن له اتجاهات نفسية تقربه من كتاب هذا الباب . (٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات

أما نثره فجيد ، يغلب عليه السجع ، ولكنه برىء من التكلف ومن الغموض . وأنظر قوله في وصف عبید الله الميكالی : « ومن أراد أن يسمع سر النظم ، وسحر النثر ، ورقية الدهر ، ويرى صوب العقل ، وذوب الظرف ، ونتيجة الفضل ، فليستشده ما أسفر عنه طبع مجده ، وأقره على فكره ، من مآح تمزج بأجزاء النفوس لنفاستها ، وتشرب القلوب لسلاستها ... وأيم الله ما من يوم أسعفتني فيه الزمان بمواجهة وجهه ، وأسعدني بالاعتباس من نوره ، والاعتراف من بحره ، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله ، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألاحظه ، وأتميت فرائد الفوائد من ألفاظه ، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومي :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامي عنده بغير وزآباد ، إحدى قراه برستاق جوين ، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبيل القطر ! فإنها كانت بطلعته البدرية ، وعشرته العطرية ، وآدابه العلوية ، وألفاظه اللؤلؤية ، مع جلائل إنعامه المذكورة ، ودقائق إكرامه المشهورة ، وفوائد مجالسه المعمورة ، ومحاسن أقواله وأفعاله التي يعياها الواصفون ، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون . فإذا تذكرتها في تلك المراجع التي هي مراتع النواظر ، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر ، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها ، ونشرت طرائف مطارفها . طوى لها الديباج الخسرواني ، ونفى معها الوشى الصنعاني ، فلم تشبه إلا بشيمه ، وآثار قلمه ، وأزهار كلمه ، تذكرت سحراً وسياً ، وخيراً عمياً ، وأرتياحاً مقياً ، وروحاً ورماً ونيماً^(١) .

٣ — أهمية الثعالبي من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس ، وشبهوات القلوب ، ونزوات الرؤوس ، وثورات العقول . وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الإنسانية ، وعرف ما أترزأ به من بلايا الحب والبغض ، والرغبة والإشفاق ، والطمع والإخفاق ، وتمرس بأحوال الإقبال والإدبار ، والغنى والفقر ، والنعم والبؤس ، وعرف كيف يطرع الشك واليقين ، والهدى والضلال .

وإنما هو كاتب شُغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية ، فقدم لأهل عصره وقرءاء اللغة العربية في مختلف الممالك وعلى أختلاف الأجيال غذاء قويا للقول والمشاعر والأذواق ، ووضع أمام قرائه صوراً مختلفة للقرائح والعبقريات التي عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها ، أو قرأ آثارها ، حتى ليتمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يمحي أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ لأمين .

٤ — للثعالبي مؤلفات كثيرة . منها كتاب الكنايات ، وضعه للكناية عما يستهجن ذكره ويستقبح نشره ، أو يستحيا من تسميته ، أو ينطير منه ، بألفاظ مقبولة تؤدّي المعنى ، وتحسّن القبيح ، وتلطّف الكثيف ، فيحصل بها المراد مع العدول عما ينبوعه السمع ، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يسبق بتأليف مثله . وهذا إن صح كان دليلاً على تفوقه في الابتكار ولكن رأيت أحمد بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٤٨٢ يذكر في مقدّمة كتابه في الكنايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يسبق إليه ، ولم يزاحم من قبل عليه ، مع أن الثعالبي سبقه بنحو ثمانين سنة ، ألا يمكن أن يكون الثعالبي أيضاً يدعى السبق إدعاءً ؛ وأن المؤلفين من قبله قد نحوا ذلك المنحى في جمع أنواع التعريض والكنايات ؛ ذلك ما لا نستطيع الجزم به ، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما أدعاه الجرجاني من الابتكار مع أنه مسبوق .

كتاب الكنايات كتاب جيد ممتع ، لآتمل معاودته ، ولا تنصرف النفس عن الرجوع إليه . وهو يمثل براعة العرب وأفتنانهم في التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يستحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكنايات المستملحة التي أودعها الثعالبي كتابه مع الاعتراف بأننا نحيرنا أقل ما فيه روعة ، إثارةً للتحفظ والوقار .

حكى الصولي عن المكتفي في حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنست فنمت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هذه الكناية قط . فقال : والله ما سمعتها قبل وقتي هذا وإنما ساقها اللفظ ^(١) .

(١) ودواء السهر كناية عن النكاح وعن السكر .

وكتب الصاحب : إن سيدى أمتطى الأشهب فكيف وجد ظهره ، وركب الطيار
فكيف شاهد جريه ، وهل سلم على حزونة الطريق ، وكيف تصرف ، أفى سعة أم ضيق ؟
(وهذه قطعة من خطاب كتبه إلى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريق الكناية عن أخذ العذرة^(١) ماقرأته فى أخبار بشار بن برد حين قال
له يزيد بن منصور فى دار المهدي : ياشيخ ما صنعتك؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى الصاحب
أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا فقل لنا هل تُقِبُ الدرُّ
وله يقول أيضاً :

قأبى على الجرّة يابا العلاء فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الكيس عن ختمه وهل كحلت الناظر الأحولا

ولابن العميد فى هذا المعنى :

أنعم أبا حسن صباحا وأزدد بزوجتك أرتياحا
قد رُضت طرفك خالياً فهل أستلنت له جماحا
وطرقت منغلقةً فهل سنّى الإله له أنفتاحا

وأشدد أبو الفضل الميكالى لنفسه فى مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر قد فضضت الصدف وهل إذ رميت أصبت الهدف
وهل جبت لىلا بلا حشمة لهول السرى سُدفا فى سُدف

قال الثعالبي : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس للخصوم حتى ينال من الطعام
والشراب ويلم بأهله احتياطاً على دينه وتعففاً بالحلال عما عساه تتوق نفسه إليه من الحرام
إذا بدرت منه لحظة لمن عساها تنحا كم إليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى
فصلا فى هذا المعنى بعينه من كتاب عهد سلطانى لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ،
ولطف كنيته ، وهو :

(١) العذرة : البكارة .

« وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفاً يقف به عند أول الكفاية ، ولا يبلغ به إلى آخر النهاية ، وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة كلها ، وعوارض البشرية بأسرها ، لئلا يعلم به ملم ، أو يطيف به طائف ، فيحيلان عن رشده ، ويحولان بينه وبين سداده»^(١) .

٥ - ومن مؤلفات الثعالبي « كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب »^(٢) وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يتمثل بها ، ويكثر في النظم والنثر وعلى ألسن الخاصة والعامة استعمالها ، كقولهم غراب نوح ، ونار إبراهيم ، وذئب يوسف ، وعصا موسى ، وخاتم سليمان ، وحمار عزيز ، وكقولهم كنز النطف ، وقوس حاجب ، وقرظا مارية وصحيفة المتناس ، وحديث خرافة ، ومواعيد عرقوب ، وجزاء سنار ، ويوم عبيد ، وعطر منشم ، ونسر لقمان ، الخ .

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية . ولغة الثعالبي فيه تمتاز عن لغته في سائر كتبه بالخلو من السجع ، والجري على السجية السمحة بلا تعثر ولا التواء . وقد جمع الثعالبي في كتابه هذا أكثر ما عرف لعهد من الطرف والنوادر والفكاهات والأفاصيص . وهو يصور علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير . ولهذا الملاحظة قيمتها ، فليس كل ما في كتاب ثمار القلوب حقائق ثابتة ، وإنما هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التي قبلها معاصروه ، وعدوها من العلم الصحيح .

فإن أغلاطه الكلام عن ثعابين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ : الثعابين لا تكون إلا بمصر وإليها حول الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام . قال تعالى : (فأتى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) ، يعني أنه حولها ثعباناً . والثعبان عجيب الشأن في إهلاك بني آدم فليس له عدو إلا النمس وهي إحدى عجائب الدنيا ، وذلك أنها دويبة متحركة ، فإذا رأت الثعبان دنت منه فينطوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحبس في بطنها ريحاً ،

(١) انظر ص ١١ و ١٢ و ١٤ (٢) طبعه المرحوم محمد بك أبو شادي سنة ١٣٢٦ هـ .

وتزفر زفرة فتقد الشعبان قطعتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهي هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سبستان .

وهذه فكرة غير صحيحة ، فالثعابين موجودة في مصر وفي غير مصر . وليس للثعابين في مصر كل هذا الخطر ، فقد تمشى القرون ولا يسمع بملدوغ . وإن كان في فطرة الأهالي عداوة الشعبان ومهاجمته حيث وجدوه ، وهي فطرة الناس في جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبي لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين في النقش والتصوير إذ قال : « وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحدق في عمل الطُرف ، يقولون : أهل الدنيا ماعدانا نُعمى ، إلا أهل بابل ، فإنهم عُور . ولهم الإغراب في خرط التماثيل ، والإبداع في عمل النقوش والتصاوير ، حتى أن مصورهم يصور الإنسان ولا يغادر منه شيئاً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً أو باكياً ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل ، وبين المبتسم والمستغرب ، وبين ضحك المسرور وضحك الهازي ، فيصور صورة في صورة »^(١) .

وهذا الذي يراه الثعالبي غريباً من أهل الصين عادي لا غرابة فيه عند الأمم التي تُعنى بالتصوير ، ولكن عذر الثعالبي وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا مما يجار به رجال الدين ، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات في ثمار القلوب أنها ترينا فهم العرب لكثير من الطباع الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخال) فإن العرب تقول : عرق الخال لا ينাম . يريدون أن عرق الخال أنزع من عرق العم ، قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر وأنها على الشبه أغلب ، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر ، رجالهم أم نساؤهم ، واعتبر ذلك في الإبل

والبقر والشياذ . وهم يعللون ذلك بأن الولد لا يخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل الحطة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضراً ، والأم منها الرحم وهو القالب الذي يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب في القالب فإذا وقع ماء الرجل وماء المرأة في القالب وفي قرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم ، ثم لا يتعدى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها ، ولا يجذب إلا من الأجزاء التي فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام في جوفها . فإذا ظهر غذته بلبنها ، ولا يشك الأطباء في أن اللبن دم استحال عند خروجه ، فهي تغذود بدمها مرتين ، وتزيد في خلقه من أجزائها دفتين ، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال^(١) .

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم في بعض تفاصيله ، ولكنه في جملة يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه ، فقد تغنى الشعراء في الجاهلية وفي صدر الإسلام بفضل الخال وعدوه من جملة الآباء .

٧ — وفي ثمار القلوب إشارة إلى كتيبٍ للثعالبي اسمه (حشو اللوز ينج) يبين غرامه بتصيد دقائق الأساليب . وحشو اللوز ينج يضرب مثلاً للشئ يكون حشوه أجود من قشره وذلك أن حشو اللوز ينج خير منه فيشبهه به الحشو في الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر في كلام العرب ، ومن أشهره قول عوف بن محلم :

إن الثمانين وبلغتها قدأحوجت سمعى إلى ترجمان

فقوله (وبلغتها) حشو مستغنى عنه ، ومعنى الكلام يتم بدونه ، ولكنه أحسن

من جملة .

قال الثعالبي : سمعت أبا الفرج يعقوب بن إبراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول : دخلت يوماً على أبي الفضل بن العميد فقال لي : إمض إلى أبي الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين وبلغتها) ثانياً في كون الحشو أحسن من الحشو؟ قال : فسرت إليه وبلغته الرسالة فقال : سأنتى عنه محمد بن علي بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام تغلب

فقال سألت عنه ثعلباً فلم يأت بشيء ، ثم بلغني أن عبيدالله بن عبدالله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدى بن زيد لابنه زيد بن عدى في حبس النعمان :

فلو كنت الأسير— ولا تكنه! — إذن علمت مَعَدًّا ما أقول

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه ، ولكنه في الحسن نظير (وبلغتها) .

واستطرد الثعالبي فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوماً ليحيى بن أكرم : هل تغذيت اليوم ؟ فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين ! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها ! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين ، لكان أشبه بالدعاء عليه لاله ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاجزة بين « لا » و « أيد الله أمير المؤمنين » حذراً من وقوع الشبهة . وكان صاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في خدود المرد الملاح ^(١) .

وعناية الثعالبي بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان ، لاسيما وقد أطال التنقيب عن دقائق التعابير التي وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالي والخوازمي و بديع الزمان .

٨ — وفي ثمار القلوب تفسير روائي لبعض الأمثال ، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للدهية . وخلاصة حديثه أن رجلاً كان يسقى وبيته تلقاء وجهه فنظر فإذا برجل قد عنق امرأته يقبلها ، فأخذ العصا وأقبل مسرعاً ، فلما رأته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع ، فنظرت يمنة ويسرة فلم ير شيئاً ، فنظر في الأرض فلم يبصر أحداً ، فكذب بصره وكر راجعاً فلما كان الورد الثاني قالت المرأة : هل لك في أن أ كفيك السقى وتتورع اليوم ؟ قال : نعم إن شئت . فأقام في البيت ، وانطلقت تسعى ، وتحينت منه غفلة ، فأخذت العصا وأقبلت حتى علت بها رأسه ، فقال : ويحك ! مادهاك ؟ قالت : أين المرأة التي رأيتك معها معانقا لها ؟ فقال : والله ما كان عندي امرأة ! قالت : بل أنا نظرت إليها وأنا على الماء . فتحالفا . فلما أكثرت قال : إن تكوني صادقة فإن ماء كم هذا ماء عناق ^(٢) .

وفي كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأفاصيص. وهي فكاهات اخترعها الكتاب تفسيراً للأمثال التي جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوها في الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبي «يتيمة الدهر» وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عاصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمرّ في تحريره والإضافة إليه عدّة سنين ، فكان يبني فيه وينقض ، ويمحو ويثبت . وصار مثله فيه كمثّل من يتأنق في بناء داره التي هي عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنائها ، ويستجدّها على أنحاء عدّة وهيآت مختلفة ، فإن مات فيها مغفوراً له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال (١) .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :

القسم الأوّل في محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثاني في محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونواديرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .

والقسم الثالث في محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتابتها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع في محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والغزنوية والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والغرباء الطارئین عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبي في اليتيمة يؤثر السجع، ولا يتركه إلا في أحوال قليلة، ولكن سجمه

على كل حال مقبول .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فإذا بدا له أن يعلل ويحلل وينقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله في تفضيل شعراء الشام وما يقار بها على شعراء سائر البلدان .

« والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قر بهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم » (١) .

وفي بعض الأحيان يطيل في ترجمة الشعراء والكتاب، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن أكثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأفاويل ، كالمثنبي والصاحب وأبي فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلاماً خفيفاً قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر في نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف في ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالبي في التهمة مفتون بالإسراف في إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله في ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو علي الزوزني الكاتب « يفرس الدرّ في أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس » (٢) .

وأبو الفرج البيهقي « ظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت بل حب الغمام » (٣) .

وأبو القاسم الاسكافي « لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدتها وأوحدتها في الكتابة والبلاغة ومن لم تخرج مثله في البراعة والصناعة » (٤) .

وبديع الزمان « نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القرية ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس » (٥) .
وعبد الرحمن الشيرازي « روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب » (٦) .

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٣ (٣) ص ١٧٣ ج ١

(٤) ص ٢٩ ج ٤ (٥) ص ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٣

١٢ — ومع أن الثعالبي يميل إلى الظنطنة في التعريف بالكتاب والشعراء فإنه لا يلتزم هذه الخطة وإنما يعود إليها في الحين بعد الحين، ويغلب على ظني أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدة لتنميق الإنشاء، وإذ ذاك لا يكون مشغولاً بتقديم الصفات الحقّة لمن يترجم لهم، وإنما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف في فنون الكلام، فتارة يقول في ابن نباتة السعدي « من ثخول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب القوافي، وملكوا رقي المعاني، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممرّ النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفقّر كالغنى بعد الفقر، وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب» (١).

وحينا يقول في محمد بن حامد « يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، ويؤلف بين أشنات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفي أقسام الحسن، ونثر كنثر الورد، ونظم كنظم الدر» (٢).

وأنا يقول في المتنبي « نادرة الفلك، وواسطة عقد الدهر، في صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب إليه المشهور به، إذ هو الذي جذب بضعه، ورفع من قدره، ونفق سعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه في البدو والحضر، وكادت الليالي تنشده، والأيام تحفظه» (٣).

١٣ — ولتقيد هنا أن الثعالبي كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما في نثره من الاستعارات والتشبيهات. وله عذره في ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى لم يكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق إليه من حيث لا يحتسب، وإن كنا لانبرئه من قصد السرقة ونية الاتهاب (٤).

(١) صفحة ١٤٣ ج ٢ (٢) صفحة ١٦٠ ج ٤ (٣) صفحة ٧٨ ج ١

(٤) انظر مقدمة سحر البلاغة صفحة ١١٤، ١١٥ ج ٥ زهر الآداب.

١٤— وأخيراً نذكر أن من أقتلت عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يندر أن يذكر مؤلفه في أى عام مات من يحدثنا عنه ، وفى أى عهد لقيه أو سمع به ، ولو أن الشعالي عنى بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقاً من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الشعالي كتاب «فقه اللغة» وهو كتاب جيد فى ثلاثين باباً رتبت فيه الألفاظ على حسب المعانى . وليس كتاب فقه اللغة فى جملة من صنع الشعالي ، فقد نقل فصولاً برمتها عن أمثال ابن دريد والحوارزمي وأبي الحسن الجرجاني ، وابن الأعرابي . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل إذا لاحظنا أن المصادر التى نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا فى كتابه . وهو يذكر فى الفصول التى ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فيصح أكثرها أو قارب الصحة^(١) . وقد يجد مؤلفنا وضع فى تفصيل طائفة من المعانى فيعمد إليه فيخرج منه ما يراه أصح لكتابته^(٢) . وفى الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية^(٣) .

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر فى موضوعه ، وأنه خال من الشواهد ، بحيث يظن أن المؤلف حكم فيه هواد ، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التى رعى إلى تمديدتها فى كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة ، وكان متعة لا تملها النفس ، وأساساً لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير^(٤) .

ونحن — بعد ما وجهناه من النقد إلى الشعالي — نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق ، وهو لذلك عميق الأثر فى نشر ما عُرِف لعهد من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

(١) صفحة ٤٣٢ (٢) صفحة ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩

البَابُ السَّادِسُ

كِتَابُ الرَّسَائِلِ وَالْعَهْدِ

١ - أبو الفضل بن العميد

١ - أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية في القرن الرابع ، وأعرف الوزراء لعهد سياسة الملك، وبنابة المجد ، وكان معاصروه يسمونه « الجاحظ الثاني » لتوسعه في العلوم العقلية والنقلية ، واطلاعه على ما دون الأقدمون في الأدب واللغة والفلسفة والتشريع . وما أحسبهم سموه الجاحظ الثاني في الكتابة ، لأنه أ كتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ .

٢ - وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبي الفضل بن العميد: فتحدث عنه الثعالبي^(١) وياقوت^(٢) وابن خلكان^(٣) بشيء من التفصيل ، وعرض له التوحيدى في غير موضع ، ولكن أجمل ما قرأنا في ترجمته هو الفصل الممتع الذى عقده للكلام عنه أبو على ابن مسكويه في كتاب (تجارب الأمم^(٤)) بعد أن لازمه ليل نهار في صحبة دامت سبع سنين .

٣ - كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أ كتب أهل عصره ، وأحفظهم للغة والغريب ، وأ كثرهم توسعاً في النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام ، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار ، وأفذهم سهماً في الهندسة والمنطق وعلوم النفس والإلهيات .

ولا يحسبَنَّ القارىء أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا . فقد كان ابن العميد خصب الذهن جدّاً ، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل في الدرس والتحصيل وتدير الأمور ، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة ممن عرفوا بسعة العلم ودقة البحث ، وإنيهم ليدكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) يتيمة الدهر ص ٢ - ٢٥ ج ٣ (٢) في مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب) .

(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ - ٤٦٦ (٤) ج ٢ ص ٢٧١ - ٢٨٢

للجاحظ على أبي بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده في بعض الأيام وقد نزع نعله فأخذه كلب في الدار وأبعده عن موضعه ، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره ، وطلبه فلم يجده ، فرأى ابن العميد أن يقدم إليه نعل نفسه ؛ فعدّ ناس ذلك إسرافاً من ابن العميد ، فلما بلغته هذه المؤاخذة قال : كيف ألام على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتاً من (الطبائع) إلا عرف ديوان فائله وقرأ القصيدة من أولها حتى ينتهي إليه . ولقد كنت وغيرى تهم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه . . . أفما يستحق من هذه الصفة صفته هذه الكرامة اليسيرة في جنب هذه الفضيلة الكبيرة ؟^(١)

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلاً عن قيمته الخلقية ، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وبره بالعلماء ، ولكن من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء ، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع في كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف .

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذي يقدر بالمكان ، بل كانت في غاية من الدقة ولطف الجوهر : فقد حدثنا صاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد « فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن » إلى أن قال : « وسمعت - أيده الله - يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويُبتدأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراد »^(٢) .

وهذا كما يرى القارى فهم دقيق ، وسموً بالنقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعاني والألفاظ ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تتصل بوزنه وقافيته ولفظه ومعناه

(١) معجم الأبداء ج ٥ صفحة ٩ و ١٠ (٢) انظر رسالة صاحب عن المتنبي صفحة ٨

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنده القوافي والأوزان باختلاف المعاني والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية ، ولكنني وقفت عنده طويلاً : فقد ذكر يوماً أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادني في نقد الشعر ما لم يكن عندي : وذلك أنه جاءني يوماً باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل في مرتضى الشعر فأعجب من إirاده لها واختياره إياها فسألته عنها فقال : لم يقل في معناها غيرها فاخترتها لانفرادها في بابها^(١) .

فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة في تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سعة العلم أدب النفس ، على قلة ما يتفق من ذلك في طباع الناس ، فكان « قليل الكلام ، نزر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه : فإنه حينئذ ينشط فيسمع منه مالا يوجد عند غيره ، مع عبارة فصيحة ، وألفاظ متخيرة ومعان دقيقة ، لا يتحسب فيها ولا يتلثم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، ونزاهة نفسه ، إذا دخل إليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه »^(٢) .

على أن أدب النفس في صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعاني السلبية ، بل تعداه إلى الجرأة القاهرة والإقدام الغلاب « فإذا حضر المارك وباشر الحروب فإنما هو أسد في الشجاعة لا يصطلي بناره ، ولا يدخل في غباره ، ولا يناوئه قرن ، ولا يبارزه بطل ، مع ثبات جأش ، وحضور رأي ، وعلم بمواضع الفرص ، وبصر بسياسة العساكر والجيوش ، ومكابدة الحروب » وكان إلى هذه الخلال حسن التدبير إلى حد الإعجاز ، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم غلبهم الجند على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعباً للفتن والذسائس وميداناً للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة

استقام الأمر ، واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور ويضبط الأعمال « و بسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء ، وتسترخى المفاصل » كما عبر ابن مسكويه ، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ — وكان ابن العميد من الوزراء المدحجين ، فقصدته الشعراء من كل صوب ، وساقوا إليه جياذ المدائح ، وللمتنبي فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .
ولنشرهنا إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالري وأمتدحه بفضيدته التي أولها^(١) :

برحُ أشتياق وادكار	ولهيب أنفاس حرارِ
ومداع عبراتها	ترفضُ عن نوم مطارِ
لله قلبي ما يجنّ	من الموموم وما يوارى
لقد أنقضى سكر الشبا	ب وما انقضى وصَب الخمارِ
وكبرت عن وصل الصفا	ر وما سلوت عن الصغارِ
سقياً لتغليسي إلى	باب الرصافة وابتكارى
أيام أخطر في الصبا	نشوان مسحوب الإزارِ
حجى إلى حجر الصرا	ة وفي حدائقها اعتمارى
ومواطن اللذات أوطا	نى ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلد	سوى معاقرة العقارِ
أحيا بألحان قر	تُ بهن ألحان القمارى
وإذا استهل ابن العميدِ	تضاءلت ديم القطارِ
خرقَ صفت أخلاقه	صفو السبيك من النضارِ
فكأنما زفت موا	هبهُ بأمواج البحارِ

وكأن نشر حديثه نشر الخزامى والعرار
وكأنتا مما تفرّق راحتاه في نثار
كلفٌ بحفظ السرّ تحسب صدره ليل السرّار
إن الكبار من الأمورِ تنال بالهمم الكبار
وإلى أبي الفضل أتبعْتُ هواجس النفس السوارى

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذه القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزد ابن العميد على الإهمال مع رقعة حاله التي ورد عليها إلى بابه فتوصل إلى أن أدخل عليه يوم خميس وهو في مجلس حافل بأعيان الدولة وتعدى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار بيده وقال :

« أيها الرئيس ! إنى لزمك لزوم الظل ، وذلك لك ذل النعل وأكلت النوى المحرق انتظاراً لصلتك ، والله ما بي من الحرمان ، ولكن شماتة الأعداء : وهم قوم نصحوني فأغششتهم ، وصدّقوني فاتهمتهم ، فبأى وجه ألقاهم ، وبأى حجة أقاومهم ، ولم أحصل من مديح بعد مديح ، ومن نثر بعد نظم ، إلا على ندم مؤلم ، ويأس مسقم . فإن كان للنجاح علامة فأين هي وما هي ؟ إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك ، وأن الذين هجوا كانت مثلك ، فزاحم بمنّا كبك أعظمهم شانا وأنورهم شعاعا ، وأمدهم باعا ، وأشرفهم بقاعا .»

نحار رشد ابن العميد ولم يدر ما يقول ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك في الاستزادة ، وعن الإطالة منى في المعذرة ، وإذا تواهبنا ما دفعنا إليه استأنفنا ما نتحامد عليه . فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه نفثة مصدور منذ زمان ، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر . والغنى إذا مظل لثيم ! فاستشاط ابن العميد وقال : والله ما استوجب هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولىّ نعمة فأحتملك ، ولا صنيعتى فأغضى عليك ؛ وإن بعض ما أقررت في مسامعى ينغص مرة الحليم ، ويبدد شمل

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك تقریطى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب ، ولا استدعيتنى برسول ، ولا سألتنى مدحك ، ولا كلفتنى تقریطك ، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأبهتتك ، وقت لا يخاطبنى أحد إلا بالرياسة ، ولا ينازعنى خاق فى أحكام السياسة ، فإبنى كاتب ركن الدولة ، وزعيم الأولياء والحضرة والقيم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضباً وأسرع فى سخن داره إلى أن دخل حجرته ، وتقوض المجلس ، وماج الناس ، وسمع ابن نباته وهو فى سخن الدار ماراً يقول : والله إن سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا ! فلعن الله الأدب إذا كان بائعه مهيناً له ، ومشتريه مما كسا فيه !

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حله ألمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها ، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد إلى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيرفها القارىء بعد لحظة ، فإن راويه وهو ابن خلكان عاد فحدثنا أنه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسوبين إلى غير ابن نباتة ، وأنه كشف ديوان ابن نباتة فلم يرفيه هذه القصيدة وأنه وجدها فى (مثالب الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرازق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم تتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين) ونحشى أن يكون ضاع أبد الأبدىح ، مع أنه كان موجوداً بالأستانة منذ ثلاثين عاماً ، ولو أتيتح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لأستطعنا تخطئة ابن خلكان ، فإننا نجزم جزمقاطعاً بأن هذا المجلس الذى نقلناه آتفا من صنع التوحيدى ، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة

علمية ، فإننا نعرف التوحيدى معرفة قوية لطول ما صاحبه وعاشرناه ، ولو أقيتُ جملة من كلامه فى أكدهاس من الأوراق لميزناها لأوّل نظرة . فليكن الشاعر من يكون ، وليكن المحاطب من يكون ، فإن واضع المجلس هو التوحيدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميد لا على غيره ، لأن هذه الحفيظة من التوحيدى ما كانت لتثور فى هذه القوّة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثله وتجريحه حيناً من الزمان .

٧ — وكان لابن العميد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فأهّم بتأديبه وأحضر له كبار الأساتذة ، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقافته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرفع إليه بعضهم أنه أشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث من عقد مجلس مسرّة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه ، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شراباً فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشوم ، فهدس ابن العميد إلى ذلك الإنسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فإذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

قد اغتنمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاي رقدة من عين الدهر ، واتمهزت فيها فرصة من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابى فى سمط الثبا ، فإن لم تحفظ علينا النظام ، بإهداء المدام ، عدنا كينات نعش والسلام»^(١) .

فاستطير ابن العميد فرحاً بهذه الرقعة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعته ، ووثقت بجريه فى طريقي ، ونيابته منابى . ووقع له بألفى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلاً ، لأن ذلك الوليد أخذ يمعن فى أسباب الزهو والخيلاء ، فكان يحمل رؤساء الجند وقوادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقالة ليسلموا له الرئاسة . « حتى لا يأنف أحد من تقبيل الأرض بين يديه والمشى قدامه إذا ركب ، مما لا يؤثره

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل مالا يبظهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالا ، وأن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعي على إزالتها وترقب أوقات الغيرة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت » (١).

ولكن تلك العظائم لم تغن شيئاً في تقويم ذلك الفتى ، فكان أبوه يأخذه معه في أسفاره حتى لا تكون سيرته سبباً في تغيير ركن الدولة على وزيره . واتفق أن خرج أبو الفضل في إحدى سفراته وأستصحب معه ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريق — وكان يركب العماريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة النقرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير في موكبه أحداً ، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجباً يخبره ولا من جرت العادة بمسائرته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح إلى الصيد . قال ابن مسكويه « فاستشاط من ذلك وساءه أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو في وجه حرب ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتم عليه حيلة . فدعا أكبر حبابه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسائرته ومخالطته ، وظن أن هذا المبلغ من الإنكار سيفض منه وينهى العسكر من أتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر . وعاد الفتى إلى عاداته واتبعه العسكر وما لومعه إلى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخلوهم من الخلع والألطف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جداً ، ولم يحب أن يخرق هيئة نفسه بإظهار مافي قلبه ، ولا أن يبالي في الإنكار وهو مثل ذلك الوجه فيفسد عسكره ويطمع فيه عدوه ، فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه ذلك إلى زيادة في مرضه حتى هلك

بهذه الأمان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعني ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلتني إلا جرع الغيظ التي تجرعتها منه «^(١) .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى أكارا في بستان يأكل خبزاً يبصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الأكار آكل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا للإنسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

٢ - نثر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد »^(١) وهي مبالغة تذكر بما قيل في ذلك العهد : « بدى الشعر بملك ، وختم بملك » يريدون أنه بدى بامرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه وتلك من المبالغات التي تجرى على السنة المتزلفين من الحواشي والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياع يقولون بإمامته في النثر كما كان لأبي فراس أشياع يقولون بإمامته في الشعر . وكلنا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان إلى أصل من الحق أصيل ؛ فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفذاذ الرجال ، ولكل منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد ، ولكننا لا ننكر أن عبد الحميد كان إماماً لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب وتعابير وتقاليد لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماماً لكتاب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل في فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة ، هي إعزاز القلم ورفعته إلى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يختر لها الجبارة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفته ، كما كان يفعل معاصروه ، وإنما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يشور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً براقاً يلهو به ولا ثروة لغوية يكأثر بها الكتاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقياس الهلاك ، وقد يرقّ فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل ، وهو في رفته وجزالته ، وغضبه وحنانه ، عبقري لا يعبث برجع الحديث المعاد ، وإنما يجدّ بأبداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ - لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطى عن نثره فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع إلى فنين : الأول رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيراً لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين في نثره لون خاص . ولنسارع فنقرّر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابى مثلاً على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فإن ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك إلى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان إلى جانب هذا مخلصاً قويا يحول مشاكل الحكم عند أمثاله من الوزراء إلى معضلات شخصية تشور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

« كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرها يوجب رعاية ، ويقضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرمى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لخدمك ، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الخزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو . »

وفي هذه المقدمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي ويقفه موقف المتردد بين يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجود حاله في الطاعة والعصيان فيقول :

« وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ، فشدتكَ اللهُ إلا ما صدقتني عما سألتك : كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح ليليل ، وغذاء غذي ، وماء روي ، ومهاد وطى ، وكنّ كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، وعزت به بعد الذلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ فقيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما عدت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست في خلفها يدك ؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظلّ ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! » .

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : « تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، وألمس جسدك وأنظر هل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ ووقش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حلّى بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح ؟ » ^(١) .

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في أنفس الناس لذلك العهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأفلام تتقدّم طلائع السيوف . وهذا في الواقع متابعة موفقة لذلك العرف الذي سنّه كتاب الدولة الأموية وأقرّه كتاب الدولة العباسية ، وهو أسلوب في الدعاية كان يجري عن طريق الرسائل كما تجرى الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وفقاً لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، هي قصائد منثورة في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير التصيد ، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع بقية الرسالة في اليتيمة ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات: هو العتاب. ولكن أى عتاب! إن الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون. لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهماً دقيقاً جداً، والظاهر أنها كانت تتحول في قلبه إلى عشق، لأنه في عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس عن روح الصديق، وهو في عتابه مختلف الأشجان والنوازع: فله أوقات يثور فيها ثورة جارية فيرمى بإخاء من يعاتب في جحيم النسيان، كقوله وقد مزج بين العتب والهجاء:

« وقد ندمت... ولكن أى ساعة مندم! بعد إفاء الزمان في ابتدائك، وتصفحى حالات الدهر في اختيارك، وبعد تضييع ما غرسته، ونقض ما أسسته، فإن الوداد غرس إذا لم يصادف ثرى ثرياً، وجواً غدياً، وماء رويماً، لم يرح زكاؤده، ولم يجر ماؤده، ولم تفتح أزهاره ولم تجن ثماره، وليت شعري كيف ملك الضلال قيادي حتى أشكل على ما يحتاج إليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان، وهي مازجة طبع، وموافقة شكل وخلق، ومطابقة خيم وخلق، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتلاف، وحمطنا من اختلاف، ونحن في طرفي ضدين، وبين أمرين متباعدين. وإذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد أكثر مما بين الوهاد والنجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار، وأقل ما بيننا من التضار، أكثر مما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار»^(١).

وهذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبري، ولا يتوهمن القارئ أن هذه العبارات الجافية تدل على أن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق. هيهات! فنحن نعرف ما تشير إليه أمثال هذه الثورات، فإن المرء لا يغضب مثل هذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده، ودليل ذلك أننا نراد يعاتبه في الرسالة نفسها معاتبه المغلوب فيقول:

« ولو بقيت من الصبر بقية لسوت، ولو وجدت في أثناء وجدى مخرجاً يتخلله تجلد لأمسكت، فقد يماً لبست الصديق على علاته، وصفحته له عن هناته، ولكني مغلوب على العزاء

مأخوذ على عادتي في الإغضاء ، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالي جفاء ، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي لجعله هباء ، وتولى عليّ قبح فعلك في هجر يستمر على نسق ، وصد مطرد متنسق ، ما لوفض على الوري وأفيض على البشر لأمثلات صدورهم ... الخ» (١) .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبري هذا ، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة ، واستطاع أخيراً أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب إليه في جواب خطاب:

« وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانطلاق ، من عنت الفراق ، ووافقني مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال ، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال ، وأعتقني من مخالتك عنقاً لا تستحق به ولا ، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب درّكاً ولا استثناء ؛ ونزع من عنقي ربة الذل في إخائك ، بيدي جنائك ، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسوء ، وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس ، ومسح أعشار قابي فلأم فطوري بحمائل الصبر ، وشعب أفلاذ كبدي فلاحم صدوعها بحسن العزاء ، وتغلغل في مسالك أنفاسي فعوّض عن النزاع إليك نزوعاً عنك ، ومن الذهب فيك رجوعاً دونك ، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى ، ورفع عنى غيابات ما سدله الشك دون نظري ، حتى حدر النتاب عن صفحات شيمك ، وسفر عن وجود خليقتك ، فلم أجد إلا منكراً ، ولم ألق إلا مستنكراً ، فوليت منها فراراً ومثلت رعباً . فأذهب فقد ألقىت جلك على غار بك ، ورددت إليك ذم عهدك ! » (٢) .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود ؟ إن الناقد ليرى ابن العميداً قنيساً أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائع الشعر القديم ، ولكن لينظر منصفاً كيف اتصلت هذه المعاني بنفسه أشدّ اتصال ، وكيف جرت على أسلّة قلمه وكأنها فيض النظرة وجود الطبع ، حتى ليخفي ما طرزت به حواشيتها من آثار الاقتباس .

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقى حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده ، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف ، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

« ما هذا التعالى بنفسك ، والتعالى على صديقك ؟ ولم نبذتنى نبذ النواة ، وطرحتنى طرح القذاة ، ولم تلفظنى من فيك ، وتمجنى من حلقك ، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب ، وكيف لا أخطرني ببالك خطرة ، وتصيرني من أشغالك مرة : فترسل سلاماً إن لم تتجشم مكاتبة ، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابي سيرد عليك فتتكبره حتى تثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر ، فقد صرت عندك ممن يحا النسيان صورته من صدرك ، وأسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضاً تتعجب من طمعى فيك وقد توليت ، وأستألتى لك وقد تأيت ، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقمى منك قلباً فيعود إلى الوصال . وآخر ما أقوله إن ودى وقف عليك ، وحبس في سبيك ، ومتى عدت إليه وجدته غصاً طرياً ، فجرّبه في المعاودة فإنه في العود أحمد » (١) .

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير ؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة في صباه ، على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير ، فلوزراء كسائر الناس جوانب وجدانية تلتقي على حياتهم ظلالة من الرفق والحنان ، خصوصاً إذا تذكرنا أن كلمة « وزير » كان يلحظ فيها دائماً معنى « كاتب » وكان الإبداع في الكتابة من المؤهلات الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — وما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية ، كتبه حتماً بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

هذا هو صديقه الذى حدثناك آنفاً عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تم عن ود رقيق ،
وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وإنه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلّى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

« وأركب فى الخدمة طريقة تبعذك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار
والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خيرٌ من أن
تتصى من قريب . وليكن كلامك جواباً تتحرّر فيه الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفزك
طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخالقة للجاه ، فإن اضطرت
إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فإن وجدت
النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الإسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا توهم أن
عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دُفعت عن
حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك »^(١).

وهذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسه
الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من ممازجة الطبع ، ومواقفة
الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ودّ ذلك
الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

« لكن ما بقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ
لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم
لشمل أنسى ، وقد عدت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات
انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام ؟ »^(٢).

٧ - وما أمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الإخوانية ، وهو فن برع فيه كتاب القرن
الرابع وصيره سنة يجرى عليها الأصفياء والألاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

ورداً سائغاً لمعاصريه كالميكالى والبيغا وبديع الزمان . وليس غريباً أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفيّ أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنى مزارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

حتى رأيناه ممثلاً أوضح تمثيل في قول ابن العميد :

« قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرّك على تنائيه ، لأن الشوق يملك ، والذكر يخيلك ، فحنن في الظاهر على أفتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح »^(١) . وهو معنى جيد أتمهه البيغا في إحدى رسائله الاخوانية^(٢) .

ولا يقف ابن العميد في ملاحظه إخوانه عند هذا الحدّ ، بل يتأنق في وصف كتبهم إليه فيقرظها في حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل إليه من أحد الأصدقاء :

« وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فأرتحت لكل ما أوليت ، وأبتهجب بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل إلى نظائره التى وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأمّلت النظم فلكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : في تشبيهه بمستحسن من زهر جنىّ ، وحلل وحلىّ وشذور الفرائد ، في نحر الخرائد :

والعذارى غدون في فى الحلل البيض وقد رحن فى الخطوط السود
فلم أره لشيء عدلاً ، ولا أرضى ماعدته له مثلاً ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم ، ويربّ معه إحسانك إليهم »^(٣) .

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) انظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤

(٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحة أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازة للكاتب ، كقوله في خاتمة خطاب :

« وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداءك — فامتألت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك في لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندي ، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك ، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى » (١).

هذا ولابن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق اتصال ، وله في التهاني رسائل تغلب عليها الصنعة ، ولكنها كأكثر نثره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارِع وإطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان . وما نحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣- أبو حفص به برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفني في القرن الرابع ، توفي بسرقة سنة ٤١٨ كما في الذخيرة^(١) وإرشاد الأريب^(٢) ، لا سنة ٤٢٨ كما وقع خطأ في كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب في الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة ، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء في الأيام العامرية .

٢- ولم نجد على كثرة البحث ما يعين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التي لا تحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان « كاتباً بليغاً »^(٣) وذكر ابن بسام أنه كان في زمانه « واسطة السلك ، وقطب رحى الملك » وأنه « برز على نظرائه وأشكاله » وأنه « كتب عن عدّة من الأمراء فأسمع الصم بياناً ، واستنزل العُصم إبداعاً وإحساناً »^(٤) وذكر صاحب المطمح أنه « غذى بالأدب ، وعلا إلى أسمى الرتب » وأنه « بديع الإحساس ، بليغ القلم واللسان » وأنه « مليح الكتابة ، فصيح الخطابة »^(٥) وخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب إليه فقال :

من شاء خُبري فأنا ابن برد حدّ حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى من نظم الألفاظ نظم العقيد
وتقد الكلام حق النقد وكف بالأقلام أيدي الأسد^(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد في أنف من قرأوا له ، وكتبوا عنه ، ولكنها لا تعين منحاها في مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩

(٥) انظر نفع الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجوا لابن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه ابن بسام على قرب عهده به صرّح بأنه لم يجد من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب عن فضائله^(١) ، وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر وابن برد الأصغر . فإننا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم إلى ابن برد الأكبر^(٢) ، وينسبها ياقوت^(٣) إلى ابن برد الأصغر - والأبيات الآتية :

لما بدا في لازور دى الحرير وقد بهر
كبرت من فرط الجمال ل وقلت ما هذا بشر
فأجابني لا تنكرن ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح إلى ابن برد الأكبر^(٤) . ونسبها ياقوت^(٥) إلى ابن برد الأصغر .

٤ - تولى ابن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكفي ، وكتب كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليها رياسة ديوان الإنشاء أثر قوى في حرصه على أدوات الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم كتباً خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب كما فعل ابن المدبر حين ألف « الرسالة العذراء » وإنا لنجد ابن برد يكتب عن المظفر بن أبي عامر رقعة وجهها إلى القواد والكتاب فيقول :

« ومن أعجب العجب ما يجترىء عليه بعض خدمتنا من نبذ عهدونا . ولا أحسب الذى غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبية ، وخليقة لازمة ، فرب شبع تحت مخيل النعماء ، وكم غصص فى شهبى الغذاء ، ومن شرق فى نيمر الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكتاب الجهالة ممن قلت معرفته ، واتضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعته ، ويميز الرق فيحسن اختياره ، وعزاه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع نفح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢
(٣) ص ١٠٦ ج ٢ (٤) نفح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتباً فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة بالخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد إليه كتاب اعتراض عمل في رق ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر في عدد أو رسم ما لم يخف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل» (١).

ولم يكتب بذلك ، بل مضى يقول :

« وإن قوما منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في دنى الرقوق ، رقة من همهم ودناءة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاه الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم منشوره وتفصل شدوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكاتبه ، إلى ما اقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهداً لئن ارتفع إلىّ بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعده أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو ممداد أو خط لأفين لصاحبه بما قدم إليه من الوعيد» (٢).

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ — وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصور ما كان من النزاع بين العرب والبربر في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسي ، ولها كذلك نفع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون « العبيد » أحيانا في لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك ، لأننا لا نعرف عصابة ناوأت العرب في الأندلس غير عصابة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان ابن الحكم عدة رسائل إلى من سماهم بن بسام « جماعة العبيد » جاء في إحداها :

« ولم تزل الأئمة مقبلة على موالها مختصة لعيدها تقدمهم في الثقة ، وتقربهم بالمودة ، وتعدهم لحواث الأمور ، وتقذف بهم في معضلات الخطوب ، فيتولون من اجتهادهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة ، حتى شرف القوم ونبلوا ، وسما ذكركم ، ونسبوا إلى مشهور أنسابهم ، ومذكور بيوتاتهم ... وقد أفضى الأمر إليكم معشر الموالى ، وهذا أسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به ، وأخرجكم عن رق الملك ، وصيركم منا ، وخلطكم بنا ، وأفضى بأنسابكم إلينا ، والولاء لمحبة ، ومولى القوم منهم ، ملعون من أنتمى لغير أبيه ، أو ادعى غير مواليه ، هذا حكم الإسلام ، على لسانه عليه السلام . وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزىء أيضاً ، إلا أن يكون ضلعكم معنا ، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا ، فتحن أحق الناس بكم ، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من مواليتهم ، فإن نعمتم حالا فرقت الشمل ، أو لقيتم أمراً صدع الجمع ، فتلك الفتنة التي يعق فيها الابن أباه ، ويقتل لها المسلم أخاه ... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات ، ونالكم من الفجعات ، أوجع قلوباً ، وأشد غموماً ، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وما زلتم الشعار والذثار : لا يؤثر عليكم ، ولا تثق إلا بكم ، فإن يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين أبني آدم فمن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الحلوم : فتعود السيوف في أعقادها ، والنبال في كنانتها . ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحداً بذنب ، ولا ناله بعقوبة ، ولا نطوى على إحنة ، بل نعفو ونصفح»^(١) .

ونجد في رسالة أخرى حديثاً عن كتاب وجهه زعماء البربر إلى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين ما دامت إلا بطبقتهم ، ولا عزت إلا بدعوتهم ، ونجد ابن برد يمين عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقتهم لم تظفر إلا حديثاً ، وأن عددهم لم يكثر إلا قريباً ، وأنه أدخلهم في الدين وأستقدمهم من الضلالة ، وأخرجهم من الكفر ، ثم اصطنعهم ونوّه بهم بالتصرف في الخدمة^(٢) ، إلى أن يقول :

« وأقسمت على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة ، فأنتى لكم ذلك ؟ وإنما أنتم مدبرون مسوسون ، وأتباع مر بوبون ، وبناء التدبير نازح عنكم ، والسياسة القويمية محجوبة دونكم ، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلق ، أو سمعتم بجد شغب على مدبريه فأنجح ، والله تعالى ودينه وخلائفه فى غنى عن عند عليه وحاده ، وأنجر فى الإسلام وشاقه ، وخرج عن الجماعة ، وشق عصا الإمامة ، وأستخف بحق الأئمة ، ونازع الأمر أهله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملأكم لم يجتمع على هذا الكتاب ، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب ، لكان له فى ذلك نظريقيم الأود ، ويعدل الميل ... وأعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه ، والرفق والأناة من شيمه ، فأقبلوا أدبه ، وانتفعوا بموعظته ، فلو كشف لكم الغطاء ، واجتلى عليكم الغيب ، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم ولا يبنى فى منافعكم ، ولا يسعى إلا فيما يرد أفتكم ، ويجمع كلتكم »^(١).

وهذا كله كلام طيب ، ولكن أين دلالة على قوة ابن برد النفسية ؟ إنه كلام كسائر ما يُسَطَّرُ كتاب الدواوين ، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين ، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه فى الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

« إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح ، وصلاحها وفسادها متصلان ، ونماؤها ونقصانها منتظران : إذ كانت الرعية عنصر المال ، ومادة الجبابة ، وفيهما قوام الملك وعز السلطان ، ورزق الأجناد التى بها يقاتل العدو ، وينصر الدين ، وتحمى الحرم »^(٢).

وهذا أيضاً كلام طيب ولكنه أقل مما سبق إليه فى مثل هذه الشؤون .

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد فى تاريخ الأندلس بكتابة العهد . عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموى ، وكان لهذا العهد صدق فى كتب المتقدمين : فتحدث عنه ابن بسام والمقرئ والقلقشندى وابن خلدون^(٣) . وليس هذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

فيه من الدلالة على صولة العامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أي حال . ألم يذكر على لسان هشام أنه « بعد أطراح الهوى والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهداً ، ويفوض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه وتقواته . من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور » .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم أن ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار إليه الحديث النبوى الذى يقول « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » فكان ابن برد على هذا من أنصار « التهريج » فى الوضع والتأويل !

٧ - ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد^(١) وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

« أيها الناس ! من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لا تتراح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهى ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتمننا بقيصته ، وخوّلناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقرم لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعبتنا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعزة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهدونا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى إذا ملكه الأشتر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة ، بما احتجن من حرام المال ، واستمال من طعام الرجال ، فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذ الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار إلى نار الله وسعيه » .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرايه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النمام والوشايات .

٨ — وخالصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية، وكان من كبار الكتاب في دولة العامرين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً، والتزلف إلى الباطل أحياناً. وكان لا يعرف ما يأتي وما يدع: لأن ظروف السياسة لعهد لم تكن تمكن كاتباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدقاً لخالص النية وظاهر الوجدان. وكان ابن برد كاتباً ووزيراً؛ والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تعويهم منافع العيش. وتصلهم أباطيل هذه الدنيا العرور .

٩ — وهذا الجانب النفى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد؛ لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية. أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذى يتحدث عن الإخوانيات وعن أنفس الكاتبين فى صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية. لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب فى تلك الأيام. ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرأثر النفوس. ودقائق الأحاسيس. وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم النثر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقائق الإغراء والوعيد وكذلك استذل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين. فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم. وإنما كان فى الأغلب صدقاً لجلجلة الاستبداد والطغيان. وآفة الادب أن يكون صدقاً لغير ما يحيش فى صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ - أبو المغيرة به حزم

١ - في الأصل الفرنسى فصل عن أبي عامر بن شهيد ، وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكتاب ، لأن ابن شهيد من الأعلام التي لم ينتبه إليها المستشرقون الفرنسيون . أما الرجل الذي أحدث عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم ينتبه إليها أحد من الباحثين ، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل ، وهو ابن حزم ! وهنا يلتفت القارىء باسمًا بسمه السخرية : لأن ابن حزم معروف طبَّق صيته الشرق والغرب ، فلنسارع إذن بتقرير ما هداانا إليه البحث من أن « ابن حزم » يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبي عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب ، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب ، وهما من بيت واحد وابنا عم^(١) ، ويمكن الحكم بأن أولها أفعه وأعلم ، وثانيهما أكتب وأشعر .

٢ - لم أجد من المصادر ما يعنى في تحديد الزمن الذى عاشه أبو المغيرة بن حزم ، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع ونجر القرن الخامس ، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام^(٢) ، وربما كان السبب في خوله أنه اعتبط^(٣) شابا «ولو طال به مداه، لم يذكر معه سواه» كما قال ابن بسلام ، يضاف إلى ذلك أن شخصية ابن عمه أبي محمد بن حزم طغت عليه فأغرقتة في لجج من النسيان . ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا المحول ، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب إليه أبو محمد يقول :
كفانى بذكرى الناس لى وماثرى ومالك فيه - سم يا ابن عمى ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (نفع الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء في النفع (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم فادسى الأصل وليس من « بنى حزم » وهى أسرة عربية أندلسية .

(٢) قال القرى في الحديث عن المستظهر : « وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد النهك في بطالته ، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء في مقاله ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف في حالته » نفع الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالبناء للمجهول : مات .

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فينتقى ولا لك فيهم من صديق يكائر
وقولى مسموع له ومصدق وقولك منبث مع الريح طائر
وإنى وإن آذيتنى وعقتنى لمحتمل ما جاءنى منك صار

وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتنى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقتته المقادر يذكرنى حاميم والرمح شاجر
غداً يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تتعلم يا أبا الظلم أننى برغمتك ناه منذ عشر وأمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شوارداً تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإنى سائر وإن أنا عن قوم فإنى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء ، وهو من رجال الفقه والأصول ، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به إلى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ — والواقع أن أبا المغيرة كان مفتوناً بالدراسات الأدبية ، ومصروفاً عن الدراسات الفقهية حتى لنجدته يسخر من علوم أبى عمه فيقول :

« نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتجبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطوراً تبكيهم بحديث التيه ، وطوراً تضحكهم بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبيت الحزان معتكفك » .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب (١) .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأذواق ، بل يحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة « كان أنه من أبي محمد في حضور شاهده ، وذكاء خاطرده ، وحسن هيئته ، وبراعة ظرفه ، وجوده أدبه » .

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان .

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطايب الحياة ، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الأناجيد تذكر بأدباء الشرق كالميكالي وأبن العميد ، ولتنظر كيف يقول :

« فالأرض قد نشرت ملاءها ، وسحبت رداءها ، ولبست جلبابها ، وتقلدت سحابها ، وبرز الورد من كمامه ، واهتز الروض لتفريد حمامه ، والأشجار قد نشرت شعورها ، وهزت رؤوسها ، والدنيا قد أبدت شمسها ، وأمطت عبوسها ، وكأني بها قد أطلعت من كل ثمر ضروباً ، وأبدت من حناها منظراً عجيباً ، وإن كنا لا نشارك في تلك إلا باللسان لا بالعيان ، وبالطرف لا بالكف ، وللهمر قسم من أقسام اللذة ، وصنف من أصناف الشهوة :

شهدنا إذ رأيناهم بأننا على اللذات في الدنيا شهود» (١)

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيء الظن بالناس ، لأن الخلق لا تتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس إليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال ، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشربة بالتحفظ والكتمان ، ويقرر أن في الاحتماء حسم الداء ، وأن لا يعدو للإنسان إلا نفسه ، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه ، ثم يقول :

« وليس في الحيوان أخبث من الإنسان ، فالاحتراس كل الاحتراس ، والمعاشرة الجميلة للناس ، لا تُلدغَنَّ من جحر مرتين ، وأذكر المثل السائر في الملاعب بين وتدين ، والعافل من حملة كل بلد ، ونفق عند كل أحد ، وأعقل منه من عرف الناس ، ولم يعرفوه فاستراح من أجنبي متكلف ، إلى قريب غير منصف ، ولم يفتقر إلا إلى ربه ، ولم يأنس إلا بنور لبه» (١)

وهذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كان إلى السلامة من شر الناس سبيل . ولكني ما أحسبه دعا تلك الدعوة إلا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعظون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تنطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الإنسانية لثيمة تبيح كل شر . وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلتقي الشر إلا من أصفياهه ولا ينجى الشوك إلا حيث يفرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحينه إليهم ، وعظفه عليهم ، فنراه يقول في بعض رسائله :

« وما أعلم نائبة كفراقك أهدأ لمتن ، ولا نازلة كندائك أجلب لحزن ، وما كنت أرىم ربك لو كان الخيار ، أو أبرح منزلك لو ساحتني الأقدار »^(١) .

ويقول من رسالة ثانية :

« وإن رأيت تأنيسي بكتاب أجتلي منه وجوه البدور ، وجواهر النحور ، ودرر الثغور ، وأجتني ثمر السرور ، وأرتع منه في رياض العلوم ، ما بين منشور ومنظوم ، نفست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، منفرداً غريباً بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخلة إلا كقمام المسيح بين اليهود »

وللقارىء أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانية يصرح بضجر أبي المغيرة وتبرمه بالوجود ، إذ يعيش منفرداً غريباً بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، وتلك غاية في البؤس والشقاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حمله ضجره على الأكثر من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربة قومه في الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

« لقد نادينا لو أسمعنا ، وطرنا لو وقعنا ، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن ، وشرها يعلن ، يتعب أحدنا نفسه ، ويذهب حسه . ويعارض السيف بفهمه ، والبحر بعلمه ، والنار بذكائه ، والزمان بمضائه ، ونتأج فكره محجوبة ، وبنات صدره مخطوبة ، إن يسمعو ريبة طاروا بها فرحا ، وإن رأوا فضيلة وجوا لها ترحا » (١) .

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

« بانعكاس الزمان ، انعكست أمثال البيان ، كما روى عن الفتى المدعى للكتابة عند عمرو بن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بنجر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبه منتنتحها « الحمد لله خالق الأنام ، في بطون الأنعام » ف جذب الرقعة من يده و بالغ في إجزال صفده ، وإذا تأملت انقلاب الزمان ، وما وقع لي مع فلان انقلبت الخطبة فصارت « الحمد لله خالق الأنعام ، في بطون الأنام » وكم قد كشفت عن عوراته ، وما زالت مكشوفة ، وعرفت بسواته ، وما زالت معروفة ، إخباراً عنه . وتحذيراً منه ، وإعلاماً بما يستره ذيله . ويشتمل عليه ليله ، من قبائح يجلبها العار ، ويكتبها الليل والنهار » .

وأصرح من هذا قوله في وصف غدرات الأيام :

« فحين شمخ بالظفر أنفى ، واهتز لنيل الأمل عطفي ، والدهر يضحك سراً ، ويتأبط سراً ، وقد أذهلني الجذل عن سوء ظني به ، وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه ، أتت ألوانه ، وفساظر بانه ، ونادى ليقم من قعد ، ويتنبه من رقد إنما فترت تلك الفترة ، ليكون ما رأيت عليك حسرة ، وسمحت لك مرة ، لتذوق عليها كأساً مرة ، فرأيت وقد غطى على بصرى وعقلت وكنت في عمياء من ظفري ، وقلت هو الذي أعهد من لؤمه ، وأعرفه من شؤمه: ما وهب إلا سلب ، ولا أعطى إلا ساعة كإبهام القطا . فياله من قادر ما لألم قدرته . وذابح ما أحد شفرته » .

٩ — وقد قاده هذا المزاج إلى الإقذاع في الهجاء . وله في الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة « قبح الله زمانا يقرب إلى اللئيم حصانا ، وإلى الكريم أنانا » وربما كان أقبح أهاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم ، كقوله يصف كتاباً وصل إليه منه « معنى كصدأ الأسنان ، ولفظ كنفحات الأكفان ، وأعراض لا مدبّ فيها لسبهم مقرطس ، وأعلام لا وضح فيها لصبح متنفس ، وورطانة تمجها الأسماع وتخبوها الطباع ، فوقفت متبداً ، وعدت على نفسي وقر يحيى متردداً ، ، فقلنا أيها الإنسان لست بالنبي سليمان ، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل ، وسرار النمل ؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلعلت ؟ ألم تسرف في صحرائه فأوغلت ؟ ألم تجل في ميدانه فسبقت ؟ ألم تسرف في ظلماته فأشرقت ؟ هل أحسست بنكول جنان ، أو قصور لسان ، فيما نظمت كالعقود على ترائب الفتاة الرود ، ونثرت كالنجوم ، في صفحة الليل البهيم . ققلت : بلى ! قالتا : فأعرض عن رطانة الزط ، وصفير البط ، ولا تعج على طلل بأند ، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد ! ققلت : لقد أسرقما طاعنين ، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان ، ولعالم نوع الإحسان ، إلا أنه ربما كذب العنوان ، فأعدت النظر فإذا بك — أبا محمد — صاحبه ! كتاب بنى على الظلم العبقري ، والبهتان الجلي ، ومكابرة العيان ، ومدافعة البرهان قد طمس الله أنواره ، وأظهر عواره ، فجاء كالفلاة القوراء : لأماء ولا شجر ، والليللة الظالماء : لا نجم ولا قمر » (١) .

وهذا التهاجي بين أبناء العم لا غرابة فيه . فإن الأدب العربي يزخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء : لأن نائرة الحقد أشد ما تكون تأججاً واضطراباً بين الأقربين وهي عند العرب من أقوى بواعث الطموح إلى المجد . ومن أشدّ الحوافز لإيقاد ماخذ من جنوات النفوس والعقول . ومن هنا نرى أهاجي أبي المغيرة لأبن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره فإنه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاؤه لغيره عن المزاح الثقيل . كقوله في

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفي نفع الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجي الكاتبين ،

فليرجع إليهما القارئ إن شاء .

التهمك ببعض المتطبين : «وأشرح لي خبر فلان ، وأين بلغ من تكسبه ، وحيث أنتهى من تطبيه ، وكيف ظروفه وخزائنه ، ولعوقاته ومعاجنه ؟ وهل ينفذ طبه ، وينفق حبه ؟ وصف لي مايقوله على الماء ، ويبيديه من الأدوية ، وأهد إلى ما ينقّه من المقال ، على الكبد والطحال ويرقشه من الكلام ، في الفالج والزكام ، فالحمد لمن قرن له ذلك إلى القيام ، بشريعة الإسلام ، والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفالج عند الخصام» (١).

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فإننا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمدح وهو في ذلك يحاكي بديع الزمان الذي يحرص أشد الحرص على أن يؤدّى بالثركل ما يؤدّى بالقصيد ، وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأننا نرى في نثر أبي المغيرة نفحة همدانية ، ويكاد الرجلان يتشابهان ، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان ، والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت مسرعة إلى الأندلس ، واطلع عليها المتأدّبون هناك ، وإلى القارىء رسالة لأبي المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

« فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقفر أنست في يبابه ، إلى عواء ذئابه
لا أمر إلا بالنص المستلب ، ولا ألقى غير الخراب المنتهب ، والشعار عند النابتة ألقاها
فاتخطاها ، والنازلة أراها فاتعدّها ، قول أبي الطيب :

فإن أسلم فما أبقى ، ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه ، وأتوقع من الحمام وقوعه ، وهو يذهب بي إلى قبلة الآمال
وأنا لا أصدّق ، ويسوقني إلى محط الرحال وأنا لا أحقق ، ويؤم بي البحر الذي لا تحصى
فرائده ، والنعيث الذي لا يجذب رائده ، حتى أداني إلى الحضرة العلياء ، والحملة السماء ،
فكبرت إكباراً لما صرت إليه ، وهلت إعظاماً لما سقطت عليه ، وعلمت أنى في الحرم
الذي لا يضار جنباه ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمتع ثمره ، ولم ألبث أن نزلت
باليفاع الخصيب ، وتمكنت من الرشاء والقلب» (١).

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الجبل ، والقلب البئر .

ولم يقف تأثره ببيدع الزمان عند محاكاة في المذهب والأسلوب، بل تعدّاه إلى معارضة ما اشتهر من رسائله، فقد وضع الهمداني رسالة شائقة في إنسان جمع بين اللؤم والجمال، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاغرين، وهي رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية:

« ورد كتابك ينشد ضالة ودّنا، ويرقع خلق عهدنا، ويطلب ما أفاتته جريرتك إلينا، وذهبت به جنابتك علينا، أيام غصنك ناضر، وبدرك زاهر، لانجد رسولا إليك إلا نظرة تحرق حجاب الدموع، ونفرة تقيم مناد الضلوع، فإن رمنا شكوى ينفث بهامصدرونا، ويستريح إليها مهجورنا، لقينا دونك أمتع سدّ، وأقبح صدّ، وأقبح زند، وأبرح ردّ، حتى إذا طفت تلك النيران، وأتصف لنا منك الزمان، بشعرات أعشت هلالك كسوفاً، وقلبت ديباجتك صوفاً، وأعدت نهارك ليلاً، وناحت عليك تلهفاً وويلاً، وأطار حمامك غرابك، وحجب ضياك ضبابك، فصار عرسك مأتماً، وعاد وصلك محرماً:

وبت مداماً تسر الزيفاً فأصبحت تجرع خلا ثقيفاً

وصرت حجازاً جديب الحل وقد كنت للطالب المحصب ريفاً

أقبلت تتسلل إلينا لو اذا، وتطلب منا عواذا. قد أنساك ذل العزل عز الولاية، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا، وتقتلنا بسيوف أفاضك عشقا، وتميس غصنا، فتثير حزنا، وتطلع شمساً، وتغيب نفساً، فالآن نلقاك بدمع قد جفّ، ووجد قد كفّ. وعزاء قد أبدّ. وصبر قد غار وأنجد. وننظر منك إلى روض قد صوّح. وسار قد أصبح. وأعجم قد أفصح. ومبهم قد صرح... الخ»^(١).

١١ — نثر أبي المغيرة في جملته متين رصين. لولا ما يتطرق إليه أحياناً من قبح التعامل. ودمامة التكلف. وهو في الأغلب مسجوع. وفي الذخيرة شواهد على تكلفه. وهو تكلف ممضّ. نكتفي بالإشارة إليه. ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص. ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان.

هـ - أبو الفرج البيهقي

١ - البيهقي هو عبد الواحد بن نصر الخزومي ، وإنما لقب بالبيهقي للثقة ظريفة كانت تزين لسانه ، نشأ في نصيبين وأصل بسيف الدولة في شبابه ، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل و بغداد ، فنادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ .

قال الثعالبي : « وآخر ما بلغني من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكلالي يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد في سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخاً على السن ، متناول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد بجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبي الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملاً من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع » (١) .

٢ - كان البيهقي من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلاً ، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التي تكفي لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعين بعض صفاته ، لأن المؤلفين يهتمون في الأغلب بتقيد ما يصل إليهم من أخبار المشايخ من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

ما وصل إلينا من شعر البيضا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل بالصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وإنما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

وإنما لئلا يدور حول شهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص . بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفاقة والإملاق، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات ، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي تقضى به تعليل لصفاء شعره الوجداني، فقد كان شعر البيضا يُغنى به وكان من مُتَع السامرين في الشام والعراق ، ولننظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه ونرجسه مما دهى حسنه ورد
أراقت دمي ظلما محاسن وجهه فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخلد حتى كأنما سقى عينه من ماء توريده الخلد
لئن أصبحت رمداء مقلّة مالكي لقد طال ما أستشفت بهامقل رُمد^(١)

ولننظر كذلك كيف يقول في محبوب فصدّه مبضع الطيب :

بأبي الغائب الذي لم يغب عني فأشكو إليه همّ المغيب
باشرتّه كف الطيب فلو نلت الأمانى قبلت كف الطيب
فعلتُ في ذراعه ظبة المبضع أفعال لحظة بالقلوب
فأسالت دما كأن جفوني عصفرته بدمعها المسكوب
طاب جدا فلو به سمح الدهر لأمسى عطرى وأصبح طيبي^(١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

وإننا لتأمل في شعره فتجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب:

زمن الورد أظرف الأزمان وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا منهما بالحدود والأجفان
أشرف الزهر زارفي أشرف الدهر فصل فيه أشرف الإخوان
وأجل شمس العقار في يد بدر الحسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وأتمز الإمكان من قبل عائق الإمكان
في كؤوس كأنها زهر الخشخاش ضمت شقائق النعمان
وأخذتها عند البزال بألفاظ المثاني ومطربات الأغاني
فهى أولى من العرائس إن زفت بعزف النايات والعيان^(١)

وللقارىء أن يتأمل أحتفاء الشاعر بالصهبا ودعوته إلى أحتداعها كما تحتدع العروس
بالنای والعود .

٤ — ومما يؤكد أن أطاع البغيا من الاتصال بالملك كانت طفيفة لا تعدو مطالب
الرزق أن تراه يقول :

ما للذل إلا تحمل المن فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على اليسير فما العلة في عتبنا على الزمن^(٢)
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

سحبت الدهر في سهل وحزن وجربت الأمور وجربتني
فلم أرمذ عرفت محل نفسي بلوغ مني يساوي محل من
ولم تتضمن الدنيا لحظي منال مسرة إلا بحزن
وليس على غير الجود فيما سعت له لأستغنى وأغنى
فإن أحرم فلم أحرم لعجز وإن أبلغ فنفسى بلغتنى^(٢)

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التلوخي يحدثنا أنه روى عنه قول

سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آيات وسُدت مشارعُ
فقلت إلى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع^(١)

وحرص البيضا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالي.

٥ - وخلص البيضا من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر إلى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه إلى رؤية أبي إسحاق الصابري ، وقد اتفق له أن زار بغداد والصابري معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب إليه الصابري :

أبا الفرج أسلم وأبق وأنعم ولا تزال يزيدك صرف الدهر حظ إذا نقص
مضى زمن تستام وصلى غالبا فأرخصته والبيع غالٍ ومرخص
وأنستني في محبسي بزيارة شفت كدأ من صاحب لك قدخلص
ولكنها كانت كسوة طائر فوفا كما يستفرص السارق الفرص
وأحسبك استوحشت من ضيق محبسي وأوجست خوفا من تذكرك القفص
كذا الكرز^(٢) اللماح ينجو بنفسه إذا عين الأشرار تنصب للقفص
فخوشيت يا قس الطيور فصاحة إذا أشد المنظوم أو درس القفص^(٣)
وقد أجابه البيضا بأبيات جاء فيها قوله :

فإن كنت بالبيغاء قدما ملقبا فكم لقب بالجور لا العدل مختص
وبعد فما أخشى تقنص جارح وقلبك لي وكر ورأيك لي قفص^(٤)

٦ - وما أحب أن تشغلني الرغبة في الإيجاز عن إثارة بعض مادار بين الصابي والبيضا من المراسلات . ولأ كنف بما كان بينهما من وصف «البيغاء» فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة .

(٢) الكرز ، بضم الكاف ، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ يتيمة .

(٤) ص ١٨٨ ج ١ يتمة .

بالبغيا للثغته استطاع الصابي أن يحاوره محاوره طريفة في وصف البغيا فهو مثلا يعتذر عن إهماله الرجوع إليه لزيارته في السجن بقوله :

وأحسبك استوحشت من ضيق محبسى
ولننظر كيف يقول في وصف البغيا :

أنتها صبيحةً مليحة	ناطقةً باللغة الفصيحة
عدتُ من الأطيّار واللسانُ	يوهني بأنها إنسانُ
تُنهى إلى صاحبها الأخبارا	وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سمّعة	تعيد ما تسمعه طبيعة
ربما لُقت العضية	فتغدى بديهةً سفيةً
زارتك من بلادها البعيدة	واستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قرّاه الجوز والأرزُ	والضيف في أبياتنا يعز
تراه في منقارها الخلوقي	كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفضّين	في النور والظلمة بصّاصين
تميس في حلّها الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدةٌ خدورها الأقفاصُ	ليس لها من حبسها خلاصُ
تحبسها وما لها من ذنب	وإنما تحبسها للحب
تلك التي قلابي بها مشغوفُ	كنيت عنها واسمها معروف
نشارك فيها شاعر الزمان	والكاتب المعروف بالبيان
بذاك عبد الواحد بن نصر	تقيه نفسى عاديّات الدهر ^(١)

وقد أجاب البغيا على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة، يعجبنا منها

إلا قوله في البغيا :

تزهى بدوَّاج^(١) من الزمرد ومقلة كسبج في عسجد
 وحسن منقار أشمّ فان كأنم صيغ من المرجان
 صيرها انفرادها في الحبس بنطقها من فصحاء الإنس
 تميزت في الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان
 تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لجد أو لعب
 غذاؤها أزكى طعام رغداً لا تشرب الماء ولا تخشى الصدى
 ذات شعى^(٢) تحسبه ياقوتاً لا ترتضى غير الأرز قوتاً
 كأنما الحبة في مقارها حباة تطفو على عقارها
 إقدامها ببأسها الشديد أسكنها في قفص الحديد^(٣)

٧ - وهذا الوصف وصف البيغاء الذى أجاد فيه الشعراء أن اتاحت له لنا لثغة أبي الفرج
 التى أبدع فى وصفها الصابى حين قال :

وما هجنت منك الحاسن لثغة وليس سوى الإنسان تلقاه أنثعا
 أتعرفها فيما تقدم خالياً لعير إذا ما صاح أو جل رغا
 فيالك حرفاً زدت فضلاً بنقصه فأصبحت منه بالكمال مسوِّغا^(٤)

واللثغة تكون أحياناً أملاح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلاً كما أشار
 الصابى وإن كنا لا نرتضى بقية التمثيل .

٨ - ولا يفوتنا أن نقيدها أن شعر أبي الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك يتصل
 بمذهبه فى النثر أشد اتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى والمتنبى
 وأبى فراس يبدع أحياناً ويروع حتى لنعده فى طليعة الشعراء . ولننظر كيف تندفق الحياة فى
 قوله يصف قتلى الحرب :

فكرتهم صرعى كأنك بالظبا عاطيتهم فى الروع كأس مدام

(١) الدواج : على وزن رمان وغراب اللحاف يلبس (قاموس) .

(٢) الشى كهدى خصل الشعر والمشعان والشعوانة اللمة منه (قاموس) .

(٣) ص ١٩٠ ج ١ بيتية (٤) ص ١٩١ ج ١ بيتية

متهاجرين على الدنوّ كأنما أنفت رؤوسهمو عن الأجسام^(١)
 وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بني كلاب وعفوه عنهم :
 إذا أستلك الجانون أغمذك الحلم وإن كفك الإبقاء أمهضك العزم
 ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبه لفرط عتوه - إذا ماجني - الإنصاف أدبه الظلم
 إذا العرب لم تجز أصطناع ملوكها بشكر تعاوت في سياستها العجم
 أعددها إلى عادات عفوك محسنا كما عودتها قبل أبائك الشم^(٢)
 فإن ضاق عنها العذر عندك في الذي جنته فما ضاق التفضل والحلم^(٣)

وله أوصاف حية جداً تكاد تنطق بمعاني الموصوف ، من ذلك في وصف معصرة :

ومعصرة أنحتُ بها وقرن الشمس لم يغب
 فخلت قزازها بالراح بعض معادن الذهب
 وقد ذرفت لفقد الكرم م فيها أعين العنب
 وجاش عباب واديها بمنهل ومنسكب
 ويقوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحب
 فياعجبا لعاصرها وما يغني به عجبي
 وكيف يعيش وهو يخوض في بحرٍ من الذهب^(٤)

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهبك الجرد الخفاف قريب
 تباشر أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخاقين هبوب
 تماشي بفتيان كأن جسمهم خلقتها فوق السروج قلوب^(٤)

(١) ص ٦١ نشوار المحاضرة .

(٢) ص ٥٦ نشوار

(٣) ص ١٩٥ ج ١ بيتمة .

(٤) ص ٢٠٣ ج ١ بيتمة .

٦ - نثر أبو الفرج البغيا

١ - يمتاز نثر البغيا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية ، ويمثل الكتاب في ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يمس الكتاب من حيث هو رجل مودات ومجاملات ، وقل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية ، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر البغيا في طمأنينة وسكون تترأى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء ، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول في حماء العقول .

٢ - وأول ما يباطلنا من نثر البغيا هو رسائله الإخوانية ، كما كان يعبر القدماء ، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه إلى أصحابه وألآفه وإخدايه ، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسيب ، كأن يقول :

« شوق المملوك إليه شوق الظمان إلى القطر ، والسارى إلى غرة الفجر »^(١) .

أو يقول :

« شوق إليه شوق من فقد بالكرد سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه »^(١) .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

« ولولا أن المملوك يحمد نار الاشتياق ، ويبرد أوار الفراق ، بالتخييل المثل لمن نأت محلته ، والتفكير المصور لمن بعدت شقته ، لألهمت أنفاسه ، وأسعرت حواسه ، وهمت دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله الحمد على ما وفق له من تمازج الأرواح ، عند تباين الأشباح »^(١) .

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجي المحبين :

«إن ترأبلت الأشباح ، فقد توأصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص وبعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ؛ فلا تمضُ الفرقة وتؤلم ، وتنغص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجي الضمائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى . وأبعد من الألسنة مرعى» (١) .

ونحن نفهم هذا ، فقد نعيش على صلاة الأرواح مع أصدقاء أقتصمهم الليالي عيشاً لانبجده في وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء ، والودود القلوب .

٣ — وفي رسائل البغيا تفسيرٌ لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيده لما عرف عن العرب من بعض الخلال ، من ذلك رسالته في التهنئة بمولودة ، فهي تأكيده لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات ، ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهنيء فيقول :

« لو كان الإنسان متصرفاً في أمره بإرادته ، قادراً على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، واستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال . وتسارى الناس ببلوغ الأحوال غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعاً ، وعلى مانعه ظهر في الابتداء مطبوعاً . كان الخرج له إلى الوجود من العدم ، فيما ارتضاه له غير متهم ، ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله وتناهى عقله ، وحده فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يجهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى . أو يتسخط مواهبه الصادرة إليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر ، وقد اتصل بي خبر المولود ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أملها فيها ، ومن كان تغيره عند اتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق فعجب المملوك من ذلك واستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر في مثله عليه ، وقد علم

مولانا أنهن أقرب إلى القلوب ، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جلّ من قائل «يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور» وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أخرى ، ولكم نسب أفدن ، وشرف استحدثن ؛ من طرق الأصهار ، والاتصال بالأخيار ، والملمس من الذكر نجابته ، لاصورته وولادته ، ولكم ذكر الأثني أكرم منه طبعاً ، وأظهر منه نفعاً ، فمولانا يصور الحال بصورتها ، ويجدد الشكر على ما هب منها ، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته ، والأولى بمثله ، إن شاء الله تعالى» (١) .

ويظهر أن هذا النوع من التهناني كان من الموضوعات الملحوظة في القرن الرابع ، فقد عقد له الحصرى فصلاً في زهر الآداب . ومن طريف ما جاء فيه تفضيلاً للأثني على الذكر قول بعض الكتاب :

« الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ؛ وفيها كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواب ؛ والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها ينعم المرسلون» (٢) .

ويتصل بهذا المعنى ما اقترحه سيف الدولة على البيضا من الكتابة إلى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرهاً شديداً . وقد اتفق لعمر بن مسعدة أن سأله سائل: كيف تكتب لمن تزوجت أمه! (٣) وهذا دليل على أن كتاب القرن الثاني كانوا يعدون ذلك من فنون الإنشاء. أما في القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهراً أشد الظهور . وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب: فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه ، ويستهجى عمله ، وأشار إلى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمة ويولى أمرها غير نفسه ، وأنه عرف من تزوجت أمه

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩ (٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .

(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه ، وانفرد عن أودائه ، وتوارى عن أصفائه ، حياءً من لقائهم ، وكرها لتبنتهم أو عزائهم ، ثم بين نماذج ما يكتب في مثل هذه الحال^(١) . وإلى القارىء نص رسالة البغيا التي اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

« من سلك إليك — أعزك الله! — سبيل الأنبساط . لم يستوعر مسلكا من المحاطبة فيما يحسن الانقباض عن ذكر مثله . واتصل بي ما كان من خبر الواجبة الحق عليك المنسوبة بعد نسبك إليها إليك—وفر الله صياتها—في اختيارها مالولا أن الأنفس تتناكره . وشرع المروءة يحظره . لكنت في مثله بالرضا أولى . وبالاعتداد بما جده الله في صياتها أخرى . فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع . وحسنه أدب الديانة . ومباح الله أحق أن يتبع وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له . والسلام»^(٢) .

ولا يفوتنا أن نذكر أن البغيا تأثر في رسالته هذه خطوات ابن العميد في نفس الغرض . ولكن رسالة ابن العميد أكثر وحشيةً وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أحسن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

« وهنالك الله الذى شرح للتقوى صدرك . ووسّع فى البلوى صبرك . ما ألهمك من التسليم بمشيئته . والرضا بقضيته وجعل الله تعالى حده ما تجرّعته من أأف . وكظمته من أسف معدوداً يعظم الله عليه أجرك . ويجزل به ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعالها والمنظر من ارتماصك^(٣) لدقنها ، وعوضك من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل ما ينعم عليك بعدها من نعمة ، معرى من نقمة ، وما يوليك بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة»^(٤)

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه ، ولو خلونا إلى فطرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية ، ولا نقول شرقية ، لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها إنسان ولا حيوان ، فلنقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و٦٣ ج ٢ ص الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماص : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وفتنة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكره البنات إلا لظهور ذلك في أدبهم ظهوراً قوياً^(١) ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيانهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الإنسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحي الطريفة في نثر البيغا رسائله في أستهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفي طي ذلك الأستهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالباً إلى أن لديه « زأرين أعزاء » يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يوميء إلى أن لديه (محبوبا) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لا يكون المجلس محروما من نفحة الصهباء . وأنظر ماذا يقول أبو الفرج سماحه الله :

« من كان للفضل نسباً ، ولفلك الفتوة قطباً ، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعول الأنفس في أستراحة المسار إلا عليه . وقد طرقتني من إخواني من كان الدهر يماطني بزيارته ، وينفس على بقره ومشاهدته ، فصادفتني من المشروب معسرا ، ووجدت الانبساط في التماسه من غيرك على متعذراً ، وإلى تفضلك تفزع مروءتي في الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك في رق الاعتداد بالمنة ، ويقضى عنى بتفضلك حقوق المودة »^(٢) .

وفي المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

« أطف المن موضعاً ، وأجلها من الأنفس موقعاً ، ما عمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفة ، وأدى إلى أجتناء ثمرة اللذة . وبذخائر من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حُر الشكر ، ويجرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تنجد بالممكن منه مروءتي ، على قضاء حق من أوجب على المنة بزيارتي ، فعلت »^(٣) .

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بغض الهنود للبنات فيمكن في بيانه قول مؤلف كيلة ودمنة « وكان يقال إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألقاء ، والبنين ذكراً ، والبنات خصماء ، والأقارب غرباء ، ويعد نفسه فريداً » .
(٢) ينفس : يحسد (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣ (٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — في السهرات الإخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وإنما كان مما يدخره المترفون ، حتى أستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينمقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول (١) .

٥ — وهناك استهداء أطرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفس الكتاب . وقد استهدى البغيا دواة فقال :

« أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسباً ، وللصناعة والحظوة سبباً ، وبالذوى تجتنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب درّ الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميظ ببعض ما يستخدمه من حاليها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها إلى أهل تصريفه ، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى » (٢) .

واستهدى مداداً فقال :

« التنافس — أيدك الله ! — في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور النعمة ، والتخيري لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدرر سواء فيما تصدره الأقلام عنها ، وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلائها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة إليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب . وعتاد الكتاب ، ومادة الإفهام ، وشرب الأقلام . . . ولا معدل بي عن أستراحة خزائلك — عمرها الله ! — الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ دواتي من خمول العطلة ، وتنزه قلبي عن ظمأ الغلة ، وتكشف عنها سمة النقصان والخلّة ، فعلت ، إن شاء الله تعالى » (٣) .

(١) في هذه اللفظة شيء من الحق ، وكل ما بين الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج إليه الموزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج إليه المترفون في أذواقهم وإن كانوا فقراء .

(٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن البيغا لا يستهدى دواة كيف وقعت ، ولا مداداً كيف كان ، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة ، ويستهدى مداداً (جيداً) يزه قلمه عن ظمأ الغلة ، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ ، وأختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكاتب ، وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جداً في بعث نشاط الكاتب ، وكذلك تفعل الأقلام الجيدة ، وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارىء هناك^(١) .

٦ — وقد لاحظنا أن البيغا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة ، وفقاً للظروف ، من ذلك رسائله في التهنئة بالزواج^(٢) والتهنئة بولاية عمل^(٣) والتهنئة بالقدوم من سفر^(٤) والتهنئة بالمواسم والأعياد .

وهذا كله طبيعي ومقبول ، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهنئة بالصرف عن الولاية ، فقد نفهم أن يهنأ المرء بولاية عمل ، ولكننا لا نفهم كيف يهنأ بالعزل ، وما تنكر أن يقع ذلك ، ولكنه في رأينا من التكلف الممجوج ، وإن كان يدل على لباقة وذكاء ، ولننظر كيف يحتمل البيغا في مثل هذه الحال :

« من حل محله — أيده الله تعالى ! — من رتب الرياسة والنبيل ، كان معظماً في حالتي الولاية والعزل ، لا يقدر في قدره تغير الأحوال ، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال ، إذ كان استيحاءها للفئات من بركات نظره ، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره »^(٥) .

« لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما أختصك به من كمال الفضل ، ومأثور النبيل ، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك ،

(١) وللقارىء أن يراجع كذلك ما أثبتته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوى الأقلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية . (٢) أثبت صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩ (٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ص ٣٤ و ٣٥ ج ٩ (٥) الصبح ج ٦ ص ٧٧

وتحوطه بنواظر نراهتك وصياتك ،... فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك ، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهناً مسروراً ، كما كنت في الولاية محموداً مشكوراً » (١) .

٧ — وهذا الاستطراف لا يفارق البغيا : فقد كتب عدّة رسائل في التهنئة بالشفاء من المرض ، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى ، ويعجبنا من ذلك قوله

« ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك . ولا سلامتي مضافة لسلامتك . إلى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالتى الألم والصحة ، والمرض والحنّة ، فالحمد لله الذى شرف طبيعى بمناسبتك وجمل خلقى بملاءمتك فيما ساء وسر وإياه تعالى أشكر على ماخصنى به من كمال عافيتك وسبوغ سلامتك وسرعة إقالتك » (٢)

ولكننا نبتسم حين نراه يهنئ صديقاً بالمرض فيقول :

« فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية ، إيقاظاً له من سنة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق الآلام ، وتنبية العظّات ، غير الصفوة من عباده ، الخيرة من أوليائه ، فهناك الله الفوز بأجر ما يعانیه . وحمل عنه بأطافه ثقل ما هو فيه » (٣) .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتاج إلى التلطف فى المواساة ؛ وإخراجها مخرج التهنئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للبغيا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضوع واحد كقوله فى التعزية :

« أتصل بى خبر المصيبة ، فجدد الحسرة ، وسكب العبرة ، وأضرم الحرقه ، وضاعف اللوعة » (٤)

فدراه يعيد هذه التعابير في كلمة ثانية فيقول :

« اتصل بي خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى
الدمعة »^(١).

وله في هذا عذره : فإن اللغة محدودة ، وبعض المعاني يعسر الافتنان في تلويحها أحيانا.
على أنه استطاع أن يخفي فقره قليلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال
(قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وإن كان كرر (سكب العبرة) بلفظها في الرسالتين .
وكذلك كرر المعنى والعبارة في قوله تعزيةً لصديق :
« أحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته »^(٢).

وقوله :

« وحرس يقينك من أعتراض الشبهة ، وأحسن إلى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من
فتن المحن رعايتك »^(٣).

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار^(٤) والتهنئة بالمنزل الجديد^(٥) ،
وإن كان في هذا يكرر المعاني أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل الببغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندى
غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصع بالمستجد من أبياته الحسان ، حتى نجده
يترجم لرسائله فيقول :

« فصل في بيان غرر من رسائله الموصولة بمجاسن شعره »

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى أختصر ما أختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من
الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على نثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب
من الشعراء . وإلى القارىء نموذجاً من رسالة في مدح سيف الدولة^(٦) :

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣ صبح
الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب اليتيمة من رسائله ص ١٨٢ - ١٩٢ ج ١
(١٦ - ٢)

« الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ إذا نطق ، وينطق المجد إذا أفتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف إليه ، نهض بما قعدت الملوك عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية ، وغزائم علوية ، فرد شمل الدين جديداً وذميم الأيام حميداً ، بحق أوضحه ، وخلل أصلحه ، وهدى أعاده وضلال أباده .

فلا أنتزع الله الهدى عز بأسه ولا أنتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر؛ وأيسر منة تفوت المبالغة في جميل الذكر... إلخ»

١٠ -- هذا ولا ننس أن نذكر القارىء بأن فضل البغيا في رسائله لا يقاس إلى فضله وبراعته في نثره المرسل الذى دمج به قصصه الغرامية؛ وقد حُفِظَ له منها شاهد يعز على من رامه من أندى الكتاب قلما وأسماهم بياناً^(١).

(١) تجد هذا الشاهد فى باب « الأخبار والأقاصيص » بالجزء الأول من هذا الكتاب

٧ - الصاحب بن عباد

١ - في ذى القعدة سنة ٣٢٦^(١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوين وأبهر - في بيت معروف بالعلم والفضل . فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئاً كثيراً^(٢) ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شاباً ذكياً أعد نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدث عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي ، فلما تقوض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي واستقبحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوماً مقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كائنًا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها ، كانت صلّاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(٣) .

٢ - وأوّل ما نعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبي الفضل بن العميد فقد كان يخدمه خاصة ، ثم ترقّت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأدباء ، وفي بغية الوعاة سنة ٣٢٤ ص ١٥٦

(٢) في بغية الوعاة أنه كان في الصغر إذا أراد المضي الى المسجد ليقرا تعطيه والدته دينارا

في كل يوم ودرهما وتقول له تصدق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه إلى أن كبر وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح دينارا ودرهما لكلا نساءه .

(٣) ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان استوزر ابن عباد وحكمه في أمواله ، وكان لقبه الصاحب في حياة أبيه أنسابه . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب فخر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ إلى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقرّ الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدّم كلمته على كلفة فخر الدولة إلى أن مات في ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطي في بغية الوعاة ^(١) : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشره سنة وشهراً لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه وأخيه فخر الدولة ، وهو أول من سمى الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومُهُ ما عظمه فخر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطي أن فخر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره انتقاء لشره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ؛ وحدث وقعد للإملاء ، وازدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين ^(٢) . أرسل إليه في السرنوح بن منصور ملك خراسان يدعوهُ ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه في ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به الصاحب أنّ نقل كتبه خاصة يحتاج إلى أربعمائة جمل ^(٣) . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظاً في دقة الفهم وبراعة القول وسعة الاطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذذبة بين الحسن والقيح : كان كريماً ولكن كرمه كان فخاً ينصب لشياطين الشعراء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبي السلم نجبة بن علي

القوطاني الشاعر: أين ابن العميد من ابن عباد؟ فقال: زرتهما جميعاً وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم، وابن عباد أكرم ويدعى العقل، هما في دعواهما كاذبان^(١).

وكان صاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه إلى حق. قال يوماً لجلسائه: ما صدر قول الشاعر:

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة، فقال ابن الداري:

* يزدحم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال: ما عرفتك إلا متعجرفاً جاهلاً، أما كان لك بالجماعة أسوة!^(٢) وورد إلى صاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تُقرأ عندكم؟ فقال: رسائل ابن عبد كان، قال: ومن؟ قال: رسائل الصابي، وغمره أحد جلسائه ليقول رسائل صاحب فلم يفتن، رآه صاحب فقال: تغمر حماراً لا يحس!^(٣).

وكان صاحب يحب الفخر واتتحال الفضائل التي ربما قصر عنها، كذلك يقول ياقوت، ويذكر في تأييد ذلك أن صاحب حدث أنه عند دخوله إلى بغداد قصد القاضي أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتناقل في القيام له، وتحفز تحفزاً أراه به ضعف حركته وقصور نهضته، فأخذ صاحب بضبعه وأقامه وقال: نعين القاضي على قضاء حقوق إخوانه! فنجل أبو السائب واعتذر إليه. والقصة قعت لغير صاحب ولكنه اتحلها لنفسه وحكاها في مجلس أنسه فشاعت عنه^(٤).

وسمع صاحب يقول: ما بقي في أوطاري وأغراضى إلا أن أملك العراق وأنصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب عنى وأغير عليه^(٥). وهي شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان. والشواهد على ضعف عقل صاحب وخلقه

(١) ص ٤٠١ ج ٢ ياقوت. (٢) ص ٣٠٠ ج ٢ ياقوت (٣) ص ٣١٥ ج ٢ ياقوت

(٤) ص ٣٣٨ و ٣٢٩ ج ٢ ياقوت. (٥) ص ٣٣٧ ج ٢ ياقوت

كثيرة جداً يراها القارىء مبثوثة في معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبي حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل في هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام مواتور يحملة حمده على الكذب والأفتراء ، ومع هذا فقد قال التوحيدى عندما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه للحط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والقيبح يؤثر عنهما أثرًا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ ، ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحمران من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعوات عجيب ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثًا في جميع من كتب للجبل والديلم إلى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجده » (١) .

٥ - وما اختلقه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جداً ، شطرت الناس شطرين فشطرت عدوً وشطرت صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون أنه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية (٢) .

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنوا في ذمه وثلبه وأن يجدوا أذناناً تستطيب ما يقال فيه من الإثم والبهتان . الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان في الهجاء ففي ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ما عرضه التوحيدى في التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه في إرضاء شهوته إلى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه وخبراً ينمقه يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فإذا أفاق قيل : ما أصابك؟ ما عراك؟ ما الذى نالك وتغشاك؟ فيقول : مازال كلام مولاي يروقنى ويؤنقنى حتى

فارقني لبي ، وزايلني عقلي ، وانشرحت مفاصلي ، وتخاذلت عرى قلبي ، وذهل ذهني ، وحيل بيني وبين رشدي . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك مُعجباً وجهلاً . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بنى أبيه وعمه (١) .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : « ومن ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه ، والصبيان الضعاف أمثل » ونحن لا نستبعد أن يقع ابن عباد في مثل هذا الضعف الخلقى ، فإن الرؤساء كثيراً ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية ، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكاتبهم الاجتماعية ، ويعملون خبثاً أو جهلاً على التحدث بمواهبهم والإشادة بما يزعمون أنهم أفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقاً هو هذه الصورة التي وضعها التوحيدى للتملق السخيف المرذول الذي يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التي وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

« ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت في إجماز القرآن ، فراجعه اليهودى فيه طويلاً حتى احتد وكاد يتقد ، فاحتال اليهودى في مخاتلته وقال :

أيها الصاحب ! لم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختاط ؟ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فإن كان النظم والتأليف بديعين وكان البلقاء فيما تدعى عنه عاجزين وله مدعين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفقرتك وما تؤلفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وخذ وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حظاً وافراً ، ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له

المزية التي لا تجهل ، والشرف الذي لا ينجمل ، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهذا كله يقوله وقد خبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رماداً مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح غالب قد دب في أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهل الملل شبيهاً بالقرآن^(١) .

فهذه أيضاً صورة جميلة من صور التوحيدى ، وليس يضيرها أن تكون مختلفة . فقد تكون صور الواقع أظلم من صور الأختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي نراها غالباً في الرؤساء المفتونين، وور بما كان الصاحب أقرب من غيره إلى طهارة القلب لأنه ينخدع ، وقد ينخدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه ، وفنائهم فيه ، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يثنون عليه راغبين أو راهبين ، ويبئت لهم من الحقد والضعينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مندية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار في أنفسهم ، إذ يحدث أحياناً أن يمدحهم الناس صادقين ، فيظنون لهوانهم على سرائرهم أن ما يوجه إليهم من المديح ليس إلا ضرباً من ضروب الختل والخذاع .

٧ — وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب ، وقد أراد التوحيدى أن يدارى تحامله فأضاف إلى ابن عباد بعض الأجوبة المنحمة ، في شؤون كثيرة ، بعضها مما لا تصلح روايته ، ومنها الفكاهة الآتية :

« قال قوم من أصهبان لأبن عباد : لو كان القرآن مخلوقاً لجاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح في رمضان ؟ فقال : لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضاً ، ويقول : لا حياة لي بعدك ، ولا نصلى التراويح ونستريح ! »^(٢) .

وهذه الفكاكة تمثل روح الارتياب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر .
 والتوحيدى هنا متسامح مع صاحب لأنه يريد أن يصل عن طريقه إلى نشر هذه النكتة
 برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال في كلمة : لومات القرآن في آخر شعبان بماذا
 كنا نصلى التراويح في رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شىء في الإسلام ، وإنما أراد
 الكاتب أن يصل إلى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شىء ثقيل ،
 هجاء من بينهم بديع الزمان وأبو الفضل بن العميد .

٨ — ومن دلائل عظمة صاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف في تقرير فضله ، فبينما
 التوحيدى يلح في ثلثه وتنقصه والزراية به ، والإينحاء عليه ، يقوم الثعالبي من جانب آخر
 فيقول فيه :

« ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله في العلم والأدب ، وجلال شأنه
 في الجود والكرم ، وتفرد به غايات المحاسن ، وجمعه أشنات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض
 عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساغيه ، ولكنى
 أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لاجرح
 فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه
 للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرتة محط رحالمهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالمهم
 وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمتة فى مجد يشيده ، وإنعام يجده ،
 وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارده فى البلاغة ، وواسطة
 عقد الدهر فى الساحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب جزل ، وقول
 فصل ، وصارت حضرتة مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه
 مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد فى السحر ،
 ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ،
 واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى
 عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ،

فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين ... إلخ»^(١).

وهنا مضى الثعالبي يسرد أسماء الشعراء والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبي الحسن السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البديهي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي. إلخ. إلخ.^(٢).

٩ — ونحن لو تعقبنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم في كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا في عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، ولهؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطوّله، فإن إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقري يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشرائع وسيء الطباع. والإنسان في جملته مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامح والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلما تظهر محاسن الناس ومساوئهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذي يعيش عيشة وسطاً لا مجال فيها للزهو أو الحقد فإنه يظل مستور النجاء والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فأولع بالإغراب وكلف بالذهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرف فيها توقيعاً، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان في الرقعة: «فإن رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل» فأثبت الصاحب أمام «فعل» ألفاً، يعني «أفعل»^(٣).

(١) ص ٣١ و ٣٢ ج ٣ يتيمة .

(٢) انظر ص ٣٢ ج ٢

(٣) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة .

وكتب بعض العمال رقعة إليه في ألتماس شغل ، وفي الرقعة : « إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله » فوقع تحتها : « من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي » (١) .

ورفع الضرّابون من دار الضرب قصة إلى الصاحب في ظلامه لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها : « في حديد بارد » (١) .

١٠ — وقد وصل به الإغراب إلى أن يكتب في معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبي : « سمعت أبا جعفر الطيب المعروف بالبلاذري يقول إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرّة وابن زكريا لما زادوا عليها ، فسألته أن يعينها إن كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتب ، فأستغربت وأستبعدت ما حكاها من تطيب الصاحب ، ونسبته في نفسى إلى التزويد والتكثير إلى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدّرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع إلى ملاحظة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدلل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه » (٢) .

والمهم في هذا هو أرتياب الثعالبي فيما نسب إلى الصاحب من التطيب وظنه أن ذلك قد يكون من التزويد والتكثير . ففي هذا إشارة إلى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه الأفاويل . أما أنا فأرحج أن رسالة الصاحب في التطيب لم تكتب إلا معارضة للخوارزمي في رسالة كتبها إلى أحد تلامذته في نفس المعنى ، وفي هذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لا بدّ منها : ذلك أن الخوارزمي والصاحب حين كتبوا في الطب استلخا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة تفيض بالعدوبة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، وإليك نموذجا من رسالة الصاحب إلى صديق شكاه إليه علة ألت به :

« قد عرفت ما شرحه مولاي من أمره ، وأنبأ عنه من أحوال جسمه ، فدللتني جملته على بقايا في البدن يحتاج معها إلى الصبر على التنقية ، والرفق بالتصفية . فأما الذي يشكوه من ضعف معدته ، وقلة شهوته ، فلا أمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتفتق الشهوة الصادقة ، وترجع العادة السابقة ، والآخر أن المعدة إذا دامت عليها المطفيات ، ولزت بها المبردات ، قلت الشهوة ، وضعف الهضم ، ومع ذلك فلا بد مما يطفي ويفذي ، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها ، ويزيل العارض المكتسب عنها . . . والأقرص في آخر الحيات خير ما نقيت به المعدة ، وأصلحت به العروق ، وقوى به الطحال ليتمكن من جذب العكر ، لاسيا والذي وجده مولاي ليس الذنب فيه للحميات التي وجدها ، والبلدة التي وردها ، فلو صادف الهواء المتغير جسداً نقياً من الفضول لما أثر هذا التأثير ، ولا طول هذا التطويل . . . الخ . » وهي رسالة طويلة^(١) .

وإليك قطعة من رسالة الخوارزمي إلى تلميذه وقد ظهر عليه الجدرى :

« هذه العلة وإن كانت موجعة ، وفي رأى العين فظيعة شنة ، فإنها إلى السلامة أقرب ، وطريقها إلى الحياة أقصد ، لأن عين الطبيب تقع عليها ، ويد الممرض والمعالج تصل إليها ، وإما هي قرح نهبته الطبيعة ، ودم أثارته الحرارة ، وظاهر الداء أسلم من باطنه ، وبارز الجرح أهون من كامنه ، وهذه بعدلة تم الأبدان ، وتشمل الصبيان ، وإذا كانت العلة عامة كانت أكثر طباً ودواء ، وأخف على القلوب أعباء ، لأن النفس تستريح إلى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنها تورث سواد اللون ، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن ، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة ، والنفس الشريفة ، وفي الشر خيار ، ومن المحنة إلى المحنة صروف وأقدار . . . الخ »^(٢) .

وللخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها إلى بعض الأمراء وقد ورد عليه كتابه يشكو فيه الجرب ، تقتبس منها الفقرات الآتية :

(١) انظر الصفحات ٤٢ - ٤٤ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمي .

« ... الجرب حكة مادتها بيوسة وحرارة ووقود وألتهاب ، زندها الذى يقتبسان منه طعامٌ وشرابٌ ، وفضلة قذقتها الطبيعة إلى ظاهر البدن ، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن ، وعسكر من عساكر البلاء تمدّه القذارة ، وتهزمه الطهارة ، وتنقص منه البرودة والرطوبة ، كما تزيد فيه البيوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه ، فإنما يبيل حائطاً وراء النار الموقدة ، ويرش على سطح بيت فيه الشرر الميثوثة ، ويقعد تحت قول الأول :

خليلى دوايما ظاهراً فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد ، وهي تتوقد في باطن الكبد ... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع ممراته ، وعلى العطش مع حرارته ، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون في أوسط طبقات الرطوبة ، وفي أعدل موازين البرودة ، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولاسيبل إلى الحرافة . فأما البقول فيجب أن لاترى ولو في المنام ، ولا تمس ولو بالأوهام ، والسماك وما ناسبه بلية ، واللبن وما خرج منه منية ، ... وهذه تكسب صاحبها خزاية وحياء ، وتورثه خجلاً واسترخاءً ، ينظر إلى الناس بعين المريب ؛ ويتستر عنهم كتستر المعيب ، تنفر عنه الطباع ؛ وتستقدره النفوس ؛ وتنبو عن مؤاكلته العيون .. ولولم يكن من دقائق آفاتهما ، ومن عجيب هناتهما ، إلا أنها تشيخ الفتيان ، وتمسخ الإنسان ، وتجعله أمياً بعد أن كان غير أمى ، وأعجمياً وليس بأعجمى ، تنفر من نفسه نفسه ، وتهرب من فراشه عرسه ، ويتباعد عنه أقرب الناس منه ، لقد كانت جديرة أن يحنثد لدوائها ، وتبذل الرغائب في فنائها ، ثم هي ربع من أربع الخذلان ، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والإفلاس والجرب^(١)

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أُرخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتبين أسبق إلى الكتابة في المعانى الطبية التى ظنها الثعالبي بعيدة عن متناول الكتاب. والصلة بين صاحب

والخوارزمي كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وإن كانت ضعفت بعد ذلك ، حتى كتب الخوارزمي إلى الصاحب يعاتبه :

« ... ولقد كانت أيامي بمحضرة الوزير قصاراً ، وكان ليلى بها نهراً ، وساعاتي فيها أسحاراً ، كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ بليال ، وإني بعد صبري على فراقه لجلد على وقع سهام الهجر ، واسع المجال في ميدان الصبر ... إلخ »^(١) .

١٣ — ولم يقف الصاحب في الإغراب عند حد معقول ، وإنما مضى يغرب في الصنعة شعراً ونثراً ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتاً خالية من الألف ، وهي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والنثور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى من ليس يعدود فكري

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، و بقيت عليه واحدة تكون معرفة من الواو ، فأنبى أبو الحسين الهمداني وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب في أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الجباب لما بدا فالدمع ساكب
أمدمهي منهلة هاتيك أم غزر السحاب
نثرت لآلى أدمع لم يفترعها كف ثاقب^(٢)

وقد أخطأ المسيو ميتس حين ظن أن الهمداني الذي صنع هذه القصيدة هو الهمداني صاحب المقامات^(٣) . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذاك بديع الزمان أحمد بن الحسين .

والصاحب مسبوق في هذا النوع من الإنشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذي تجنب حرف الراء في خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف في الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطراً لذلك ، إذ كان ألتغ ، أما الصاحب فيمضى في هذا الفن صنعة وتكلفاً ليكاثر معاصريه من

(١) ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ يتيمة .

(٢) ترجمة المسيو روش الفرنسية التي تفضل فأعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم ، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قلت إن صاحب كان شديد الرغبة فى أستعباد الكتاب والشعراء ، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب إليه . فأسرها صاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيل من قدره . ويمكن الحكم بأن الحملات التى هوجم بها المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريض صاحب والمهالي ، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي إليه . وقد اشترك صاحب بنفسه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل ، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة ، تدل على فهمه للشعر و بصره بالنقد . ذكر فى مقدمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدبين فسأله عن المتنبي ، فأجاب صاحب : أنه بعيد المرعى فى شعره ، كثير الإصابة فى نظمه ، إلا أنه ربما يأتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج ، وأدعى أن شعر المتنبي مُمرّ النظام ، متناسب الأقسام ، ولم يرض حتى تحداه فقال : إن كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تتكرد ، وقيد بالخطبة ما تذكرد ، لتصفحه العيون وتسبكه العقول .

قال صاحب : ففعلت ، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتى ، ولا تتبع الزلات من طريقيتى . وقد قيل : أى عالم لا يهفو ، وأى صارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو ، وإنما فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذ المعترض أنى ممن يروى قبل أن يروى ، ويخبر قبل أن يخبر ، فأسمع وأنصت ، وأعدل وأنصف ، فما أودت فيه إلا قليلا ، ولا ذكرت من عيوبه إلا يسيراً . وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب ، وميننا بأعيار أغمار اغتروا بمباح الجهال ، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفأويقه ، والعلم أشطره ، لاسيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى ، وقد يوهمون أنهم يعرفون فإذا حكموا رأيت بهائم مرسنة ، وأنعاما مججلة^(١) .

(١) ص ٢٢٦ « الكشف عن مساوى المتنبي » .

وهذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ — وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعدّ للنقد عدته : فجالس الشعراء ، وكاثر الأدباء ، وباحث الفضلاء ، عشرين سنة ، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن » ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه وبين ابن العميد في نقد الشعر ، إلى أن قال : « وسمعت أيدى الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده ، والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أى الأوزان يكون أحسن استمرارا ، ومع أى القوافي يحصل أجمل أطراد ، فيركب مركب لا يخشى انقطاعه وألتياته عليه » (١) .

ونحن نستعيد رأى ابن العميد في تجاوز نقل الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، وزجح أن ابن شُمَيْد الأندلسى تأثر بهذا الرأى حين قال : « إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب طابت الألفة ، وحسنت الصحبة » (٢) .

١٦ — وليس يهمننا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله في نقد قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال الصاحب :

« ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، وعلى سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا في أمه بقوله :

* رواق العز فوقك مسطرٌ *

ولعل لفظة الأسبطار في مرثي النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة « وقيل يا أرض أبلعي ماءك » من القرآن و « أصدع بما تؤمر » من الفرقان . وفيها يقول :

وهذا أول الناعين طراً لأول ميتة في ذا الجلال

ومن سمع باسم الشعر ، عرف تردده في أنتهاك الستر .

ولما أبدع في هذه المرثية واخترع قال :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه أستعارة . فقلت : صدقت ؟ ولكنها استعارة حداد

في عرس !

ولما أحب تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ،

واستخرج زبد شعره ، فقال :

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته أحسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

* شلت وشلت ثم شل شليلها *

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثل

فالمصيبة في الرائي أعظم منها في المرثي^(١) .

١٧ — وخلاصة القول أن الصاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره ، وأكتب أهل

زمانه . وقد بقي من رسائله جزء في المكتبة الأهلية بباريس^(٢) . وفي زهر الآداب ونهاية

(١) ص ١٢ (٢) في دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من هذا الكتاب .

الأرب و يتيمة الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتزم السجع أو يكاد ، وفي أكثر الأحيان يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه ويهوى به في حضيض الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردى . ومهما أحتال خصومه في الخط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات في القرن الرابع ، وأنه رفع بجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدبين كانت تمضى طعمة الفقر والحول لو لم يمسها يمنه وإقباله ولم تعتمد على برد الوافر وساعده المتين ^(١) .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . وقارىء كتابنا يجد في غير هذا الفصل جوانب أخرى من الصاحب تتم شخصيته التاريخية التي كانت من أظهر الشخصيات في القرن الرابع .

٧- أبو بكر الخوارزمي

١ - وهذه أيضاً شخصية عظيمة من الشخصيات التي نهضت بالأدب العربي وشغلت الناس عدّة أجيال . والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذي يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه . وكذلك كان الخوارزمي فهو في نثره عقل قوى يمتاز عن العقول التي سبقتة أو عاصرتة . وليس معنى ذلك أنه يفوقها جميعاً . فهو دون ابن العميد في سمو الغرض ، ودون بديع الزمان في حلاوة التعبير ، ودون التوحيدى في وفرة الحصول ، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال والنبوغ الأدبي هو ذلك : فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ . ولكن يكفيه أن يكون ينبوعاً مستقلاً يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقدته إن حجب عنهم فيضه النير . وقد كان الخوارزمي شاعراً ، ولكن ديوانه ضاع . ولم يبق من شعره إلا القليل ، فمن الصعب أن نعطي القارئ فكرة عن حياته الشعرية ، وإن كان من السهل أن نجزم بأن خوله في الشعر كان أمراً مقضياً ، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار ، منهم الشريف الرضى والمتنبي والمعري وأبو فراس . على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره ، وأن شعره ليس بجيد وإن لم يكن برديء ، من ذلك قوله في بعض الأصدقاء :

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا	مقيماً وإن أعسرت زرت لماما
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه	أغبّ وإن زاد الضياء أقالما
وقوله فيمن يطلب الصهباء وهو بخيل :	
يا من يحاول صرف الراح يشربها	ولا يفك لما يلقاه قرطاسا
الكاس والكيس لم يقض امتلاؤهما	ففرغ الكيس حتى تملأ الكاس ^(١)

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمي غير رسائله فلنكتف بها في درس ماله من قوّة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ — لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمي ، أما موته ففيه خلاف ، فمن قائل أنه توفي سنة ٣٨٣ ومن قائل أنه توفي ^(١) سنة ٣٩٣ وسمى الخوارزمي لأن أباه من خوارزم . وقد أقام بالشام مدّة وسكن بنواحي حلب ثم انتقل إلى نيسابور فأقام بها إلى أن مات . وكان الخوارزمي معروفًا بقوّة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معاً ، وإنهم ليذكرون أنه قصد الصحاب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل إلى بابه قال لأحد حبابه قل للصحاب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن في الدخول ، فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصحاب قل له : قد أزلت نفسي أن لا يدخل عليّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر : إرجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال ، أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال الصحاب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي ^(٢) .

٣ — ومن الواجب أن نقف قليلاً عند هذه الكلمة إذ كانت تحتاج إلى نقد : أفكان ممكناً حقاً أن يجد الخوارزمي عشرين ألف بيت من شعر النساء؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عايف بكثرة الحفوظ؟ الظاهر أن في هذه الكلمة شيئاً من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدي في محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) إلى أن علماء اللغة وروايتهم لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى إن الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه في ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشي قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجيء فيها بواحدة لامرأة ، لا من الجاهلية ولا من الإسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من بني حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار في الوقت نفسه

(٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢

إلى أن المرزباني جمع أشعار النساء في كتاب حافل يوجد منه الجزء الثالث في دار الكتب المصرية بخط أندلسي قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة . وفي هذا دليل على أن الرواة شغلوا أيضاً بجمع أشعار النساء ، وإن كان لا ينكر أن حظ المرأة في الشعر العربي ضئيل ، حتى ليتمكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوماً إلى منافسة الرجل في الشعر ، وها نحن أولاء نعيش في عصر من عصور النهضة في اللغة وفي الأدب ، فأين الشواعر المجيدات ، ومك عددهن في هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شيء فقد كان لما حفظه الخوارزمي أثر كبير في أدبه فقوى أسلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعر فهم بضرب الأمثال .

٤ — أما حياته فأظهر مافيها حادثان : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنا غرامه بالنيل من المتنبي والغض من شعره ، فهجومه على المتنبي لم يكن إذن صادراً عن نزعة فنية تحذوه إلى كشف عيوب المتنبي ومساويه . ولكنه اندفع في ذلك ترضية للصاحب ابن عباد الذي كان يحقد على المتنبي لترفعه عن مدحه وإلشادته بابن العميد . وأشد ماعرف من هجاء الخوارزمي للمتنبي قوله في الرسالة التي كتبها إلى الحاجب أبي إسحق لما نكبه الوزير ابن عباد :

« ونظرت إلى أبي الطيب وإلى تناقض حكمته ، وتفاوت طريقي فعلته ، حيث قال في سيف الدولة :

لا تطلبن كريمة بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا

ثم قال في كافور الإخشيدي :

قواعد كافور توارك غيره ومن قصد البحر أستقل السواقيا

فلقد باع من الوفاً علماً خطيراً ، واعتاض من الطمع ثمناً يسيراً ، وحال ضباب الحرص والرجاء بينه وبين العهد والوفاء ، وكان يضايق نفسه في اختيار المتاع ، ويساعها في اختيار

البتاع ، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة ، على عرض من لا يساوى بعة ، ويزن كريمة من كرائم شعره ، إلى من لم تقم عنده كريمة ، ولم تعرف له قيمة ، لو رأى الطمع في جحر فأر لدخله ، ولو أتاه الدرهم من أست كلب لما غسله ، فلا جرم أن الناس كما استحسنا قوله ، استقبحو فعله ، وكما أعجبوا بشعره ، تعجبوا من غدرة ، يشكر ثم يشكو ، ويمدح ثم يهجو ، ويشهد ثم يجرح شهادته ، ويعطى ثم يسترجع عطيته . وكم من حر فضله ثم ثلبه ؟ وكم من عرض كساه ثم سلبه ؟ وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها^(١) .

٥ — وهذه الكلمة نص في أن الخوارزمي كان يعجب بشعر المتنبي ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال إلى حال ، وقد جرّه ذلك إلى التغنى بخلقه هو ، واحتفاظه بالود ، ووفائه بالعهد ، فقال « ولكن في قيص أبي بكر رجلا إذا أعطى لم يرتجع ، وإذا طلق لم يراجع ، وإذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم ، وإذا مدح لم يبطأ على عتب مديحه بالذم ، وإذا طيب فكيه بالمدح لكريم ، لم يلطخهما بمدح للثيم ، وإذا زوج كرائمه كفؤا حجبهن أن يتبرجن إلا لديه ، ويحتلين غير عينيه ، وإنما الغدر من أخلاق النساء ، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران وجذبها إلى شق النسوان^(٢) .

فالمتنبي مؤنث الخلق لأنه غادر ، والخوارزمي مذكر الطبع لأنه وفي !

هكذا حكم الخوارزمي لنفسه بالنبل ، وحكم على المتنبي بالخساسة ، لأن المتنبي يتغير ويتبدل ، أما الخوارزمي فلا يتلون ولا يحول .

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمي على بغيه الأثيم : فساءت الصلات بينه وبين ابن عباد فتحول عنه وشغل بدمه وقدحه بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه ، وأستطاع أن يرمى بمدوحه بمثل هذا السهم المسموم :

لا تحمدنّ ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى أخجل الديما
فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنح لا بخلا ولا كرما

وجرى في الناس ذكر الخوارزمي بالتقلب والتحول حتى قال فيه أحمد بن شبيب :
 أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
 مودته إذا دامت لخل فمن وقت الصباح إلى المساء
 وأنشد صاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم قيل لي نعم
 قفلت اكتبوا بالحص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم !

وقد اتصل الخوارزمي بكثير من الرؤساء، ولكننا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير إلى أن استقامة الخلق كانت نادرة، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثاني فيو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشؤم قضى عليه ، ويرجع السر فيه إلى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه ، والراغبين في إسقاطه^(١) وإلى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال في غرارة الصبا ، وغفلة الحدائثة ، وذلك أنه فطن إلى جانب الضعف فيمن يقودون الجماهير في ذلك الحين ، وهو غلوم في التشيع فأطلق بيكي القتلى من أهل البيت ، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك أجمع على الخوارزمي كيد أعدائه في نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فعاد وهو مقهور « وأنخذل انخذالا شديداً وانكسف باله وأنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره » كما قال ياقوت^(٢) .

وقد سبقت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكتاتيبين مجرى العتاب ، وهي رسائل جيدة تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يعد الحملة ويتأهب للنزال ، وكان الخوارزمي يقابل عتبه بأرق من النسيم في بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن ، وكلامه لين ولكنه خشن «أما قبحه فلا أنه عاتب بريئاً ، ونسب إلى الإساءة

من لم يكن مسيئاً ، وأما حسنه فلا لفاظه الغرر ، ومعانيه التي هي كالدرر ، فهي كالدينا
ظاھرھا یرغر ، وباطنھا یضر ، وكالمرعى علی دمن الثرى ، منظره بهی ، ومخبره وبی «
وربما أنشده :

یا بدیع القول حاشا لك من هجو بدیع
وبحسن القول عوّد تك من سوء الصنيع
لا یعبُ بعضك بعضا کن ملیحاً فی الجميع

وقد مضى الخوارزمي يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده إذا وردها صافية ، وأن
ثياب بره إذا قبلها ضافية « هذا ما لم يكدر الشريعة بتعنته وتعصبه ، ولم يخترق الثياب بتجنبه
وتسجبه » وهنالك يذكر الخوارزمي أنه لا يقول :

وإني لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن العشرة سلطان ،
ولكنه يقول : وإني لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهداً يعطى ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا إذا تجوزنا هذين الحادثين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل بأعباء الحياة
وجدناه يمشى متقل الظهر بطائفة من التكاليف تدل لها نفسه ويخرج بها كبرياءه ، ألسنا
نراه يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعاً في بره ، فيكون هذا عند ظنه ،
فيكتب إليه رسالة تحبب فيها هذه الفقرة التي تمثل بؤسه أشبع تمثيل :

« ومن أفتد إنساناً من الفقر ، وأنتشله من محالب الدهر ، وفكته من إسار العسر ،
فقد أعتقه من الرق الأكبر ، ونجاه من الموت الأحمر ، والرق رقان: رِق الملك ورق الهوان ،
والأسر أسران : أسر العدو وأسر الزمان » (١) .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل؛ فكتب الخوارزمي كتاباً جاء فيه :

« وأظن أني لو لقيتكم عليلًا لأنصرفت عنك ، وأنا أعل منك ، فإني بحمد الله تعالى جلد على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي ، ينبو عنى سهم الدهر إذا رمانى ، وينفذ فيّ إذا رمى إخواني ، فأقرب سهامه منى ، أبعد سهامه عنى ، كما أن أبعدها عنى ، أقر بها منى »^(١) .

وهذه الفقرة تمثله جلدًا صبوراً، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان إلا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور بأعباء الحياة أنطقه بالحكمة في تعليل الحزن، فهو من أسبق الكتاب إلى الإفصاح عن علل العواطف والشهوات، وإنه ليحدثنا بأن الإنسان حين يحزن للمصيبة تحمل بغيره ، إنما يحزن لأنه يرى بعينه أن سيكون له مثل ذلك المصير ، إذ كانت المآسى الإنسانية كأساً تدور على الجميع ، ولننظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء في شقيق له :

« ورد علىّ خبر وفات فلان فدارت بي الأرض حيرة، وأظلمت في عيني الدنيا حسرة، وملاً الوله والوهل قلبي وسواساً وفكرة ، وتذكرت ما كان يجمعنى وإياه من سكرى الشباب والشراب ، فعلمت أنه شرب بكاس أنا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف أرمى بها ، فبكيت عليه بكاء لى نصفه ، وحزنت له حزناً لنفسى شطره »^(٢) .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التي كان يعانها الخوارزمي بين أحداث زمانه جعلته يتشأم من صعبة من يقاسون إدبار الأيام : ويتفاءل بالتعرف إلى من ينعمون بإقبال الزمان ، وهو يرى « أن من تعلق بذيل المقبل أقبل^(٣) » ويرى كذلك أن « أيام الحنة موج من تطاها له تخطاه، ومن وقف على طريقه أوداه، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال فى أيام كرها هزمته^(٤) » وعنده أن « الإقبال يستر العيوب ، والدولة تجعل البعيد قريباً ، والجد يرى الخطيء مصيباً ، والمحدود يمس بيديه ، مالا يراه المحدود بعينيه » وكلتنا الإقبال والإدبار

يُجدهما القارىء في رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوساً من هذه الناحية ، وفي هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكم من عقل ضاع ، وكم من عبقرية أخذت وأفلت ، بانصراف الفكر العبقرى إلى مناصرة فئة تحتضر ، أو الدفاع عن فكرة تهم بالأفول . وفهم الخوارزمي للحياة على هذا النحو الدقيق أملى عليه الحرص على الحكمة يسديها إلى أصدقائه من حين إلى حين ، من ذلك قوله في سياسة النفس : « ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية ، وانحلع عن ربة الإنسانية ، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش ، لا أن يعيش لياكل ، وكفى بالمرء عاراً أن يكون صريع ما كله ، وقتيل أنامله ، وأن يخنى ببعضه على كله ، ويعين فرعه على أصله ، فكم من لقمة أتلفت نفس حر وكم من أكلة منعت أكالات دهر ، وكم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكم من عذوبة خلفها بشاعة الفوت . وكم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر ، وقطعت جسداً كانت تنبوعه السيوف البواتر ، وهدمت عمراً هدمت به أعمار ، وخربت بخراجه بيوت بل أمصار ... والمشتهى عاش لنفسه ، قليل البقيا على روحه ، وكيف يحفظ أصدقاءه ، من لا يحفظ أعضائه ، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤمن على من لا يؤمن على بعض منه » (١) .

٩ -- ولننتقل بعد أن ألمنا بشيء من حياة الخوارزمي ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكنون سره ، إلى فنه الذى عرف به فى إجادته الإنشاء ، ولذا ذكر أولاً أنه دلنا على فهمه لسر البيان ، إذ قال فى إحدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

« وإذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جاد ، وفى مدحك لاعب ، وأنى فى الشهادة عليك صادق ، وفى الشهادة لك كاذب ، فانظر إلى تهافت قولى إذ لا ينتك وجاملتك ، وإلى إصابتى الغرض وحرزى الفصل إذ كاشفتك وصدقتك ، وذلك أن الصادق مُعانٍ ومأخوذ بيديه ، والكاذب مخذول مغضوب عليه » (٢) .

فسر البلاغة عند الخوارزمي يرجع إلى الصدق ، وهذا دليل على أنه كان مأخوذاً بفنه مفتوناً به، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول إلى سحر البلاغة وسر البيان إلا إذا صدق ، وفي الصدق وحده سر العبقرية والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكلمين من الكتاب والشعراء الذين سخروا أقلامهم وعقولهم ، وابعوا ضمائرهم ونفوسهم ، ورضوا بأن يكونوا أبواقاً تردد أصوات الأمرين والناهين من أرباب الملك وأصحاب الجاه . وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جذوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعواطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال، وإذ ذاك لا يقوّم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجيل ، وإنما يقاس نبوغ الكاتب وتوزن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور ، وما تحمل من عناصر القوة الخالدة التي تجعل ربها أباً وأخاً وأستاذاً وزميلاً لكل من يبرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه وبينهم ظروف الزمان والمكان . فالصدق هو الهادي الأمين الذي يسير بنا في أودية الغرائز الإنسانية، فلا نعرف شر الزيف ولا نقاسى ضر الضلال ، وحين نصدق ونفنى في الصدق نتغنى وادعين بأحلام الإنسانية المبتوثة في ضمير الوجود ، فلا يغلق عنا سمع ، ولا يعزف عن أغانيها أحد من الموقنين ، وإنما تفتح لنا صدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيها ما صدقنا في الإيمان به من أصول الشر والخير ، والظلمات والنور ، والبر والفجور . فإن الحياة كما تعلم ، مجموعة من حلم الإنسان وجهله ، وضلاله وهداه ، والكاتب الإنساني هو الذي يصدق ويفنى في صدقه حين يواجه ما في الإنسانية من مشا كل عقلية ، وأزمات روحية ، وثورات نفسية ، ثم يتغنى بما في الطبيعة الإنسانية من نبيل وسماحة ورفق وجمال ، أو يصرخ مما فيها من شح ولؤم وجور وطغيان .

فأنا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولاً بالخير وحده لا يتغنى إلا به ، ولا يتحدث إلا عنه ، وإنما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقاً ، يتغنى بالخير حين يؤخذ به ، ويتغنى بالشر حين يفتن به ، وفي صدقه السر كل السر في فتح ما أغلق من

سراثر النفوس وضائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فمصيده إلى فناء ، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفاق ولا ينافق إلا الضعيف المحبول الذي لا يشعر لنفسه بوجود خاص ، ومن فقد شخصيته وأطمأن إلى الاعتماد على سواه فجدير به أن ييأس من أن يروى له قول ، أو يوزن له رأى ، أو يرجى لبهرجه بقاء .

١٠ - ونعود فنذكر أن الخوارزمي يضعف حيناً ويقوى أحياناً ، يسمو ويحلق حين يصدق ، ويهوى ويسفّ حين يمين . وليس ضعفه بمحتمل ولا مقبول ، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسجع ، فيبدو نثره الضعيف ثقيلًا ممجوجًا كالمراة الفانية حين تتزين وتختال . ومن ذا الذي يسيع قوله في وصف رجل :

« إذا ناظره العربي صار أعجمياً ، وإذا ناظره الأعجمي صار عربياً ، وإذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره ، وفارق فخره ، فهو رفيق الجود وخليه ، وزميل الكرم ونزله ، وغرة الدهر وتحجيله ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لا بل حضرة الأقوال والأفعال ، لا بل حضرة الرجال ، تنصب إليها موارد الرغبات ، وتنشد فيها خيول الطلبات »^(١) .

وأثقل من هذا ورود الجناس في قوله من كتاب إلى محمد العلوى :

« أذكركه وإن كنت لا أنساه ، وألقاه بقلبي وإن كنت لا ألقاه ، وأسأل الله تعالى أن يرينا سلامته سليمة ، وأستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شيء أحوج من السلامة إلى السلامة ، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة »^(٢) .

والحرص على السجع في مثل قوله : « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، ولا تمهل نفسك في شغل السبت إلى الأحد »^(٣) « فإن كلمتي السبت والأحد لم تقعا هنا إلا أبتغاء السجع .

والقارىء يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة في مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمي أنه حمل نفسه ما لا يطبق من التزام الصنعة والسجع في جميع رسائله ، حتى في الموضوعات التي لا تحتتمل التكلف ، فكان من الحتم أن يقع في مهاوى الضعف والإسفاف .

١١ — والخوازمي حين يجيد يسمو سموا عظيما ، ويقدم من صور الجدد والهزل ما يتمتع النفس ويطرب الروح . وقد نراه يمزج فيستخفنا الطرب ونقبل عليه بنفس لعب . وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يحترق شوارع القاهرة على ظهر حمار ، فقد أتفق للخوازمي أن شكوا وروده إلى بعض النواحي بعد ما قاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر إلى الآخرة وهو في الدنيا . قال : « وأول ما مر بي سوء الدخول على ظهر الحمار ، ومعاشرة الحمار ، على أن الحمار أيضا حمار ، إلا أنه قصير الأذنين ، يمشي على رجلين ، وتأنى كنت بين حمارين ، إلا أنى كنت بين جنسين » (١) .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره ، ومتنفس خاطره ، ومجال بصره ، ومدار فكره ، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس ، ونام في حاقها وجه صبيح ، وتقلب في أطرافها قد ملوح . إلى هنا يمضي الكلام فتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد ، ولكن الخوازمي يفاجئنا بأن بستانه ليس بذلك ، ثم يقول « وإنما أذكر بُقِيعَةً طولها باع ، وعرضها ذراع ، أعنى باع البقة ، وذراع الذرة (٢) ، وأقل من لا ، وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها ، أو دخلتها نملة لسدتها ، تسقى بالمسقط صباحاً ، وتنكت بالخلال مساء ، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين ، وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين » (٣) .

١٢ — ولكن أمثال هذه الفكاهات تمرّ كالطيف فيما ترك ذلك الكاتب المجيد ، فتلك فقرات تضيدناها من رسائله ، وهيئات أن يكون لثله طبع مرح وهو الذي قضى حياته يتعثر بين أحداث البؤس والهوان ، فالفكاهة حين تقع تحت سنّ قلمه لا تزيد عن

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا في كلام أبي الفتح بن العميد إذ قال : «وردت رقعة الشيخ أصغر من عنققة بقة ، وأقصر من أعملة نملة» (ص ٣٣٥ ياقوت و ٣٦ ثمار القلوب) . وقال الليكالي : كتابك أقصر من بقة ، وأصغر من بقة ، وأخون من درة ، وأخفى من ذرة . (ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة) . (٣) ص ١١

عبث الألفاظ ، وتظل نفسه خاملة لا تطرب ولا تجذل ولا تعرف سرّ الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا نستقي أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدّم لقرّائنا صوراً من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأشجاننا وأحزاننا ؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمي لم يكن من هؤلاء ، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيق ، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء ، وأما مهنة التعليم التي احترفها واكتوى بنارها وكابد ما تقضى به من التجمل والتوقر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التي جرت بينه وبين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم في الأغلب قوم ممن بسط الله لهم في الرزق ، واستطاعوا أن يغفلوا عنق ذلك الرجل بشيء من المال يقدمونه إليه ثمنا لعلمه وفضله . وتلك محنة تتصوّرها خطرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأثقالها أثراً في كبت ذلك الروح وحبسه في حدود الجدّ والرزانة ، وحرمانه من نسائم اللهو المباح .

١٣ — فإذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا إلى جدّ الخوارزمي وجدناه جدّاً رصيناً ينبئ عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأوّل ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجهه لأن يراه مما ينال اللثام ، وإنه ليذكر أن « البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله » وأنه يغار على الأدب الكريم ، من المتأدّب اللئيم ، وينشد في ذلك :

وأرثي له من موقف السوء عنده كمرثيتي للطرف والعلج راكبه

ويودّ أن يكون الأدب في جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر في أنياب الأسود ، ويتمنى لو بيعت الورقة بدينار ، أو كتب الدفتر بقنطار ، فلا يتأدّب إلا شجاع كمي ، ولا يجرز الدفاتر إلا جواد سخي^(١) .

وفي مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعاني آلاماً كثيرة من معاصريه ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده إلى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة إلى قلقه من بعض الطبائع الدنيئة التي يورثها العلم والأدب ألواناً من العظمة البغيضة والكبرياء المقوت ،

وهذا الصنف من الخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب إلى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير « لا تعلموا أولاد السفلة العلم » وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون إلى التحرش بالشخصيات الكبيرة ليم لهم ما يبتغون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجمون النابغين والعقريين طمعاً فى أن تذيب أسماؤهم ويعرفوا بصحة الفهم ، وقوة النقد ، وسعة الاطلاع .

١٤ - ويظهر أن الخوارزمى مازال يهاجم حتى وقع فى روعه أنه مغلوب . فله فقرات تشعر بجدله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه ، فقد طالب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب إليه فى الجواب :

« طلب الشيخ نسخة من رسائلى فرحباً بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصهر كرم أختانه ، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدى ، والقلم من بنانى ، والمداد من ماء أجفانى ، ولأملت هذه النسخة على السفرة البربرية ، ليكتبوا بيد العصمة ، ويخلدوه فى بيت الحكمة ، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه ، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه ، لحاسبت عليه بقلبي ولسانى أدق حساب ، وطالبت شيطاني بتهديبه وتنقيحه أشد طلاب ، ولقلت لخاطري دقق طرزك ، وجود بزك ، فإن المبتاع كريم ، والتمن عظيم ، وقد قيل : الراوية أحد الشعارين ، وأنا أقول الراوية أحد الشعارين » (١) .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب إلى رجل يرجو به وهو أبو العباس كاتب محمد بن إبراهيم ، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبي محمد العلوى : « إن قوماً أنا أصغرهم لكبار ، وإن أمة أبو ذر شرها خيار » (٢) .

ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأى اتهمينا إلى أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

ووزن فضله ؛ وهو في ذلك معذور لأنه كان يعيش من فيض قلمه وهي حالة جعلتنا نرى المتنبي في عظمته وكبريائه يبدو في بعض الأحيان وكأنه تابع ذلول .

١٥ — وللخوارزمي صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضاً بشعاً رهيباً ، مثال ذلك قوله في وصف بعض الولاة :

«ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمانة ، وسكارى سكر الثروة، ومتكثون على فراش العدل والنصفة ، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ، ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدرهم ، ويسير في بلادنا سيرة لا يسيرها السنور في الفار ، ولا يستخيرها المسلمون في الكفار ، حتى أفتقر الأغنياء ، وأنكشف الفقراء ، وحتى ترك الدهقان ضيعته، وجحد صاحب الغلة غلته، وحتى نشف الزرع والضرع ، وأهلك الحرث والنسل ، وحتى أخرج البلاد ، بل أخرج العباد ، وحتى شوق إلى الآخرة أهل الدنيا، وجب الفقر إلى أهل الغنى ، وحتى لقب بالجراد ، وكنى أبا الفساد ، وحتى صار الدرهم في أيامه ، أقل من الصدق في كلامه ، وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أفعاله . فليتته إذ أوحش الرجال ، حصل المال ، وليته إذ ضيع المال ، أرضى الرجال، ولكنه حرم الاثنين ، فأفلس من الجهتين ، ووالله ما الذئب في الغم بالقياس إليه إلا من المصلحين ، ولا السوس في الخبز في الصيف عنده إلا من المحسنين ، ولا الحجاج بن يوسف الثقفي في أهل العراق إلا أول العادلين ، ولا يزدجرد الأثيم في أهل فارس بالإضافة إليه إلا من النبيين والصدّيقين ، ولا فرعون في بني إسرائيل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقرّبين » (١) .

١٦ — وفن الخوارزمي يظهر جيداً في هذه الصورة ، فقد وازن بين الحالتين : حال الأمن وحال الخوف ، وقابل بين الخطتين : خطة العدل وخطة العسف ، فأشار إلى أنهم كانوا قبل ورود ذلك الوالى في سكر الغنى وغفوة الأمان ، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين ، فلما قدم ذلك الوالى أذهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف ، وفي قول الخوارزمي « حتى افتقر

الأغنياء ، وانكشف الفقراء « دقة بالغة ، فإن انكشف الفقراء غاية ما تصل إليه البأساء والضراء ، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر ، وتسدل عليه أبواب الحياء . وحين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة إلى غنى أفقر ، وإلى فقير ذل وخنق ، فهناك البؤس الجائر ، والهول المبين . وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان في الشكوى من قاض ظالم « وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود »^(١) . وفي مثل هذا التوافق دليل على أن كتاب ذلك العصر يبالغون في بعض التعابير ، وأنهم كانوا يميلون إلى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان . وقوله « حتى صار في أيامه أقل من الصدق في كلامه ، وصار الأمن في أعماله أعز من السداد في أفعاله » من العبارات الجميلة لولا أنه تريد لما وقع من مثل هذه المقابلة في شعر المهجاء . وذكر الحجاج ويزدجرد وفرعون في الحديث عن الظالمين ليس بمجديد ، ولكنه ورد في صورة مقبولة تشعر بأنه كان يحسن استغلال ما ورد على السنة الأقدمين .

١٧ — وللخوارزمي رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح ، ولكنها نجد فيها كلمات قلقة نابية هي أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع ، كقوله في خطاب تلميذه :
« كتابي هذا ولو أستقبلت من أمرى ما استدبرت ، وقدمت من رأبي ما أخرت ، لما مضى فينا الفراق حكمه ، ولا أنفذ فينا سهمه ، ولأقمنا جميعاً أو رحلنا معاً . وإني لأظلم الفراق إذا شكوته ، وأتعنف الدهر إذا هجوته ، وييدي ضرباني ، ومن سهمي رمياني . فأنا كالقاطع يده بيده ، والفاجع نفسه بنفسه ، ومطرق الفراق إلى قلبه ، ومتجرع غصص البين وكر به »^(٢) .

والفقرتان الأخيرتان تكرر ثقيل . والمعنى كله مأخوذ من أبيات حورها الخوارزمي . وهي في الأصل الذي أثبتته القالي :

تطوى المراحل عن حبيبك دائماً وتظل تبكيه بدمع ساحم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تشكو الفراق وأنت عين الظالم

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان . (٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمي .

الآأقت ولو على جمر النضا قبت أو حد الحسام الصارم

ويقول الخوارزمي في هذه الرسالة يصف الأيام الماضية: «كانت أرق من حاشية البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند^(١)، بل من النقد، وأعقب من الورد، وما أردت إلا ورد الخد، بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد البعد، ومن الوصل في أثر الصد، بل كانت أرق من نسيم الزهر، في السحر، ومن قضاء الوطر، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكرى، أو نهار الحيارى»^(٢).

وهذه تعابير كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف.

١٨ — بقى أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمي في جده وهزله فلسفة خاصة يقف عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهم الخوارزمي للحياة كان واقفاً عند حدود أغراضه ومآربه ومطالبه الشخصية . وكان فنه وفقاً على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه ، فليست رسائله في جملتها إلا شذرات من المدح والعتاب والأستعطاف والهجاء . وهذا أخطر مقتل في ثلاث الرسائل التي تعد من ذخائر الأدب العربي ، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير من المتأدين ، فإنه لم يهب شطراً من منشوره في الدفاع عن فكرة فلسفية ، أو نزعة وجدانية ، ولم يرفع الأدب إلى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص ، ولم يسم به إلى سماء من سموات الفن الخالص الذي ينسينا آصار المادة وينقلنا إلى عالم الآرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمي أنه أشعرنا بوجوده ، ووقفنا بجده أمام شخصية قوية لها في الحياة مطامع وأهواء ، ولها في عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب ، ونحن لا نستقل هذا ، ولكننا لا نكتفى به فإن الزعامة الأدبية مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق والجمال .

١٩ — ولقد أنحاز الخوارزمي إلى مذهب الشيعة ، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه . وفي صف هذا المذهب وقف وقفة مخيفة دللتنا على أنه رجل جِلاد ونضال ، ولكنه لم يشعرنا بحب ذلك المذهب ، ولم يسكب في روحنا قطرة من الخنان نحو من بكاهم من الشهداء : لأنه كان يشوب تشيعه بالحقّد الأسود على بني أمية وبنو العباس . ونستطيع أن نقول إنه في هذا الموضوع كان داعياً صادقاً إلى فكرة لها قيمتها في الحياة الإسلامية ، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشّر في زمرة المجاهدين في الحياة السياسية ، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهتات حين عرض للخلفاء في ألقاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى في أرحام القيان^(١) .

ومن الحق أن نقرر أن الرسالة المطولة التي بعث بها إلى الشيعة في نيسابور تبدو لمن يقرأها وكأنها صاعقة تصب على رءوس من عادى من الرؤساء ، وفي هذه الرسالة يبدو الخوارزمي وهو أزرق الناب مسموم اللعاب ، كالحية التضناض . وفيها كذلك يبدو طيبة وخبثه ، وكرمه ولؤمه ، وشهده وصابه ، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول : « فإن أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعودناه ، وإن رجعت لنا دولة فذلك ما قد انتظرنا ، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة ، ولكل مقامة مقالة : فعند الحن الصبر ، وعند النعم الشكر »^(٢) . وهو تارة متحزن حقود يعدد آثام الخلفاء من بني أمية وبنو العباس ويذكر ما أقرّفوا من الجرائم في تقريب المغنين ، وإقصاء الفاطميين ، وله في ذلك لدعات مسمومة يعفّ قلماً عن تفصيل ما انطوت عليه من خبيث الذم وفاحش الهجاء .

٢٠ — ولا يفوتنا أن نشير إلى أن في تلك الرسالة إشارات إلى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة : فقد لوح إلى أن هناك أشعاراً وضعت بعد الإسلام على السنة الجاهلية معارضة لأشعار المسلمين ، ورواها مثل الواقدي ووهب بن منبه التميمي ومثل الكلبي والشرقي بن القطامي والهيثم بن عدى ، وهو بهذا ينص على أن أشعاراً وضعت للحط من عليّ بن أبي طالب ، وعرفنا

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَنْ قُطِعَ لسانه ومُزِقَ ديوانه فضاء شعره وهو عبد الله ابن عمار البرقي فصار لذلك من الشخصيات المجهولة في تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضاً أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البختری ومروان بن أبي حفصة الأموي وعبد الملك ابن قُرَيْب الأعمى وبكار بن عبد الله الزبيرى وأبا السمط بن أبي الجون الأموي وابن أبي الشوارب العبشمي ؛ هؤلاء جميعاً كانوا متهمين بالتحامل على آل أبي طالب (١) .

وهذا كلام ليس جديداً في ذاته فقد أشار إلى مثله كتاب التراجم ، ولكن وروده على لسان الخوارزمي مضافاً إلى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها في تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين ، ويدعو إلى الاحتراس مما نسب إلى كثير من المتقدمين .

٩ - قابوس بن وشمكير

١ - في سنة ١٣٤١ هـ ، نشرت المطبعة السلفية كتاباً صغيراً اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربية ببغداد ، فمن الواجب في رأس هذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتي الفاضلين نعمان الأعظمي ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكال البلاغة هذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعالي قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٩٣ - أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتاب القرن الرابع ، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عدّه ابن شهيد ضريعاً لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطائع لله «شمس المعالي» . ولكن فتنة نشأت في الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيه فخر الدولة في السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن أنهزم فخر الدولة ولجأ إلى قابوس فأكرمه ورعاه ، فأحفظ ذلك عضد الدولة الذي أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ وفر قابوس لاجئاً إلى خراسان . و بعد سنتين أستطاع فخر الدولة أن يعود إلى ملكه وكانت بلاد قابوس في جملته ، ففكر قابوس في الاستفادة من هذا الظرف ، ولكنه موطن لنية كان يحفيها الوزير ابن عباد . فلما توفي فخر الدولة سنة ٣٨٧ أعد قابوس حملتين عسكريتين واسترد ملكه سنة ٣٨٨ ، ولكن عصره كان مملوءاً بالقلقل والاضطرابات فاتتهى الأمر بخلعه وتولية ابنه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذي أكرهه على الفرار إلى بسطام حيث قضى نجه هناك .

٢ - كان قابوس من الملوك الأدباء ، وكان للظروف القاسية التي عاناها في حياته السياسية أثر بليغ في طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع الحزن الذي يغلب على شعره ونثره . وهو يذكّر بالمعتمد بن عباد الأندلسي ، فكلاهما بكى ملكه وحظه ومجده ، ولننظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجه منها حائراً كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى وأصبح جمعى فى ضمان التفرّق
فقد بقيت لى همّة ما وراءها منال لراج أو بلوغ لمرتقى
ولى نفس حر تأنف الضيم مركباً وتكره ورد المنهل المترقى
فإن تلفت نفسى فله درّها وإن بلغت ما أرتجيه فأخلق

وله هذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدبين وقد وصلت إلى أغلب الجماهير لعناية المؤلفين باختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر عيّرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ وتستقر بأقصى قاعه الدرر
فإن تكن نشبت أيدى الزمان بنا ونالنا من تمادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضاً هذه القطعة يعرّض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأغرتهم بعد هوان :

بالله لا تنهضى يا دولة السفلى وقصرى فضل ما أرخيت من طول
أسرفت فاقصدى، جاوزت فأصرفى عن التهور ، ثم امشى على مهل
مخومون ولم تخدم أوائلهم مخولون وكانوا أرذل الخول

وبمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستثير موتى فأحس منها فى الفؤادى ايبيا
لا عضو لى إلا وفيه صباية فكان أعضاء خلقن قلوبا

٣ — أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الإنشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقة جداً لا يدرك كتبها إلا الفحول . وقد عنى بدراسته من المتقدمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله ما سماه « كمال البلاغة » ودراسة اليزدادى لنثر قابوس جديرة بأن يعود إليها الأدباء بالنقد والتحصيل ، لأنها مكتملة لأنواع البديع : فقد استخراج منها أنواعاً لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيما فُتس من كلام الفصحاء ، ثم تولى تسميتها بما شا كلهما من النعوت ، وهي أربعة عشر نوعاً . منها المَجْنَح كقوله :

« صام عن جواب ما نفذ إليه ، ونام عما لزمه في حق الاعتماد عليه » .

وسماه مجنحاً لأنه شبهه بشيء له جناحان من قِبَل أن في أوله سجعا وفي آخره سجعا وبينهما واسطة . فكلمة (صام) في أول القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) في أول القرينة الثانية .

ومنها الممثل كقوله :

« ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول » .

وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

« أين الطبع الذي هو للصدود صدود ، وللتألف ألوفٌ ودود » .

وسماه كذلك لأن اسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض ،

فالصدود وصدود من جنس واحد ، والتألف وألوف من جنس واحد .

ومنها مشابهة الصور كقوله :

« إذا حالف ، فأحسبه قد خالف ، وإذا أعار ، فأحسبه قد أغار » .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات في الخيط : فخالف وخالف في صورة واحدة ،

وكذلك أعار وأغار .

واليزدادى مفتون فتنه مطبقة بنثر قابوس ، وانظر كيف علق على قوله :

« قد خلد ذلك في بدائع الأخبار ، وكتب بسواد الليل على بياض النهار » .

فإنه يقول : (هذا كلام لا أعرف في جودة صنعته وغرابة معناه كلاماً : لأنه مثل

سواد الليل بالمداد ، وبياض النهار بالقرطاس ، وهما شيئان ليس لهما نظيران في البقاء ، وهذه

القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق ، وصنع في تأليف الكلام دقيق ، وليس مما يسمح به

طبع الكتاب وتوفي به قرأتهم، فإني قد أجلت الفكر في عدة ألفاظ رائية الأواخر فلم أجدها ما يقع موقعه في الوفاق . وكان ما أتى وحضر في غاية النفور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع^(١) .

وفي مكان آخر يقول :

« وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به لإعجازها ، ولأنه كلام مباين ، في الفصاحة والعدوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام المعهود الجارى على السنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والإدراك الطباعى ، بل هو إفاضة القوة العلوية»^(٢) .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقاً من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق اليزدادى على تقرير أن هذه الأربعة عشر نوعاً من البديع لا توجد في كلام غير كلام قابوس . فهى فى جملتها ترديد للصنعة التى عرف بها المتقدمون . وكل ما تمتاز به هو شدة الأسر ، وأطراد الفن فى جميع أجزائها بحيث يمكن إن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها: هى أن نقاد الغرب اليوم يأخذون على كتاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا ما يجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلاً قول الثعالبي فى الزوزنى الكاتب :

« يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس » .

فإن هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حلت ما فيها من أستعارة لأعيانك الأمر وضاق بك المجال . وهى فى جملتها شعوذة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية فى الحسن والرواء .

وقول الثعالبي أيضاً فى أبى الفرج البيضا :

« له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت ، بل حب النعام » .

فإن الانتقال من هذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عند الكاتب أنه عرض ما مرّ بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن نقد رسائل قابوس من هذه الناحية وجدناه يخلق أحياناً ويسفّ حيناً . فمن المستجاد له هذه العبارة :

« ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول » .
فإن الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن أنظر قوله في وصف نثر ابن العميد :
« ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لما قابلت بصفيري زئيره ، وما ساجلت ببعيبي جريره »^(١) .

فإن الربط بين هذه الصور صعب ، لأنه قابل بين المنسم والسنام ، ثم أنتقل فقابل بين الصفيير والزئير ، وأبعد من هذا انتقاله في قوله « وما ساجلت ببعيبي جريره » فإن القارئ يحتاج إلى تأمل وتفكير في تصوّر هذه القرينة الأخيرة ، إلى أن يتاح له من يفهمه أنها إشارة إلى البعيث وجريه من بين الشعراء .

ويستجاد قوله :

« حتى يشمر ما أزهى من القول ، ويمطر ما أنشأ من سحب الفضل »^(٢) .

لأن الزهر والثمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه في عالم الوجود . ولكن أنظر قوله :
« الدنيا شجرة ثمرتها النوائب ، وبيضة مضمونها العجائب » .
فإن الانتقال من الشجرة إلى البيضة شطط غير مقبول .

ويستجاد قوله :

« أمن صخر تدمر قلبه فليس يلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يميّله الإعتاب ، أم من صفاقة الدهر محنّ نبوءه فقد نبا عنه غريب كل حجّاج ، أم من قساوته مزاج إبائه فقد أبى على كل علاج »^(٣) .

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات ، ولكن أنظر قوله :

« فأما ذلك المهم فما أحرأه بأن يلجم فيه مسرج وعده، وينتج بالنجح ما ضمنه نسج يده»^(١)
فإن هذه الأخيلة قليلة الائتلاف .

٧ - ومن الحق أن أقرّر أنني أجد صعوبة في البحث عن مقاتل هذا الكاتب الفنان،

فأكثر صورته وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التألف والاتساق . ويعجبني قوله :

« فن أين للضباب ، صور السحاب ، وللغراب ، هوى العقاب »^(٢) .

وقوله :

« ولم لا يستردّ غازب الرأي فيعلم أنه ما لم يعاود الصلة مأفون ، ويستعيد غائب الفكر فيفهم أنه ما دام على الفرقة مغبون ، أظنه يقدر الاستغناء عنى هو الغنى والغناء، ولا يدري أن الالتواء علىّ هو البلى والبلاء، ويخال أنه مكتف بجاهه وعرضه، ولا يشعر أنى كلُّ لبعضه ، وطول في عرضه ، وأن قوّة الجناح بالقوادم والخوافى ، وعمل الراح بالأسنة والعوالى»^(٣) .

وله أحياناً مبالغات يظهر فيها الغلو والإسراف ، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليها

نسمة من القبول . وإليك قوله :

« بل كيف يهونّ من لو شاء عقد الهواء ، وجسم الهباء، وفصل تراكيب السماء، وأنف بين النار والماء ، وأكند ضياء الشمس والقمر ، وكفاهما عناء السير والسفر ، وسد مناخر الرياح الزعازع ، وطبق أجفان البروق اللوامع ، وقطع السنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم صوب الغمام نظم الفريد ، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء النازل ، وعرض الشيطان بمرض الإنسان، وكحل^(٤) الحور العين بصور الغيلان، وأنبت العشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار»^(٥) .

(٣) ص ٥٦

(٢) ص ٧٧

(١) ص ٨١

(٥) ص ٥٥

(٤) لعل الصواب (مثل) بالتشديد .

٨ — وهذه القطعة التي نعدّها من المبالغات والتهويلات ، ألا تدلنا على شيء؟ إنها لتدلنا على أن الإنسان كان يحلم منذ أجيال بالتحكم في الأرض والسماء ، والماء والهواء . إن هذا الكلام الذي نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس ، أو قاله ملك إنجلترا اليوم ، لما رأى الناس فيه شيئاً من الغلو والإسراف . فقد أستطاع الإنسان في هذا الجيل أن يكمد ضوء الشمس والقمر ، وأن يسخر الهواء ، وأن يؤلف بين النار والماء ، وأن يسد مناخر الرياح ، وأن يطبق أحفان البروق ، وأن يبدل الطبائع من حال إلى حال . وقد ألبس الليل ضوء النهار ، ولم يبق إلا أن ينبت العشب على البحار .

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صوراً عجيبة من أحلام الإنسانية . فهذا الطيران الذي أصبح قوّة القوى في هذا العصر كان حلاماً يتردّد كثيراً في أخيلة الأقدمين ؛ فقد تصوروا لسليمان بساط الريح ، وقدّروا أن سيكون في الجنة طيارون ، ولم يتمثلوا الملائكة إلا بمجنّحين ، لأنهم كانوا يرون القوّة الكاملة في أن يطير الإنسان من أفق إلى أفق ، ومن قطر إلى قطر ، كلما بعثته الدواعي وأهابت به الظروف .

فما نراه مبالغة في كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الإنساني الذي قدّرها ما ينتظر له من البأس والقوة في عالم الوجود . ولننظر كيف يقول في نفس الرسالة التي اقتطفنا منها القطعة السالفة :

« كيف يزهد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده ، وتبع مراده ، ينظر أمره ليمثل ، ويرقب نهيه فيعتزل ؛ وكيف يهجر من تضاءلت الأرض تحت قدمه ، وصارت في الاقياد له كخدمه ؟ إذا رأته منه هشاشة أعشبت ، وإن أحست منه بجفوة أجدبت ؟ وكيف يستغنى عن خيله العزمات والأوهام ، وأنصاره الليالي والأيام ، فمن هرب منه أدركه بمكايدها ، ومن طلبه وجده في مراصدها ؟ وكيف يُعرّض عن تعرض رفاهة العيش بإعراضه ، وتنقبض الأرزاق بانقباضه ، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهل هلال الجد إذا تهلل ؟ وكيف يزهي على من تحقر في عينه الدنيا ، ويرى تحته السماء العليا ، قد ركب عنق الفلك ، وأستوى على

ذات الحُبْك، فتبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته الحجر، وأثرت بماثره أوضح الثرى»^(١).

وإني لأتظن أن يحقق الإنسان الحاضر جميع الخيالات التي مرت بذهن الإنسان العابر، فقد كان الإنسان يضيف إلى الجن جميع القوى التي تعجز عن إدراكها وسائله المادية، ونظرة في كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، ترينا أن الإنسان كان يضيف إلى الجن أعمالاً غريبة معقدة هي اليوم أسير ما يأتي به الإنسان في أعوام الحروب. وستتبدل تبعاً لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان، فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتسمى أكثر المبالغات تعابير عادية لا شطط فيها ولا جوح. وسينتظر أن يكون للإنسان الحاضر أوهام جديدة، وخيالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التي يتصورها الإنسان الحديث. ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود، فقد تشبث الإنسان بهذا الحلم في جميع أدواره التاريخية، وعن عليه أن تكون أيامه في هذه الدنيا هي كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تناسخ الأرواح الذي تعلق بأهدابه الأقدمون لإتعزبه لهذا الإنسان الفاني الذي يزعبه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات. وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الإنسانية فقررت في ثقة مصحوبة بالرفق والعطف أن سيكون للإنسان حياة أخرى هي أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأن سيكون له جنة ونعيم، وروح وريحان. ولا أكنتم القاريء أنني أعجب كيف يعيش الناس في بعض أنحاء الصين في ظلال المعتقدات الجافة التي تنذر بأن لا حياة بعد الموت، وأن لا رجعة للإنسان بعد فراق ديناه.

إن الإنسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الآثار المادية والمعنوية التي يفنى الناس فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود. والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاءهم في أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخيروالبر إلى ملكوت السموات ، عليهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إنى لأذكر، وأنا أكتب هذا، أن دنونزيو شاعر إيطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تخلق في الأجواء ، ولم ذلك ؟ لأن الشاعر الذى يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الإنسانية التى حولت الأحلام إلى حقائق، ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولاندرى كيف يكون شعور الإنسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هى الأمنية الباقية التى يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفة من المخترعات التى يتمتع بها الناس والتى صارت مألوفا لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب . وإن كشف أسرار الكهرباء ليشر بمستقبل عظيم جداً للإنسانية ، فقد يكون ما وصلنا إليه قشوراً من المعارف الأولية فى هذا الباب . فليت شعرى كيف يحيا الناس بعدنا؟ بل ليت شعرى كيف عاش الناس قبلنا، وكيف كانت علوم الفراعنة يوم بنوا الأهرام؟؟ .

فى اللحظة التى أكتب فيها هذه الملاحظات أفاسى بعض الألم فى الأمعاء، ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت فى قصر حياتى على طائفة من الأعمال الأدبية التى لا تقدم الإنسانية إلا بمقدار ضئيل ، ويزيد وحشتى كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج إلى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبدأوته، ويعرف كيف فضل السلام، وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء ، لا قذائف إفناء . وليس أمأى إلا هذا الأمل الصغير : وهو أنى سأعود إلى العالم عن طريق الذكريات ، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلنى به، وشغل معى جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ - ونعود بعدها فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة فى أكثر ما يكتب ،

حتى فى الموضوعات الفلسفية .

وللقارىء أن يسأل : أ كان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالسجع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه في العالم ، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذى يقضى بالإنسان إلى الفناء ، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم القانى إلى عالم خلود . وأنظر كيف يقول :

« إنا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ... ولو لم يكن لنا هذا التدرج والممارسة للمشاهدات ، ثم القياس بها على الغيبات ، لكنا نأبى قبول قول واصف لحيوان ما على صورة مخالفة لمعهدنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التى شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه أن كون ما وصفه جائز ، وغير مدفوع أن تأتى القدرة من البارئ بحيوان لم نشاهده فى صورته الخاصة به . فجأز على هذا القياس أن تحدث قدرة البارئ جل جلاله صنعاً آخر زائداً على الصنع الأول فى الشرف والكمال ، فلا توجد فى شىء من أحواله حال تنافى الاستقامة ، وتباين الحكمة ، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء ، منزها عن الزوال والانقضاء »^(١) .

وفى رأى قابوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة البارئ عز شأنه ، ولا ينبغي أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف ، وفضيلة كمال : « هلا فعل ذلك فى الأول ؟ » لأن الفعل كلما كان المستأنف منه أشرف مما سلف ، والأخير خيراً مما سبق ، كان أدل على قدرة الصانع ، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فنأمل تقلبات العوالم المختلفة نشأتها البعيدة إلى وجودها الحاضر . ولكن رويداً ، فأنأ أكتب هذا فى غرفة مغلقة النوافذ ، مسدولة

الستائر ، لا يهدينى فيها غير الكتاب والمصباح ، وليس لدى من وسائل التحقيق غير الخيال . ومع هذا فليسمع القارىء إن شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلاً : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هي قارة ، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت ، فإن هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها انفصلت من أفريقيا في عهود ما قبل التاريخ، فهل يدرى القارىء فى كم مليون من السنين كونت الطبيعة بؤغاز موزنبيق ؟ وهل يعرف فى كم أمد من الآماد استطاعت الطبيعة أن تكون لمدغشقر وجوداً خاصاً بحيث تفرق فى حيوانها ونباتها عن أفريقيا بعض الأفتراق ! إن مدغشقر تحتص بنوع فذ من أنواع الغربان ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر ، أبيض الصدر ، كأنه يستعد لحفلة ساهرة ! فى كم جيل شاب ذلك الغراب الذى جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطور المبطوء جداً الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المترامى الأطراف ، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحول بها الموجودات من وضع إلى وضع ، ومن حال إلى حال ، فى مدى ما لا نعرف ولا نقرض من طوال الأجيال . إذن فلنسمح للانسانية أن تحلم بأن سيكون من نتائج هذا التطور أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود ، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ — وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هى تقديره لنفس الحيوان ، فعنده أن قوة الفكر والتمييز كامنة فى جميع الحيوانات ، وما من أجناس الحيوان جنس إلا وقد أعطى منها قدر ما كفاه فى طلب المعاش ، والاحتراز من المضار والآفات . وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من ابتداء كونه إلى انتهاء سنه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجاً إلى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة ، ثم ما كان مكتفياً بحوله وقوته فى دفع المضار عن نفسه وحرمة ، ومستغنياً فى تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين ، ثم ما كان أصدق وفاء وخلة لما عرفه وشاهده ، وألفه واعتاده ، ثم ما كان بجبيلته وخلقته

نظيفاً لا يحتاج إلى الاغتسال بالماء ، ولا إلى التزين بزينة متخذة من خارج ، وإنما يغنيه حسن شعره في مختلف ألوانه ، وأنوار ريشه في صنوف أصباغه ، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب ، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمدته على طبع واحد : لا يتبدل حالاً بحال ولا يتغير بين غدو وأصال ... وما أبعد نظر قابوس إذ يقول :

« كل هذا الذي ذكرته من الأوصاف الجميلة ، والخصال المرضية ، في سائر الحيوان موجود ، وفي الإنسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلاسفة والهندسة ومعرفة أفلاطون وأرسططاليس ، وفيثاغورس واندقليس ، وأرشميدس و بطلميوس ، وهرمس وواليس ، فلا العالم به ينال من العمر من يداً ، ولا الثمى يصير به سعيداً ، وكفى شرفاً وفضلاً بالبهائم ، أن يعر الأطباء طب لهذا الحكيم العالم ، وما يتولد في أحشاء بعضها من الحجر ، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم ، والإنصاف في الناس معدوم »^(١).

ولقابوس آراء في الفلك والنجوم هي صورة لمعارف أهل عصره في هذا العلم ، يضيق عن نقدها المجال ، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك ، والعلم يمضي بأقدام راسخة في تحقيق أوهام الأولين ، وفوق كل ذي علم عليم^(٢).

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما في آراء قابوس إنكاره للتكنية : فهي عنده منقصة للآباء . ومن رأيه أن التكنية رسم حدث في أيام ملوك العجم إذا كانت عندهم رهاً عن العرب فكان يقال إذا زار أحد الآباء ابنه : جاء أبو فلان وأبو فلان ، أى أن هذا والد فلان ، وذلك والد فلان (يعرف ولد كل رجل بأبيه ، فلا يعترض الاشتباه فيه ؛ فلما دارت الأيام على ذلك ، صارت هذه النسبة رتبة لأولئك) ويضيف قابوس إلى هذا أن التكنية « ترتب برتبة أهل الذمة ، واستعمال لرسوم تلك الأمة . وقبيح سجع بالنسبين ، أن يكونوا بمئاتهم متممين » أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية - كما يرى قارىء كتابنا هذا - صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى نكاد نجزم بأن لكل كاتب كنية ، والكنية هي التي ميزت بين الحسن بن عبد الله العسكري والحسن بن عبد الله فهما متساويان في التسمية ونفرق بينهما الكنية : فأحدهما أبو أحمد ، وثانها أبو هلال .

= ومن المحتمل أن يكون رأى قابوس محيحا في أصل التكنية ، ولكن لامرية في أنها صارت عادة عربية . فإن الجاحظ يحدثنا أن كل من اسمه على صار يكنى بأبي الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبي حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١) ويحدثنا ابن النديم أن عبد الله ابن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو ، فلما أسلم اكتنى بأبي محمد (الفهرست ص ١٧٢) وابن أبي الحديد يخبرنا أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بني ساسان لم يكنها أحد من رعاياها قط ولا سهاها في شعر ولا خطبة وإنما حدث هذا في ملوك الحيرة وأن جفاة العرب لسوء أدبها وغلظ تركيبها كانوا إذا أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .

والكنية مألوفة في شعر العرب قول الفرزدق :

وقد تلتقى الأسماء في الناس والكنى كثيراً ولكن ميزوا في الخلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له ولد . من ذلك قول أبي صخر الهذلي :

أبي القلب إلا جها عامرية لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد الناس في العصر الحاضر ، وأهل مصر يكون الرجل أحياناً باسم

أبيه لا باسم ابنه فيقال «أبو عبد السلام» لأن الولد اسمه «عبد السلام» .

وجرت التكنية مجرى التثنية في مصر : فكان السيد أحمد عبد الخالق السادات رحمه الله

يكنى مردييه في ليلة من ليالي رمضان في غرفة خاصة تسمى بهذا «أم الأفراح» وكان المريدون

يفرحون بكنائهم أبلغ الفرح ، وهو تقليد يدل على أن الكنية كان لها في ذلك البيت معنى من

معاني التثنية .

فإن صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الندمة فإن انتقالها إلى

الجو الإسلامي في هذا الوضع الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعاني في كل شيء .

وما أكثر ما تتلون الألفاظ والأوضاع باختلاف الأجيال .

١٠ - أبو اسحاق الصابى

١ - تلك شخصية جذابة امتُحِنَتْ بالحوادث ، وعرفت أسرار الناس وصرُوف الزمان فقد كان من حظ الصابى أن رأى الأيام فى إقبالها وإدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعيم : فكان لذلك أثر فى صفاء نفسه ، ودقة حسه . والحظ الذى يعطى ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ المواتى الذى تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابى صفو الحياة حين تولى الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة ببغداد واعتقله فى سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أرجل الفيلة لولا شفاعته الشافعين ، وظل يعاني أحداث الأيام إلى أن توفى فى شوال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ - وأول ما يلفت النظر من أخلاق الصابى أنه كان رجلاً ألوفاً حلو الشمائل بليغ التأثير فى أنفس معاصريه . كان صابئياً ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فامتنع ، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل - والصابئون يجرمون الفول والحمام^(١) - ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الإسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه ، ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسن قلمه^(٢) . وفى هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم الذوق ، كريم الطبع ، تجافت نفسه عن معاداة الإسلام وترفع قلبه عن إضمار البغض للمسلمين . وفى حفظه القرآن كفاية لعصمة روحه من ضرر الشرك وقبح الزينغ ، فإن القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية فى حمل حافظه على الأنس به والخضوع له والتسليم بما يدعو إليه من صدق الإيمان . والصداقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

(١) ص ٣٢٤ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٢٦ ج ١ ياقوت .

روحاً إسلامياً عالياً يسمو بلطفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم في ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة إلى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابي للمسلمين ، لولا أنى أرى فيها مظهراً كبيراً من نبل النفس ، وعظمة الروح ، فليس باليسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التي يوجبها اختلاف العقائد ، وليس من السهل أن يصل الرجل إلى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجل من أن يعادى ويراه لذلك جديراً بالحفظ والإجلال .

٣ — وقد جوزى الصابي على هذا الرفق أجمل جزاء ، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف في عصره ، وأصدق شاعر أفصح من نوازع الوجدان . ومهما قدرنا الظروف التي جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابي وافترضنا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسى الذى جعل من الصابي نصيراً للشريف^(١) فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابي وكرم نخيخته وطهارة قلبه أكبر الأثر في التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكفى أن يعرف القارىء أن الشريف الرضى بكى الصابي حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره ، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتاً ، وهى فى طولها محكمة النسيج ، جيدة السبك ، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق .

ومن الخبير أن نشير إلى أن الرضى صور فى تلك القصيدة جانبين من أهم الجوانب فى بكاء مثل ذلك الفقيد : الأول حزنه لفقده ، والثانى نكبة الأدب فى ذلك القلم البليغ . ولننظر كيف صور حزنه وتفجعه فى قوله :

بُعداً ليومك فى الزمان فإنه	أقذى العيون وفَتَّ فى الأعضاء
لا ينفد الدمع الذى يبكى به	إن القلوب له من الأمداد
أعزز علىَّ بأن أراك وقد خلت	من جانبك مقاعد العواد
أعزز علىَّ بأن يفارق ناظرى	لمعان ذاك الكوكب الوقاد
أعزز علىَّ بأن نزلت بمنزل	متشابه الأجداد والأوغاد

إلى أن يقول :

بليت أنى ما اقتنيتك صاحباً كم قنينة جلبت أسى نفوادمي
برد القلوب لمن تحب بقاءه مما يجر حرارة الأكباد
ويقول من لم يدركنك إنهم تقصوا به عدداً من الأعداد
هيئات أدرج بين برديك الردى رجل الرجال وأوحد الآحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود ، على بعد ما بينهما من الأصول والأنساب :

الفضل ناسب بيننا إن لم يكن شرفى مناسبه ولا ميلادى
إن لم تكن من أسرتى وعشيرتى فلأنت أعلقهم يداً بودادى
لو لم يكن على الأصول فقدوفى شرف الجدود بسؤدد الأجداد

ويقول فى الحنين إلى أيامهما الخوالى ، وضيق الأرض بالباكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التناث بيننا بمعاود أبداً وليس زماننا بمعاد
ضاقت على الأرض بعدك كلها وتركت أضيقتها على بلادى
لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه ومن الدموع روائح وغوادى
سأوا من الأبراد جسمك واثنى جسمى يسلك عليك فى الأبراد
إن الدموع عليك غير بخيلة والقلب بالسوان غير جواد
سودت ما بين الفضاء وناظرى وغسلت من عينى كل سواد
رى الخدود من المدامع شاهد أن القلوب من الغليل صواد
ما كنت أخشى أن تضن بلفظة لتقوم بعدك لى مقام الزاد^(١)

وفى هذه القطع التى اخترناها بيان لتلك الألفة الوثيقة التى كانت بين ذينك الرجلين ، وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة^(٢) ، واستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلاً

(١) تجذب بقية القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ - ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .

صائبًا يمثل هذا الشعر الحزين ، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسى الشريف الرضى منزلته الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته ، ولننظر كيف يقول :

وصحائف فيها الأرقام كمنَّ مرهوبة الإصدار والإيراد
تدمى طوائفها إذا استعرضتها من شدة التحذير والإبعاد
حمر على نظر العدو كما نما بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطل أن ينهزم من هزائم الأجناد
وتكون سوطا للحرون إذا ونى وعنان عنق الجامح المتماذى
ترقى وتلدغ فى القلوب وإن يشأ حط النجوم بها من الأبعاد

٤ — ومما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأحداث ، ورفعة شأنه بين النابهين من معاصريه ما وقع بينه وبين المتنبي . ذلك أنه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار ، فقال أبو الطيب :

« قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب علىّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبتك ، وأنا إن مدحتك تنكرّ لك الوزير — يعنى المهلبى — وتغير عليك لأنتى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أحبيك إلى ما التمت ، وما أريد منك منالا ، ولا عن شعرى عوضاً » .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم^(١) ، فكان المتنبي بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمنزلة الصابى فى صدر رجل كالمثني وإشارة إلى ما كان يسمو إليه من التطلع إلى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

٥ — وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت ، وطمع الصاحب بن عباد فى استقدامه إليه تشوقاً أو تشرفاً ، ولكن الصابى أحتمل عدوان زمانه وظلم أيامه ، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال^(١) .

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استعباد الكتاب والشعراء ، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتاب الدنيا فى عصره وفى أخبار الصاحب^(٢) أعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب .

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منه قيامة إنسانية كثيرة الرجوع والحنين . لقد عرف حلو العيش ومره ، فكان له بذلك أصدقاء أدناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس ، وتلك أزمة يعانيتها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتتبدل النفوس . ولننظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء :

« لو حملت نفسى على الاستشفاع والسؤال ، لضاق علىّ فيه المرتكض والمجال ، لأن الناس عندنا ، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم ، طائفتان : طائفة مجاملة ترى أنها قد وفنتك خيرها ، إذا كفتك شرها ، وأجزلت لك رفدها ، إذا أجنبتك كيدها ، ومكاشفة تنزوا إلى القبيح نزوا الجنادب ، أو تدب ديب العقارب ، فإن عوتبوا حسروا قناع الشقاق ، وإن غولطوا تلمثوا بلثام النفاق ، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام :

أما تعثر الدنيا لنا بصديق !	أيارب كل الناس أبناء علة
ذوات أديم فى النفاق صفيق	وجوه بها من مضمر الغل شاهد
قذى لعيون أو شجا لحلوق	إذا اعتراضوا عند اللقاء فإنهم
أسروا من الشحناء حر حريق	وإن أظفروا برد الوداد وظله
بها نازل فى معشر ورفيق	أخو وحدة قد آنتنى كأننى
بمسبعة من صاحب وصديق ^(٣)	فذلك خير للفتى من ثوائه

(١) ص ٧٣٧ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٣٥ و ٣٣٦ ج ٢ (٣) ٣٤٠ و ٢٤١ ج ١ ياقوت.

٦ — وبمناسبة هذا الشعر نقرر أن الصابي يمتاز بين معاصريه من الكتاب برقة الشعر وعلو بته ، ويكاد يمرّ على أنه شاعر فحل ، ولهذا أهميته في تقدير كفايته الشعرية ، إذا لاحظنا أن النثر الفني الذي أغرم به معاصروه هو نثر شعريّ ، لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن وفي بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله في القد الرشيق يشبه بالغصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد خفنا عليك به ظلما وعدوانا
الغصن أحسن ما نلقاه مكتسيا وأنت أحسن ما نلقاك عريانا
وقوله في أثر العناق :

إلى الله أشكو ما لقيت من الهوى بجارية أمسى بها القلب يلهجُ
إذا أمتزجت أنفاسنا بالزمانا توهمت أن الروح بالروح يمزجُ
كأنى وقد قبلتها بعد هجعة ووجدى ما بين الجوامح يلعج
أضفت إلى النفس التي بين أضلعي بأنفاسها نفساً إلى الصدر تولج
فإن قيل لى اختر أيما شئت منهما فإني إلى النفس الجديدة أحوج

وبدع الزمان في المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ ، فهو عندهم : « من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره »^(١) وكذلك كان الصابي : فهو يجيد في الصناعتين إجادة لم تنفق لغيره إلا قليلا .

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابى

١ - أما نثر الصابى فهو فى الأغلب موضوعى ، لأنه فى أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التى يخدمها ، ويندر أن يتحدث عن نفسه . وهى مهمة دقيقة لا يوفق إلى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتاب الفحول . وأول ما يرونا من نثر الصابى فناء روحه فى البيئة الإسلامية التى يعيش فيها ، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدث بلغته ، وتجربى تعابيره وأخيلته وكأنما تستمد وحيها من القرآن ، وهو فى هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : « لا تحده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تتمثله العيون بنواظرها ، ولا تتخيه القلوب بنحواظرها ، فاطر السموات وما تظلل ، وخالق الأرض وما تقبل ، الذى دل بلطيف صنعته ، على جليل حكمته ، وبين بجلى برهانه ، عن خفى وجدانه ، وأستغنى بالقدرة عن الأعوان ، وأستعلى بالعزة عن الأقران ، البعيد عن كل معادل ومضارع ، الممتنع على كل مطاول ومقارع ، الدائم الذى لا يزول ولا يحول ، العادل الذى لا يظلم ولا يجور ، الكريم الذى لا يضمن ولا يبخل ، الحليم الذى لا يعجل ولا يجهل ، ذلكم الله ربكم فأدعوه مخلصين له الدين » (١) .

٢ - ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان على بن أبى طالب لرأينا الصابى يستقى من نفس المنبع الذى أستقى منه الشريف ، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتّاب ذلك العصر كانوا يميلون إلى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأنبيائه خصوصاً فى المواطن التى يخاطبون فيها الجماهير . وفى ذلك دلالة على أن الروح الدينية كان لا يزال حافظاً لبعض سحره الأول يوم كان يفعل ما يشاء بألباب الرجال .

(١) ص ٨٢ مختار رسائل الصابى . وانظر مثل هذه الفقرة فى ص ٤٣ و ٤٤

٣ - وورود نثر الصابي في شئون إدارية ومشاكل يومية جعله غير صالح للبقاء ، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبؤ عنه ميول القراء في العصر الحديث . فإن الكتابات التي تعنى بمشاكل اليوم الحاضر وتشغل المنازعات اليومية يكون حظها في الأغلب حظ مقالات الصحف التي تصف الأزمات الوقتية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثراً فنياً ، وإنما يقف نفعها على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابي كذلك لا تنفع في جملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهي صريحة في أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئاً ، وإنما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التي وردت على لسان الخليفة إلى أهل البصرة :

« وأمر المؤمنين بعامكم أن عز الدولة يده التي يبطش بها ، وعدته التي يعول عليها ، ويأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد في ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة في أعناقكم ، وجعلكم في أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو الخاتلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناكحة ولا معاملة إلا مع طاعته والإخلاص له سراً وجهراً وقولاً وفعلاً ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعملوا عليه واعتمدوه واتهوا إليه »^(١) .

٤ - فإذا تركنا ما تنبىء عنه العهود التي كتبها الصابي على السنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا تنامس الحقائق الباقية من آراء الصابي وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية في يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قوياً جداً ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينه
وكاتبه الكافي السديد الموفق
وأوزره فيما عرا وأمده
برأى يريه الشمس والليل أغسق

يُجدد بي نهج العلا وهو دارس ويفتح بي باب الهدى وهو مغلق
 فيمنأى يمنأه ولفظى لفظه وعينى له عين بها الدهر يرمى
 ولى ققر تضحى الملوك فقيرة إليها لدى أحداثها حين تطرق
 أردّ بها رأس الجموح فينثى وأجعلها سوط الحرون فيعنىق
 فإن حاولت لطفاً فمأء مروّق وإن حاولت عنفاً فنار تألق^(١)

وقد أشار الرضى فى رثائه له إلى هذه الناحية من قوته فقال :

من للملوك يحز فى أعدائها بظي من القول البليغ حداد
 من للمالك لا يزال يلها بسداد أمر ضائع وسداد
 من للجحافل يستزل رماحها ويرد رعلتها^(٢) بغير جلاذ
 من للموارق يسترد قلوبها بزلازل الإبراق والإرعاد^(٣)

٦ — وفى الحق أننا لا نجد فى رسائل الصابي ما يلفت النفس إليه إلا بعض الفقرات الوصفية التى تمثله لنا رجلاً فناناً يحكم القول ، ويجيد الوصف ، وهذه الفقرات قليلة أيضاً ، وهى غريفة فى لحن إسبابه وتطويله هنا وهناك ، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين و بين الروم :

« وتلوم أصحابنا بها (أى بآمد) يريحون ، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون ، مرة تقدم بهم الأجال ، ومرة تجم بهم الأوجال ، ثم تدانى الفريقان ، والتقت حلقتا البطان^(٤)... فثبت الطغاة اغتراراً بوفور عددهم ، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم ، وأخذ الأولياء منهم بالخنق ، وصدقوهم القتال فى المعترك الضيق ، فلما أستعرت الملمحة ، وعلت الغمغة ، ودارت رحى الحرب ، واستحّر الطعن والضرب ، واشتجرت سمر الرماح ، وتصاحت بيض الصفاح ، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور . وتنادى الكفار بالويل والثبور ، فنكصوا على أقدامهم مجدين

(١) اليتيمة ص ٥٠ ج ١ (٢) الرعلة : الجيش الكثير .

(٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشريف الرضى .

(٤) البطان : الحزام يجعل تحت بطن البعير ، ويقال التقت حلقتا البطان للأمر إذا اشتد .

في الهزيمة ، وأعتدوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة ، وأستلحمتهم السيوف ، واحتكمت فيهم الختوف ، وأخذ المسامون منهم النار ، وعجل الله بأرواحهم إلى النار » (١) .

٧ - وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلاً ، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة : هي أنه كان خبيراً بنفوس أهل عصره ، وكان لذلك موقفاً في الوصول إلى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء ، وإرهاب من يكتب في زجرهم من العصاة والثأرين ، وكان يعرف ما يصح أن يسمى « سياسة القول » يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه « لغة المنشورات الرسمية » فيما كتب عن المطيع لله إلى الوزير المهلبى سنة ٣٥١ :

« وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها ، وتجهل العامة بقصور أذهانها . وكانت أوامره - يريد أمير المؤمنين - فيه خارجه إليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله وأمائله عماله ، والذين يكتفون بالإشارة ، ويحتزئون بيسير الإبانة والعبارة ، لم يدع أن يباغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحد الذي يلحق المتأخر بالمتقدم ، ويجمع بين العالم والمتعلم ، ولا سيما إذا كان ذلك مما يتعلق بعبارات الرعية ، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية ، دون البواطن الخفية ، ولا يسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة ، إلى الرسوم المتغيرة ، ليكون القول المشروح لمن برز في المعرفة مذكراً ، ولمن تأخر فيها مبصراً ، ولأنه ليس في الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورهم ، ولا أن يقتصر على اللمحة الدالة في مخاطبة جمهورها ، حتى إذا أستوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به ، وفقه مادعوا إليه ، وصاروا فيه ، على كلمة سواء ، لا يعترضهم شك الشاكين ، ولا أستراة المستريين ، اطمأنت قلوبهم ، وانشرحت صدورهم ، وسقط الخلاف بينهم ، وأستمر الاتفاق فيهم ، وأستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة في النهاج ، ومحروسون من جرأ الزيف والأعوجاج ، فكان الاقياد منهم وهم دارون عالمون ، لا مقلدون مسامون ، وطائعون مختارون ، لا مكرهون مجبرون » (٢) .

٨ — على أن في الرسائل التي كتبها عن الخلفاء فقرات تنحو منحى الرسائل الإخوانية ، وتجري فيها المعاني طلقة رقيقة كأنفاس العتاب ، فقد كتب الطائع لله إلى عضد الدولة يقول :

«أما بعد فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها ، ألا يصبر منك على حدوث قطعة ، ولا يبغي لك على اعتراض جنوة ، ولكنه يوجب في الحقوق بينه وبينك ، والأواصر المتهمة عنده لك ، أن يحم صفوة الحال عما يشوبها ، وينفيها مما يعيبها ، ويتأنك إلى أن تعود من ذاتك إلى ملازمة طبعك السليم ، وسنك المستقيم ، ويعتقد أنك منه كالعين الناظرة التي تصان عما يقذرها ، واليد الباطشة التي تحفظ عما يدويها» (١).

غير أني ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومي في العتاب :

لا أجازيك من غرورك إياي غروراً وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا لك لبخل عليك بالإغضاء
أنت عيني وليس من حق عيني غرض أجفانها على الأعداء

ومن المعاني الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت أبنته المزوجة بعدة الدولة أبي تغلب إليه بالموصل :

« قد توجه أبو النجم بدر الحرمي وهو الأمين على ما يلحظه ، الوفي بما يحفظه ، نحوك يا سيدي ومولاي أدام الله عزك بالوديعه ، وإنما نقلت من وطن إلى سكن ، ومن مغرس إلى معرس ، ومن مأوى برّ وانعطف ، إلى مثوى كرامة وإطاف ، ومن منبت درت لها نعاؤه ، إلى منشأ يجود عليها سماؤه ، وهي بضعة مني انفصلت إليك ، وثمرة من جنّي قلبي حصلت لديك ، وما بان عنى من وصلت حبله بجبلك ، وتخيرت له بارع فضلك ، وبوأته المنزل الرحب من جميل خلائتك ، وأسكنته الكنف الفسيح من كرم شيمك وطرائقك ، ولا ضياع على ما تضمنه أمانتك ، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك» (٢).

وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابي استمدّ روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوبة عن المعتضد إلى ابن طولون في ذكر ابنته قطر الندى المنقولة إليه (١).

٩ — ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظته الثعالبي على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابي كان يجهل في استغلال ما ترك الأولون من بديع المنظوم والمنثور بطريقة ساحرة خفي بها على أكثر معاصريه ما أخذ من روائع الأدب القديم .

١٠ — وبالرغم من المؤاخذات التي واجهنا بها نثر الصابي فإننا نعترف بأنه نجح في ناحيتين :

الأولى — ظهوره بمظهر التفوق في لغته الفنية الزاهرة متى وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور في الموضوعات الكثيرة التي جرى فيها قلمه ، فإننا لا نكاد نجد يكرر معنى أو يعيد لفظاً إلا في أحوال قليلة نعتفر لكاتب يحمل على القول ويساق إلى البيان، وكتابته مع ما فيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع.

الثانية — سعة حيلته في التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى ، وكان من العسير تحديد ما يصلح في التخاطب بين تلك القوى المختلفة التي كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشرار ، وكان يزيد في حرج الصابي ودقة موقفه أنه كان مسئولاً عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسئولية أثرقوى في رياضة نفسه وتوجيهها إلى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلازمه في جميع الظروف : فقد وقعت في إحدى رسائله لفظة عدّها عضد الدولة تعريضاً به وأسرّها في نفسه إلى أن ملك العراق فحسه واستصفي أمواله (٢) . وقضى لذلك بقية أيامه في عسر دائم أساء ما مرّ به من طيبات الحياة .

(٢) ص ٣٢٧ ج ١ ياقوت

(١) ص ١٩١ و ١٩٢ ج ١ يتيمة .

١٢- أبو عامر بن شهيد

آل شهيد — حياة أبي عامر وصبواته — ضجره من المرض — وصاياه المحزنة

١ — « ابن شهيد » اسم يطلق على عدة رجال من أعلام الأندلس ، ينتسبون إلى شهيد بن عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البربر ، وقيل إنه رومي^(١) . وأشهر بنى شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك ، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموي ، وكان ابن شهيد الوزير معروفاً بالدهاء وحسن التدبير^(٢) ، وكان كذلك من أبرع الشعراء وهو الذي يقول :

ترى البدر منها طالعاً فكأنما	يجول وشاحها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوى القرط مخطفة الحشى	ومفعمة الخللخال مقعمة القلب ^(٣)
من اللأنى لم يرحلن فوق رواحل	ولا سرن يوماً فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام للنشوة	وشدو كآشدو القيان على الشرب ^(٤)

٢ — ولد أبو عامر سنة ٣٨٣ هـ ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقدر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملاحة ، لأن ثقل سمعه حجبه عن الاتصال بالملوك والوزراء^(٥) ؛ ولكنه انقاد لشبابه وهواه ، وأسلم زمامه لفطرتة وطبعه ، فجاء شعره ونثره فى أعلى درجات البيان .

(١) نفع الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن .
 (٢) نفع الطيب ص ٢٤٦ ج ١
 (٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والمعجم بالقاف من القمع بالتحريك ، وهو كإنص الفيروز ابادى ميل وارتفاع فى الألتين ، والمراد هنا وصف السوار بالضييق لامتلاء المعاصم .
 (٤) فى هذا البيت إشارة إلى أن الحرأر ما كنى يجتمعن على الشراب .
 (٥) أنظر الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

٣ — كان همّ أبي عامر أن « يعيش » ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك^(١).

والعيش في عرف أبي عامر بن شهيد ، هو مجموعة من الحسن والحمر والأدب ؛ فالحياة عنده وجه أصبح ، أو كأس مترعة ، أو رسالة أنيقة ، أو قصيدة بديعة ، فإن خلت الدنيا من بعض ذلك فهي لغو وفضول ، وعيش الأديب فيها عبء ثقيل .

وما ظن القارىء برجل يبيت في الكنائس لينعم بما فيها من الحمر العتيق والحسن الطريف ، ثم يقول في وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شممت بديره	خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم	متصاغرين تحشعاً لكبيره
والقسّ مما شاء طول مقامنا	يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مخفر	كالخشف خفره التماح خفيـره ^(٢)
يتناول الظرفاء فيه وشربهم	لسلافه والأكل من خنزيره ^(٣)

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يمرح في كناس) فتتنصرف مهروعة خشية أن يفضحها بشعره ، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طيّ القناع	دعاها إلى الله بالخير داعي
سعت خفية تبتغى منزلاً	لوصل التبتل والانقطاع
فجاءت تهادى كمثل الرءوم ^(٤)	تناغى غزالاً بروض اليفاع ^(٥)
وجالت بموضعا جولة	فحلّ الربيع بتلك البقاع

(١) وصفه صاحب نفع الطيب (بالمنهمك في بطالته) ص ٣١٩ ج ١ وتحدث عنه صاحب الذخيرة فقال : (أبو عامر ابن شهيد فقي الطرائف ، كان بقرطبة في رفته وبراعة ظرفه خليعها المنهمك في بطالته ، وأعجب الناس تفاوتاً بين قوله وفعله ، وأحظهم في هوى نفسه ، وأهتكم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه) ص ٢٦ ج ١ (٢) الخمر : المنوع ، والخشف بالثليلت ولدالظبي .
(٣) راجع نفع الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الرءوم : الظبية الألوف .
(٥) اليفاع ما ارتفع من الأرض .

أنتنا تبختر في مشيها فحلت بواد كثير السباع
 وريعت حذاراً على طفلها فناديت يا هذه لا تراعي
 غزالك تفرق منه الليوث وتنصاع منه ككاهن المصاع^(١)
 فولت وللمسك في ذيلها على الأرض خط كذيل الشجاع^(٢)

٤ — وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول:

إن الكريم إذا نالته مخصمةً أبدى إلى الناس شبعاً وهو طيان^(٣)
 يخنى الضلوع على مثل اللظى حرقاً والوجه غمر بماء البشر ملآن
 أو حين يقول:

ألتُ بالحب^(٤) حتى لو دنا أجلى لما وجدت لطمع الموت من ألم
 كالالندى والهوى قدما ولعت به^(٥) ويلى من الحب أو ويلى من الكرم

وذكر ابن حيان أن أبا عامر (كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته ، وأشدّهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له في الكرم والجود انهماك مع شرب وبطالة حتى شارف الإملاق)^(٦).

ومن العجيب في تشابه الحظوظ أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف؛ فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأياً لمن استشاره ، وأضلهم عنه في ذاته)^(٧) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب في سوء الحال!

(١) الكاهن جمع كاهن وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف .

(٢) الشجاع : الذكر من الحيات . (٣) طيان : الطوى وهو الجوع . وفي رواية أخرى (ربا وهو ظمآن) أنظر هامش الفتح ص ٤١٠ ج ١ (٣) وفي رواية : أخرى «كلفت بالحب»

(٥) وفي رواية أخرى « وذادني كرمي عمم ولهت به » وهي أفصح من الرواية الثالثة

«وعاقني كرمي» . (٦) الذخيرة ص ٢٩٤ ج ١

(٧) استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكمته في شعره على

الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل في طليعة الحكماء على اختلاف الأجيال ، ولكنه عجز عن الظفر باستقامة الخلق في حياته الشخصية : فلم يكن لزوجته ولا ولده من رعايته نصيب وسبحان من تفرد بالكمال!

٥ — قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حباً شديداً ، وكان يرى العيش كل العيش في معاقره الجمال والصهباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساساً بكرهه الموت ، وقد بلغ من تفرغه أن شعر معاصروه جميعاً بألمه وأمتعاضه وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة .

قال ابن بسام : « ولما طال بأبي عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا تقلب ، وكان يمشى إلى حاجته على عصا مرة ، وأعمادا على إنسان مرة ، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً فإنه صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه » (١) .

فلنتصور قسوة المرض التي تحمل رجالاً كابن شهيد على التفكير في الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله في ذلك :

أنوح على نفسي وأندب نبلها	إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله في كل حالة	على وأحكما تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبنى العصا	على ضعف ساق أو هن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكرهه	كشفت ودار كنت في المحل وبلها
ورب قريض كالجريض (٢) بعثته	إلى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهمو	أخوفتكة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلامٌ من فتى عضه الردى	فلم ينس عينا ثبَّتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه	وداخلها حب يهون شكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصنفى قال :

(١) النخيرة ص ١٦٥ ج ١

(٢) الجريض بالجم الريق ، وهى في نسخة النخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوماً على أبي عامر بن شهيد ، وقد ابتدأت علته التي مات منها ، فأنس بي وجرى الحديث إلى أن شكوت له تجنّي بعض إخواني علىّ وفناره عني ، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائى لذلك المتجنّي مع بعض إخواني وأعزهم علىّ ، فلما رأاني مولياً عن ذلك الصديق أنكر علىّ وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا في مشيها حتى لحقاني ، وعزّم علىّ في تكليم صاحبي ، وتعاتبنا عتاباً أرق من الهوى ، وأشبهى من الماء على الظلم ، حتى جئنا دار أبي عامر ، فلما رأانا جميعاً ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده ؟ قلنا : قد كان ما كان ! فأطرق ملياً ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بيني وبين من أهوى
أرسلت من كبدي الهوى فدرى كيف تداوى مواضع البلوى
ولى حقوق في الحب ظاهرة لكن إلفى يعدها دعوى^(١)

وحدث المصحفي أيضاً قال : دخلت عليه يوماً في تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا ، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب مزارحته فينافره ، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه يشعر منه فيه بطرف لسانه ، فقال له ذلك الغلام : هجوتني يا أبا عامر دون أن تثبت في أمرى ، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك ، فقال : علىّ تكفيره بما يحويه من القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى ، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا إليه فأنشدنا :

ألا بأبي زائر في العتم بوجه يحلّي سواد الظلم
تكمم بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتمم
أنى يستجير إلينا به كما جاور البان رطب الغم^(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل إلى أبي محمد ابن حزم هذه الأبيات :

(١) الذخيرة ١٦٣ ج ١ (٢) للقصيد بقية طويلة يجدها القارىء في الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه
تمنيت أنى ساكن فى عباءة
خليلى من ذاق المنية مرة
كأنى وقد حان أرتحالى ولم أفر
فن مبالغ عنى ابن حزم وكان لى
عليك سلام الله إنى مفارق
فلا تنس تأيبنى إذا ما فقدتنى
وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
فقد ذقتها خمسين قولة صادق
قدماً من الدنيا بلسحة بارق
يداً فى ملماتى وعند مضايقي
وحسبك زاداً من حبيب مفارق
وتذكر أياى وفضل خلائقي^(١)

٦ -- وكان ابن شهيد يشعر أنه أهلٌ لأن يُبكي حين يموت ، ويقول فى ذلك :

سقى الله فنيانا كأن وجوههم
إذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى
هو الموت لم يُصرف بأجراس خاطب
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر
يحل عُرى الجبار فى دار ملكه
وليس عجيباً أن تدانت منيتى
ولكن عجيب أن بين جوانحى
يحركنى والموت يحفر همتى
وجوه مصابيح النجوم الزواهر
بكوا بعيون كالسحاب المواطر
أقلوا فقدا مات أبناء عامر
بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر^(٢)
قوى ولا للضعف مهجة صابر
ويهفو بنفس الشارب المتساكر
يصدق فيها أولى أمر أخرى
هوى كشرار الجرة المتطائر
ويحتاجنى والنفس عند حناجرى^(٣)

وهذا حقاً عجيب ، فإن ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة إلى محبوب له اسمه عمرو ، وكان حبه له مشهوراً يعرفه القريب والبعيد ، ولننظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الأبيات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة .
(٢) الحاطب : وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيته فى كلام الجاحظ ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .
(٣) يحفر : يقطع .

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخصَّ عمراً بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصاً علىّ وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى « يالف » غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيباً وحاشا بحبى فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حماك الله تقديمى
عشنا رفيقين فى بر الهوى زما حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتت نوب الأيام ألفتنا قسرا ولم يغنها طبي وتنجيمى

وحسب القارىء أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودع
إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودعُ الله إخوانى وعشرتهم وكل خرق إلى العلياء سباق^(١)
وفتية كنجوم الغرب نيرهم يهدى وصلبهمو يردى بإحراق
وكوكباً لى منهم كان مغربه قلبى ومشرقه ما بين أطواقى
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حرمشراقى
فإن أعش فعلل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيستقيه الردى الساقى
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلق فيه غير أخلاقى!
قد كان بردى إذا مامسنى كلف لا يثلم الحب آدابى وأعراقى
إنى لأرمقه والموت يضغظنى فأقتضى فرجة ترد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره فى لوح رخام
هذه الكلمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأٌ عظيمٌ أتمَّ عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك
ابن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

(١) الحرق بالكسر : السخى أو الظريف فى سخاوة ، والفق الحسن الكريم الخليفة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا » .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا أنحن طول المدى هجود!
فقال لي : لن تقوم منها ما دام من فوقها الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا في ظلها والزمان عيـد
وكم سرور همي علينا سحابهُ ثرةً تجود
كلُّ كأن لم يكن تقضى وشؤمه حاضرٌ عتيد
حصّله كاتب حفيظ وضمه صادق شهيد
يا ويلتنا إن تنكبتنا رحمة من بطشه شديد
يارب عفواً فأنت مولى قصر في شكره العييد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيراً ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السّوق ، فيسرّ الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب إلى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، إلى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يُشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعيول .

١٣ - نمر ابن شبيب

١ - اتفق من ترجوا لأبن شبيب على وصفه بالبراعة في الإنشاء ، فقال ابن حيان : « كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام ، وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في إبانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته لما شاء نظمه ونثره في بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فإنه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني بعد موته - كتاب يستعين به على صنعيته ، ويشخذ من طبعه إلا ما قدر له ، فزاد ذلك في عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان في تنميق الهزل والنادرة الحادة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه »^(١) .

وقال الثعالبي : « فنثره في غاية الملاحه ، وشعره في غاية الفصاحة »^(٢) .

وقال ابن بسام : « وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ، ونوادره القصار والطوال ، وتعرضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حبابه ، ويحن معه الكبير إلى صباه »^(٣) .

وقال الحنط وهو يهاجمه : « الإسهاب كلفة ، والإيجاز حكمة ، وخواطر الأبواب سهام يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شامخاً بأنفه ،

(١) الذخيرة ص ٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٣) الذخيرة ص ٩٤ ج ١

ثانياً من عطفه ، مخيلاً أنه أحرز سبق في الآداب ، وأوتى فصل الخطاب ، فهو يستصغر أساتيد الأدباء ، ويستجمل شيوخ العلماء .

وابن اللبون إذا ما لَزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس^(١)

وهذه الآراء التي نقلناها عن ابن حيان والثعالبي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين فى ابن شهيد ، وتدلنا على أنه شغل الناس حيناً من الزمان ، ولو انتقلنا إلى رأيه فى نفسه لرأيناه مفتوناً أشنع الفتون بما اعتقده من إجادة النظم والذئير ، والنفوق البالغ على كتاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح .

٢ - سئل أبو العلاء المعرى رأيه فى شعر ابن هانىء الأندلسى فأجاب : « رحى تطحن قرونا » وهو جواب حذق وذكاء ، فضلاً عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك فى نثر ابن شهيد ، فهو فى الأكثر جعجعة وقعقة وقلقلة فى غير نفع ولا غناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك ما نراه فى نثر ذلك الرجل الذى نعتقد فيه دقة الفهم ، ورقة الطبع ، وسلامة الذوق ، ولكن ما الحياة وقد قلبنا نثره على وجوهه ، وراجعنا ما بقى منه أكثر من عشرين مرة ، فلم نزد إلا اقتناعاً بأنه كان فى إنشائه من المتكلفين .

٣ - وربما كان من أسباب الانتواء الذى نشهده فى نثر ابن شهيد غرام الرجل - كان - بمقارعة كتاب المشرق ، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفنّ كان لها فى زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر فى ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية ، وأستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة ، تؤدى فى عالم النثر ما كانت تؤدى النقائض فى عالم الشعر ، فوقع له من الإفليل والحناط وغيرها منافرات كان لها فى مجالس المغرب دوى شديد . هذا مع أن الرجل كان من نحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر ، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجريـر

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ - والبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين ، والقناعيس جمع

قنعاس بالكسر وهو العظيم من الإبل ، ومن الرجال الشديد المنيع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحيى في بلاده معارك نثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي و بديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه أمحدار بالنثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فإن الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدي إلا بالبيت السأر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فإنه يعرى القارىء بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزاً ، فلا يزال يقلب أكداس الحرف والتراب حتى يصل إلى بعض ما ينشد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نحاة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الإفليلى فلم يقل ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الإفليلى :

« ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نعمته نعمة شاعر »^(١) .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

« من عزبز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار ؛ جدّ كبا ، وحسامٌ نبا ، وآمال تفرقت أيدي سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كنا قبل أن ترمى بنا النوى مراميا ، وتلقى علينا الخطوب مراسيا ، وتمخضنا الأيام مخضاً ، وتركض بنا الليالي ركضاً ، ترَبّي صحبة ، وحليفي صبوة ، قد تخلينا عن الأنساب ، وانتسبنا إلى الآداب ، والدار إذ ذاك صقب ، والملتقى كشب ، الزمان غر ، وحواصلنا صُفر ، نترنم ترنم الحمام ، على زرق الحمام^(٢) ، ثم ألتق الأيام علينا بكل كل ... فنشرنا بكل فجع عميق ، وأفق سحيق ، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

(٢) الحمام المياه الكثيرة ، والمفرد جم ، وهو في الأصل الكثير من كل شيء .

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدة العواء^(١) ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسماك ، فرحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكاتبة ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبنا فيما لديك ، وهيمت ! يا بى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الحلم على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل الرؤساء ، ويجاذب العظماء ، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، ولا التقاء بالحموم ، لا بالجسوم ، فانطويت على ود ، وثبتت على صحة عهد ... الخ^(٢) .

وهذا نثر مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

« لما قدم زهير الصقلبي فتى بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوافانى رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعاً إلىّ ، حتى طبع أبو جعفر علينا ، ساحباً للذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسامت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن فى أنفه نكرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحكم النظام ، فرأيت أصحابى يصيخون إلى ترنمه ، فسألتهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحناء علىّ ، جالباً فى المحافل مايسوء إلىّ — : الوزير حضره قسيم من الشعر ، وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أنى المراد ، فأنشده ، وهو :

مرضُ الجفون وثغفةٌ فى المنطقِ

فأخذت القلم وكتبت بديها :

مرض الجفون ولثغة في المنطق شيثان جرا عشق من لم يعشق
من لى بأثغ لا يزال حديثه يذكي على الأكباد جمرة محرق
ينبي فينبو في الكلام لسانه فكأنه من خمر عينه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مُهرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من البديهة: وسألوني أن أحمل مكاوي الكلام على اختباره ، وذكروا أن إدريس هجاه وأفخس ، فلم أستحسن الإفخاش ، فقلت فيه معرضاً إذ التعريض من محاسن القول «^(١) .

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد ، وحدّثنا في « التوابع والزوابع » أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها ، وهي رسالته في صفة البرد والنار والخطب ، ورسالته في الحلواء وكلماته في وصف جارية ، ونعت الماء والثعلب والبرغوث والبعوض . وهذه الرسائل في جملتها تدل على غنى في اللغة وبراعة في الصنعة ، ولكنها خالية من الروح . ويظهر أن الجن الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق في نقد الكلام ، مع أنهم كانوا من أقطار مختلفة ، وصاحبوا الأفاذ من شعراء الحجاز والشام والعراق !

وأجود ما وقع له في تلك الرسائل «المستجادة» قوله في وصف ماء صاف :
« كأنه عصير صباح ، أو ذوب قر ليّاح »

وقوله في وصف البعوض :

« تنقض العزائم وهي منقوضة ، وتعجز القوى وهي بعوضة ، ليرينا الله عجائب قدرته ، وضعفنا عن أضعف خليقته »^(٢) .

ورسالته في وصف الحلواء قالها تحقيراً لفقيرهم لقيه في المسجد الجامع ، فلما طالعوا الحلواء ، « اضطرب به الألم ، وأستخفه الشره ، فدار في ثيابه ، وأسأل من لعبه ، وأزورّ جانبه ،

(١) ماسماه ابن شهيد تعريضاً هو أيضاً إفخاش لم تر روايته لأننا لا نستجيز رواية الهجاء القبيح الذي يجرح الأدب والذوق . وبقيّة هذا الحديث في ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١

(٢) اليتيمة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربه « ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحداً واحداً ، فالفالوزج « مجاجة الزناير خالطها لباب الحبة ، فجاءت أطيب من ريق الأحبة » والخبيص « جليد سماء الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تجرحه اللحظة ، وتدميه اللفظة » ، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : « فأمرت الغلام بابتياح أرتال تجمع أنواعها التي أنطقته ، وتحتوى على ضروبها التي صرعته ، فجاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها بجراحه ، وجعل يركل برجليه ، ويجاحش بفخذه ، مانعاً عنها ومدافعاً ، فصحت به لا عليك حكماً ، فجعل يقطع ويبلع ، ويوجر فاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتتا عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التعم جواهرها ، وألحق أوّلها بأخرها ، فهبت منه ريح عقيم ، قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرتنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شفر بفر ، فالتمحنا منه الظّرّبان ، وصدق فيه الخبر العيان » (١) .

وعندى أن ابن شهيد في رسالة الحلواء عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية ، والنكتة في الرسالتين متشابهة ، فهي عند ابن شهيد سخرية من فقيه أ كول ، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم ؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ؛ ولننظر كيف يقول وقد استدرج سواديا بالكرخ (٢) :

« فقلت : فهلم إلى البيت نصب غداء ، أو إلى السوق نشترى شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب ، فاستفرتة حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسابل جوذابه مرقا (٣) فقلت : أبرز لأبي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ؛ واختر من تلك الأطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء في الدخيرة ص ١٣٦ و ١٣٧ ج ١ وفي اليتيمة ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفي النسختين اختلاف شديد ، وفيها كذلك كثير من التحريف . والفقرات التي اختارناها مأخوذ مما صح لدينا نظمه على اختلاف النسختين . (٢) الكرخ محلة كانت في الجانب الغربي من بغداد . (٣) الجواذب : خبز يوضع في التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيثاً من ماء السماق^(١)، ليأكله أبو زيد هنيئاً؛ فألقى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره، فجعلها كالكحل سحقا، وكالطين دقا، ثم جلس، وجلست، ولا نبس ولا نبست، حتى استوفيناها وقلت لصاحب الحلواء: زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فإنه أجرى في الحلوق، وأسرى في العروق، وليكن ليلي العمر يومى النسر، رقيق القشر، كشيء الحشو، لؤلؤى الدهن، كوكبى اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئاً. ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت، وأستوفيناها. ثم قات: يا أبا زيد! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج، ليقيم هذه الصارة^(٢)، ويفئاً^(٣) هذه اللقم الحارة! إجلس، أبا زيد، حتى آتيك بسقاء، يحينا بشربة من ماء. ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يرانى، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت عليه قام السوادى إلى حمارة، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال: ما أكلته إلا ضيفاً. فقال الشواء: هاك وآك، متى دعوناك؟ زن يا أبا القحبة عشرين، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين! فجعل السوادى يبكي ويمسح دموعه بأردانه، ويحل عقده بأسنانه، ويقول: كم قلت لذلك القرئيد، أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد! «.

وإنما افترضنا أن ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه، لأنه كان مشغوقاً بأدبه ومعنياً بمعارضته، فقد حدثنا في « التوابع والزوابع » أنه قابل بأرض الجن (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان، وجرت بينهما مصالوة انتصر فيها ابن شهيد. وهذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة إلى الأندلس، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين.

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد، وقدمه كذلك إلى شعراء الجن فاستجادوه، فهو رسالة فيها فقرات تنم عن قلب غزير ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات تليح بمغازم الفتك والمجون، وكانت جاريته « أخت نعمة، وربة نعمة، كأن شعرها على

(١) السماق: حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان.

(٢) الصارة: العطش. (٣) يفئاً: يسكن.

غرّتها الغراء، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلمك بأحاطها، وتأسوك بألفاظها، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بنرجسة، كأنما تفرها من جوهر، وشقتها خيط حرير أحمر، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان، وتنفتل عليك بكفل مأج، كأنه كئيب عاجل ... المنظر منظر غلام، والخبر مخبر فناة، إن علوتها تدفعت إليك، أو علتك تداركت عليك، وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت نخرة أو رضاب، أو أجاعك عراقها أطمعتك من لسان، يصل إليك وصول الإيمان»^(١).

٨ - ورسائله عن النار والحطب تمثل فرع أهل الأندلس من البرد، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلةً بالصنعة، خالية من الروح. وهي رسالة مهداة إلى صديق نفحه بأحمال من الحطب الجزل - والحطب مما يهدى في تلك البلاد لما يعاني أهلها من قسوة الشتاء - ولننظر كيف يصوّر اصطدام النار بالوقود:

«حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... فجعلتُ محجني حطباءدل على نفسه، وتشطى من يسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها بينات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركه طويلا، فكان لها عجيح، وله من حرها ضجيج، ثم خرّ لها صريعا، وأستولت عليه صعبا منيعا؛ فبددت شمله وألفت شملها، وأستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمى بالوان، وتتهدد باسان، فلذعت البردلذعة، ونكرته على فؤاده نكرة، خرّ لها على جبينه، ومات بها من حينه»^(٢).

٩ - وبعد فإن نثر ابن شهيد - على ما فيه من مأخذ وعيوب - دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعنيه أن يراه نحن أقل من شهرته، فإننا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصريه أشدّ الاختلاف. والنثر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق في تذوقها الناقدون. وكان للرجل في حياته نجاح مرهوق، فقد وصل نثره وشعره إلى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء؛ وفي هذا برهان على أن الرجل أمدّ عصره بروحه وأستولى بقوة على عرش البيان.

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل إلينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت إلينا جملة صالحه من نثره الذى جرى فيه على سليقته وفطرتة ، وأنحاز فيه إلى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة إذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسداهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، إذا مضى يشرح مزالتق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضاً أن ابن شهيد كان يمتح من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فإن جهد المقل غير قليل ، ولندكر أننا نقدر وننقض ، فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحيةً وسلام !

١٤ - أبو الفضل الميطلي

١ - أسرة الميكالي أسرة قديمة العهد بالمجد في المدينة الإسلامية ، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان في القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد ، وتقياً ظلّاهم أبو بكر الخوارزمي ، و بديع الزمان الهمداني ، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة في الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة في يتيمة الدهر وزهر الآداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والأزدواج في رشاقة وعذوبة وأنساق . وفيه يقول الثعالبي في مقدّمة فقه اللغة :

« ومن أراد أن يسمع سر النظم ، وسحر النثر ، ورقية الدهر ، ويرى صوب العقل ، وذوب الظرف ، ونتيجة الفضل ، فليستشذ ما أسفر عنه طبع مجده ، وأثمره على فكره ، من مُلح تمتاز بأجزاء النفوس لنفاستها ، وتشرب القلوب لسلاستها . . . وأيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه ، وأسعدنى بالأقتباس من نوره ، والأعتراف من بحره ، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله ، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحظه ، وأتتهبت فرائد الفوائد من ألقاظه ، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لأبن الرومي :

لولا عجائب صنع الله ما نبنت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز أباد ، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبَل القطر ! فإنها كانت بطلعته البدرية ، وعشرته العطرية ، وألقاظه اللؤلؤية ، ومحاسن أقواله وأفعاله التي يعيا بها الواصفون ، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون ، فإذا تذكرتها في تلك المراجع التي هي مراتع النواظر ، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر ، والبساتين التي إذا

أخذت بدائع زخارفها ، ونشرت طرائف مطارفها ، طُوِيَ لها الديباج الخسرواني ، وُنْفِيَ معها الوشي الصنعاني ، فلم تشبّه إلا بشيمه ، وآثار قلمه ، وأزهارها كلمه ، تذكرت سحرأ وسيا ، وخيراً عميا ، وأرتياحا مقيا ، ورَوْحاً وريحانا ونعيا .

٢ — وأظهر الفنون التي كان يجيدها الميكالي هو فن الإخوانيات ، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين ، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

« أيامَ ظلَّ العيشَ رطب ، وكفَّ الهوى رحب ، وشرب الصبا عذب ، وما لشرق الأنس غرب »^(١) .

وقوله من رسالة ثانية :

« إنما أشكو إليك زماناً سلب ضعف ما وهب ، ونفع بأكثر مما متع ، وأوحش فوق ما أنس ، وعنف في نزع ما ألبس ، فإنه لم يدقنا حلاوة الأجماع ، حتى جرعنا مرارة الفراق ، ولم يمتعنا بأنس التلاق ، حتى غادرنا رهن التلهف والأشتياق »^(٢) .

وليتأمل القارئ رقة الحنين في قوله من كلمة ثالثة :

« أ، أسأل الله تعالى أن يرد عليَّ برد العيش الذي فقدته ، وفسحة السرور الذي عهدته فيقصر من الفراق أمدّه ، ويعلو للقاء حكمه ويده ، ويرجع العيش الذي رقت غلائله ، وصفت من الأقداء مناهله ، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم ، ولا تعلقت يوماً إلا بعيش بهيم .

فإن ترجع الأيام بعد الذي مضى بذى الأثل صيفاً مثل صيفي ومربعي

شددت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إن جاذبتها لم تقطع

وما على الله بعزيران يقرب بعيداً ، ويهب طالعاً سعيداً ، ويسهل عسيراً ، ويفك من رق الاشتياق أسيراً »^(٣) .

ومع أن صلته بأبي منصور الثعالبي كانت صلة الأمير المفضل بالصاحب الأمين فإننا نجد
يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

« كتابي ، وأنا أشكو إليك شوقاً لو عاجله الأعرابي لما صبا إلى رمل عاج ، أو كابده
الخلي لاثنى على كبد ذات حرق ولواعج ، وأذم زماناً يفرق فلا يحسن جمعاً ، ويحرق فلا
ينوى رقعاً ، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد ، ثم يبخل عليهم بما يشفى الصدور
والأكباد ، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف ، جأر الحكم فلا يميل إلى إنصاف ، وم
أستعدى على صروفه وأستنجد ، وأتظنى غيظاً عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنانهُ بعثرة حال والزمان عثورُ

فتدرك آمالُ وتقضى مآربُ وتحدث من بعد الأمور أمورُ

وكلا ! فما على الدهر عتب ، ولا له على أهله ذنب ، وإنما هي أقدار تجري كما شاء
مجريها ، وتنفذ كالسهم إلى مراميها ، فهي تدور بالمكروه والمحبوب ، على الحكم المقدر
المكتوب ، لا على شهوات النفوس ، وإرادات القلوب ، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب
البعيد النازح ، وتسهيل الصعب الجامح ، فيعود الأنس للقاء الإخوان كأنهم ما لم يزل معهوداً
ويجدد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعهوداً ، فإنه الملبى به والقادر عليه « (١) .

٣ - وقد كان الميكالى يعيش أطيّب العيش بين نعمة الجاه والمال ، ولكنه كان يشكو
زمانه على غير ما كان يشكو البأسون من الكتاب والشعراء ، فنراه يقول :

« يأبى الدهر إلا ولوعاً بشمل وصل يشرده ، ونظام أنس يبدده ، ومخلب ظلم يحدده .
ولو أنبسطت فيه يدي لكسرت جناحه ، وخفضت جناحه ، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب
لراق ، والداء العضال لا يشفى منه طيب ولا واق » (٢) .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

« ولو أستطعت خلعت عليه سلامتي سربالا ، وأعرته من جسمي صحة وإقبالاً ، فلست
أتمهنأ بالعافية مع سقمه ، ولا أتمتع بنضارة عيشي مع شحوب جسمه » (٣) .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ يتيمة

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

« أنا في مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محمود بختيار صالب^(١) ، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفي تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خلة لا تواصل ، وفي القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحياثل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفي ، وبياضها جلدة بين عيني وأنتي ، وحاملها دون سائر الناس كفي . لولا التعلل باللقاء لتصدعت أ كباد وقلوب ، وكانت بيني وبين النوى شئون وخطوب . أنا في مفارقتك كبنات الماء نضب عنها الغدير ، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لاتفارق نفسي فيك أشواقها ، حتى تفرق الحمايم أطواقها . »

٤ — وأهتمام الميكالي بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام في وصف الكتب يتهداها الأصدقاء ومن أمثلة ذلك قوله :

« وصل كتاب مولاي وسیدی أبدع الكتب هوادی وأعجازاً ، وأبرعها بلاغة وإعجازاً ، فحسبت أفاضه در السحاب ، أو أصفى قطراً وديمة ، ومعانيه در السحاب ، بل أوفى قدراً وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف ، فائزة بقداح الحسن والظرف ، مالكة لزمم القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يتمتع بما منحه من هذه الغرر والأوضاع ، كما أطلق فيها السنة الثناء والامتداح . »

٥ — وبجانب هذه البراعة كان الميكالي كريم الأخلاق، وما ألطف ما يقول الثعالبي فيه : « وكثيراً ما أحكى للاخوان أنى أستغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت في أكثر أوقاتي على مجامسه ، وتعطرت بغيار موكبه ، فبالله يميناً كنت غنياً عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفاً من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدداً وشرفاً من أحواله ، وما رأيتُه أغتاب غائباً ، أو سب حاضراً ، أو حرم سائلاً ، أو خيب آملاً ، أو أطاع سلطان

الغضب في الحضر ، أو تصلى بنار الضجر في السفر ، أو بطش بطش المتجبر ، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعطاه ، والمآثم إلا ما يتخطاه .

٦- ونعود فنذكر أن صلة الميكالي بأصدقائه وألآفه أنتهبت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجوع أدبه إلى المعاني النفسية التي توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسم بين كتاب شوق ، أو رسالة عتب ، أو كلمة توجع ، أو خطاب اقتضاء ، أو مألكة تهنئة ، أو نميقة ثناء .
والظاهر من كلام عمر المطوعي في كتابه عن الشعراء أن الميكالي كان بليغ الأثر في أنفس معاصريه ، وأن فريقاً منهم كان يؤلف الكتب بإرشاده وفي ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق : لأن الميكالي فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية ، ولكن ينبغي الاحتياط في فهم هذه الفكرة : فقد كان الميكالي غنياً ، وكان بيته ملجأ الشعراء والكتاب والمؤلفين ، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب ، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧- صنعة الميكالي في شعره أظهر منها في نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليقة ، فإذا نظم تكلف ، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع ، وإلى القارىء قوله :
شافه كفى رشاً بقبلة ما شفت
فقلت إذ قبلها يا ليت كفى شفتي
وقوله :

من لى بشمل الأنس أجمعه بشادن حلّ فيه الأنس أجمعه
ما زال يعرض عن وصلى فأخذه فالآن لى لان بعد الصد أخذه^(١)
وهذا كما نرى تكلف ثقيل مججوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد ، من ذلك قوله :
عمر الفتى ذكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الدانى

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخداع .

وقوله :

كم والد يحرم أولادهُ وخيره يحظى به الأبدُ
كالعين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجملة القول أن الجيد من شره أكثر من جيد شره ، وهو فى كلا الفنين صناع اليد ذكى الجنان .

٨ - وسلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العلم مما يكفى لأن يكون الرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك إلى رقة القلب وقوة العقل وخفة الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة الفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستعبد طائفة من أحرار القلوب والعقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة القرىحة ، وطهارة الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٧ ، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقاً ظهر أثره في نثره وشعره . وكان في صباه جميلاً فتانا خفيف الروح ، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد انتقل إلى نيسابور سنة ٣٨٢ ، وكانت يومئذ موطناً لأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن يناظره علناً عند بعض الأمراء ، فقبل الخوارزمي بعد تردد ، ثم دارت المناقشة يوماً أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة نأستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب إليه أنظار الحاضرين ، فغلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف ، وسرى في الأقطار الإسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعراً ، وأحلى نثراً ، وأقوى حجة ، ثم مرض الخوارزمي حزناً ومات قبل أن ينقضى الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمي خلا الجو لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء ، وصار يتنقل في الحواضر الإسلامية بالشرق إلى أن استقر في هراة ، وصاهر أحد علماءها الأعلام ، وحسنت حاله ، وأقبلت عليه الدنيا ، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد استيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب العوث ، ولكن الناس لم يتنبهوا إليه إلا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه ، ولكنه مات من الرعب والفرع حين يئس من النجاة.

٢ - اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول الثعالبي في يتيمة الدهر : « بديع الزمان ، ومعجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطار ، وفرد الدهر ،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء
الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرد النظم ونكته، ومن
لم يرو ولم يرو أن أحداً بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان
صاحب معجائب، وبدائع وغرائب: فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي
أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفاً ولا يخل
معنى، وينظر في الأربعة والحمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم
يهدّ بها عن ظهر قلبه هدأً ويسردها سرداً... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء
رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان
ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جراً إلى الأول ويخرجه
كأحسن شيء وأملحه^(١)، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه
فيقرأ من النظم والنثر، ويروي من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها
الآيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من
الطرف، على ريق لا يبلمه، ونفس لا يقطع، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة،
ومسافة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات الحدّة، وثمرات المدّة، ومجاراة الخاطر للناظر،
ومباراة الطبع للسمع. وكان يترجم ما يقترح عليه من الآيات الفارسية المشتملة على المعاني
الغريبة بالآيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع، إلى معجائب كثيرة لا تحصى
ولطائف تطول أن تستقصى. وكان مع هذا كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن
العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف النفس، كريم العهد، خالص الودّ
حلو الصداقة، مرّ العداوة. وفارق همدان سنة ٣٨٠ وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة.
وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ما عنده، وأستنفذ علمه، وأستنزف
بحره. وورد حضرة صاحب فتزود من ثمارها، وحسن آثارها. ثم قدم جرجان وأقام
بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكنافهم، والاقتناس من أنوارهم، وأختص

(١) انظر شاهد هذا فيما سنعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨).

بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعه لديه ، وتوفر حظه من عاداته المعروفة في إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل . ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته ، وأراح عله في سفرته ، فوافاه في سنة ٣٨٢ ونشر بها بَرْد ، وأظهر طرزَه ، وأملَى أربعمائة مقامة^(١) نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها ، وضمنها ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين ، من لفظ أنيق قريب المأخذ ، بعيد المرام ، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجدّ يروق فيملك القلوب ، وهزل يشوق فيسحر العقول . ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً لهبوب ريح الهمذاني وعلو أمره ، وقرب نجحه ، وبعد صيته ، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحداً من الأدباء والكتّاب والشعراء ينبرى لمباراته ، ويحتريء على مجاراته ، فلما تصدّى الهمذاني لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان إلى العنان ، وقرع النبع بالنبع ، وغلب هذا قوم وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحكماكين ، والقرنين المتصاولين ، طار الهمذاني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الإقبال على أموره ، وأدرّ أخلاف الرزق وأركبه أكناف العز . وأجاب الخوارزمي داعي ربه فخلاً الجول للهمذاني وتصرفت به أحوال جميلة ، وأسفار كثيرة ، ولم يبق في بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها ، وجنى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء ، وسرى معه في ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم ، وألقى عصاه بهراه واتخذها دار قراره ، وجمع أسبابه . . . وخار الله له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشنامي . . . فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره ، وتعرفت القرعة في عينه ، والقوة في ظهره واقتنى بمعونته ومشورته ضياعاً فاخرة وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشده وأرنبى على أربعين سنة ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨ فقامت عليه نواذب الأدب ، وانتمى حد القلم . . . إلخ»^(٢) .

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦

(٢) اليتيمة ج ٤ ص ١٦٧ — ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع في كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصري البديع ، ولأنه أعطانا فوائده التاريخية على قلة ما يفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات في نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمي في ذلك الحين . وهذا يعين أن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان^(١) .

وتاريخ إنشاء المقامات الذي نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك . كقوله في المقالة القزوينية « غزوت الثغر بقروين ، سنة خمس وسبعين » .

٤ — أما المناظرة التي أشار إليها الثعالبي والتي استفاض ذكرها في كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهي وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه . وتبين تهافت الناس إذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة في القرن الرابع ، ومن أشهر من اهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدي ، غير أن التوحيدي كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحدثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما اقترح عليه . وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمي إلى العجز . كما يساق الماء إلى الأرض الجرز . ثم قال بعد كلام في الثناء على من وجه إليه الحديث :

« نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا ووطننا خراسان فما اخترنا إلا نيسابور داراً ؛ وإلا جوار السادة جواراً ، لا جرم أنا حططنا بها الرحل ، ومددنا عليها الطنب ، وقد بما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فتشوقه . ونخبره على المغيب فتعشقه ، ونقدر أنا لو وطننا أرضه ووردنا بلده ، يخرج لنا في العشرة ، عن القشرة ، وفي المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظمنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيبُ

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف ، واختلف ذلك التقدير كل الأختلاف ، وقد كان اتفق علينا في الطريق من العرب اتفاق ، لم يوجبه استحقاق ، من بزة برؤها ، وفضة فضوها وذهب ذهبوا به ، ووردنا نيسابور براحة أتقى من الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم^(١) بل أطلاعة الرقيب ، فما حللنا إلا قصبه جواره ، ولا وطننا إلا عتبة داره . وهذا بعد رقعة كتبناها ، وأحوال أنس نظمناها ، فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردي من أول دنه ، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه ، من طرف نظر بشره وقيام دفع في صدره ، وصديق استهان بقدره ، وضيف استخف بأمره ، لكننا أقطعناه جانب أخلاقه ، وفار بناه إذ جانب ، وواصلناه إذ جاذب ، وشر بناه على كدورته ، ولبسناه على خشونتته ، ورددنا الأمر في ذلك إلى زى استغته ، ولباس استرته ، وكاتبناه نستمد وداده ونسلس قياده ، ونستميل فؤاد ، ونقيم مناد .

٥ - وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح عله في سفرته إلى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق - وهو يسميهم « العرب » - فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال . وفكر عند وصوله في الاتصال بأبي بكر الخوارزمي ، ولكن الخوارزمي لم يكرم زيارته ، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث ، ولباس رث .

أما المراسلات التي سبقت المناظرة فهي خطاب من البديع وجواب من الخوارزمي . ولننظر كيف بدأ البديع يفرس بذور الشحاء :

« الأستاذ أبو بكر - والله يطيل بقاءه ! - أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة ، في أطهار الغربية ، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة ، وفي الاهتزاز له أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشر الكف ، ودفع في صدر القيام ، عن التمام ،

(١) يريد أن طلعة العلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب إلى الدرس ، ومعاذ الله أن تكون « طلعة العلم وحشة » في جميع الأحوال ! !

ومضغ الكلام ، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت ترييته صرعاً ، وأحتملته وزراً ، وأحتضنته نكراً ، وتأبطته شراً ، ولم آله عذراً ، فإن المرء بالمال ، وثياب الجمال ، ولست مع هذه الحال ، وفي هذه الأسمال ، أتقزز صف النعال ، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت إن بوادينا ناغية صباح ، وراغية رواح ، وناسا يجرون المطارف ، ولا ينعون المعارف .

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديّةٌ ينتابها القول والفعلُ

ولو طوّحتُ بأبي بكر أيده الله طوامح الغربة ، لوجد معنى البشر قريباً ، ومحط الرحل رحيباً ، ووجه المضيف خصيباً . ووجه الأستاذ أبي بكر أيده الله في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه ود ، والمر الذي يتلوه شهيد ، موفقٌ إن شاء الله تعالى .»

فأجاب الخوارزمي :

« وصلت رقعة سيدي ومولاي ورئيسي أطال الله بقاءه إلى آخر السكباج ، وعرفت ماتضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه إلى الضجر الذي لا يخلو منه من مسه عسر ، ونبا به دهر ، والحمد لله الذي جعلني موضع أنسه ، ومظنة مشتكي ماني نفسه ! أما ما شكاه سيدي ورئيسي من مضايقتي إياه في القيام فقد وفينه حقه أيده الله سلاما وقياما ، علي قدر ما قدرت عليه ، ووصلت إليه ، ولم أرفع عليه إلا السيد أبا البركات العلوي أدام الله عزه ، وما كنت لأرفع أحداً على من جدّه الرسول ، وأمه البتول ، ، شاهداه التوراة والإنجيل ، وناصره التأويل والتنزيل ، والبشير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدي عنهم فكما وصف حسن عشرة ، وسداد طريقة ، وكمال تفصيل وجملة ، ولقد حاورتهم فأحمدت المراد ، ونلت المراد :

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهله فما عهد نجدٍ عندنا بدميم

والله يعلم نيتي للاخوان كافة ، ولسيدي من بينهم خاصة ، فإن أعانني الدهر على ماني نفسى بلغت إليه ما في الفكرة ، وجاوزت مسافة القدر ، وإن طلع عليّ طريق عشرتي بالمعارضة ، وسوء المؤاخذة ، صرفت عناني عن طريق الاختيار ، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارةٍ إذا لم تكدر كان ضفوا معيها

وبعد فحبذا عتاب سيدى إذا أستوجبنا عتبا ، واقترفنا ذنباً ، فَمَا أن يسلفنا العربة
فحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا إنا
كنا خاطئين، ولكنى أسأله أن يقول لاثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء ، وانقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمى
« ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالى ، وتطاوت المدة » ومشى
الواشون بالسوء ، ودعا ناس إلى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمى وهش بديع
الزمان ، ثم ركب الخوارزمى فى جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال ،
ولنترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة^(١)

« ... فتركناه على غلوائه ، حتى إذا نقض ما فى رأسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا
عليه قلنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، واستزرنك وقصدنا غير المناوشة ،
فلتهدا ضلوعك ، وليفرخ روعك ، وما اجتمعنا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتلن فورتك ،
ولا ترقص لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملأ المجلس فوائد ، وتذكر
أبيانا شوارد ، وأمثالا فرائد ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسالنا فتسر بما عندنا ، ويقف
كل واحد منا موقفه من صاحبه ، وقديماً كنت أسمع بحديثك فيعجبني الالتقاء بك ،
والاجتماع معك ، والآن إذ سهل الله ذلك فهلم إلى الأدب ننفق يومنا عليه ، وإلى الجدل

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد
ولبين كيف استطاعت اللغة الثقيلة بالزخرف والسجع أن تؤدى نوعاً من القصص فى تدوين
المناظرات . وقد اسقطنا جزءاً من صورة هذه الوثيقة الأدبية فراراً من التظويل .

تتجاذب طرفيه ، فأسمع خيراً وأسمعنا مثله ، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفقت به أقرانك ، وملكك به عنانك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به أسمك بعد وقوعه ، وأرتفع له ذكرك عقب خضوعه ، وأفحمت به الرجال حتى أذعن العالم ، وقلد الجاهل ... فجاره بفرسك ، وجُدُّ لنا بنفسك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن اخترت ، والبديهة إن نشطت . فهذه أبوابك التى أنت فيها أبن دعواك ، تملأ منها فاك .

فأفحم عن الحفظ رأساً ، ولم يجل في النثر قدحاً . وقال :
أبادهك .

فقلت : أنت وذاك !

فقال إلى السيد أبى الحسين يسأله بيتاً ليجيز . فقلت : يا هذا أنا أ كفيك ، ثم تناولت جزءاً فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه ، وأسهر له جفنه ، وأجال فيه فكره ، وأنفق عليه عمره ، وأستنزف فيه يومه ، ودوَّنه فى صحيفة مآثره ، وجعله ترجمان محاسنه ، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتاً ، وسأقرن كل بيت بوقفه ، وأنظم كل معنى إلى لِفقه ، بحيث أطيب أغراضه ، ولا أعيد ألفاظه ، وشريطتى أن لا أقطع النفس ، فإن تهباً لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر ، يريد النظر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أولى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أمليته على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة ، ويتنحى لنا عن أرض الماثلة ، ويخلى الطريق لمن يبني المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاءه الآن ؟

فقلت : أقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أفق به إلا عليها ، ومثال ذلك أن نقول (حشر) فأقول بيتاً آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتاً قافيته (عشر) ثم هلم جراً إلى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق^(١) ، وتستقرّ الحجة ، وتستقل الشبهة ، وتنطرد فيعرف الخالي من العاطل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا في هذا العنان ، ومال إلى السيد أبي الحسين يسأله بيتاً ليحيز فتبعنا رأيه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفهه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذي قاله ، وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكهِ	وبروكه عند القريض ببركهِ ^(٢)
متسرع في كل ما يعتاده	من نظمه متباطيء عن تركهِ
والشعر أبعد مذهباً ومصاعداً	من أن يكون مطيعه في فكهِ
والنظم بحرٌ والخواطر معبرٌ	فانظر إلى بحر القريض وفكهِ
فتى تواني في القريض مقصّر	عرّضت أذن الامتحان بعركهِ
هذا الشريف على تقدّم بيته	في المكرمات ورفعه في سمكهِ
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرين السوء إن لم أنكهِ ^(٣)
وإذا نظمت قصمت ظهر مناظري	وحطمت جارحة القرين بدكهِ
ودبغت منه أديمه وتركته	نهج الأديم بدبغه وبدكهِ
أصغو إلى الشعر الذي نظّمته	كالدرّ رصّع في مجرّة سلكهِ
فتى عجزت عن القريض بديهة	فدمى الحرام له إراقه سفكهِ

وقال أبو بكر أبياتاً جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من اللحاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فمالك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفي القرآن (ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً) أى عمياً . (٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكاية وهى الإهانة .

تعق أبنيك وتضميه؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون الهرة أعقل منه لأنها تحدث فتغطي ، فلم يستجريء أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه للبدية فسادون أن يكتب . قلنا : أنت وذاك . واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق على أرق ومثلي يأرقُ وجوى يزيد وعبرة تترقُ
وابتدر أبو بكر أيده الله إلى الإجازة ولم يزل إلى الغايات سباقا فقال :

وإذا ابتدعت بدية يا سيدي فأراك عند بديتي تتلقُ
وإذا قرضت الشعر في ميدانه لاشك أنك يا أخي تتشقق
إني إذا قلت البدية قلتها عجلا وطبعك عند طبعي يرتق
مالي أراك ولست مثلي عندها متموهاً بالترهات تمخرق
إني أجز على البدية مثل ما تريانه وإذا نطقت أصدق
لو كنت من صخرٍ أصم لهاله مني البدية واغتدى يتفلق
أو كنت ليثاني البدية خادراً لرئيت يا مسكين مني تفرق
وبدية قد قلتها متنفسا فعل الذي قد قلت ياذا الأخرق

ثم وقف يعتذر ويقول : إن هذا كما يحىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكني أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف كجبل قاف ، منها تتفلق وتتشقق وتمخرق وتمخرق وتطلق وتعلق وتبرق وتفرق وأحمق وأخرى إلى أشياء لا أكثرها العدد ، فخذ الآن جزاء عن قرضك ، ، وأداء لقرضك ، وقلت :

مهلاً أبا بكر فزندك أضيق فاحرس فإن أخاك حيُّ يرزق
دعني أعرك إذا سكت سلامةً فالقول ينجد في ذويك ويعرق
ولفاتك فتكاتُ سوء فيكمُ فدع الستور وراءها لا تمخرق
وانظر لأشنع ما أقول وأدعي ألهُ إلى أعراضكم متسلق
يا أحمقا وكفأك ذلك خزبةً جربت نار معرتي هل تمخرق

فلما أصابه حر الكلام ، ومسه لفتح هذا النظام ، قطع علينا فقال : يا أحمق لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف . فقلنا : يا هذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب فليس بظرف ظرف ، ولو شئنا لقطعنا عليك ، ولوجد الطعن سبيلا إليك . وأما أحمق فلا يزال يصنعك لتصفه حتى ينصرف وتنصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يردّ مالا ينصرف إلى الصرف كما أن له رأي في القصر والحذف ، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب مالا يجوز لك . فلم يدر كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه الواقعة ، وكيف يسلم من هذه المصارفة ، لكننا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت ، وزكيت أم جرحت ؟ ففيه شيان متفاوتان ، ومعنفان متباينان ، منها إنك بدأت فخطبت بيا سيدي ، والثانية إنك عطفت فقلت تتقلق وها لا يركضان في حلبة ولا يخطان في خطة . ثم قلت له : خذ وزمان الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفى حظنا ، ثم إنى أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ على إنفاسي ووافقني عليها فإن عجزت عن اختلافها حفظتها لك ، فسلى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبي الطيب المتنبي :

أهلا بدار سباك أغيدها أبعده ما بان عنك خردها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بمخنق البيت قبل تمامه ، ومضيق الشعر قبل نظامه ، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا ، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى جحد ، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه برياً وفرياً ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك ؟ والعهد بيننا أن تسكت ونسكت حتى تم ونتم ، ثم نبحت ونفحص ؛ فنبذ الأدب وراء ظهره وصار إلى السخف يكيلنا بصاعه ومده ، وينفض حمة جهده وأفضى إلى السفه يغرف علينا غرفا ، ويستقي من جرفه جرفاً . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة ، فإن نفضت من هذا السخف يدك وثبتت عن هذا السفه قصدك ، وإلا تركت مكالمتك . ولو كان

في باب الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار ، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار ، بلوغته منك . فأخذ يمضي على غلوائه ، ويمعن في هرائه وهذائه . فاستندت إلى المسند ، ووضعت اليد على اليد ، وقلت استغفر الله من مقاتلك ونفضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس ، وأيقن الجلاس ، أني أملك من نفسي ما لا يملكه ، وأسلك من طريق الحلم ما لا يسلكه ، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي ، وتعجبوا من فضلي ، وبقي الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي ، وأن تكلفي لاسفه أشد استمراراً من طبعك ، وغرّبي في السخف أمتن عوداً من نبعك ، وسنقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك فتكلم الآن . فقال لي : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قلته . فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت : أما قولك أهل همدان فما أولاني أن أجيب عنه ولكن هذا الذي تتمدح به وتتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت لخصمت وأجنديت فأقتنيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ، ولأن يقال للرجل يا فاعل يا صانع أحب إليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكدي ! وقد صدقت ، أنت في هذه الحلبة أسبق ، وفي هذه الحرفة أعرق . ولعمرك أنت أشحذ ، وفي الكدية أنفذ ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة ، حديث الورد لهذه الشريعة ، مرمل اليد في هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودى يماثلك في مذهبه ، ويزيدك بذهبه ، ومع ذلك لا يطرفني إلا بعين الرهبة ، ولا يمد إلى إلا يد الرغبة ، ولو كان الغنى حظاً لأخطأه مثل هذا العقل ، ولو كان المال غمماً لما أدرك بهذا السعى . ولكن عرفني هل كنت فيما سلف من زمانك ، ونبت من أسنانك ، إلا هاربا بدمائك ، مضرجا بدمائك ، مرتهاً بقولك بين وجنة موشومة ، وجوارح مهشومة ، ودار مهدومة ، وخطود ملطومة . ومتى صفت مشارعك ، واخصبت مرابعك ، إلا في هذه الأيام القذرة ؟ وستعرف غدك من بعد ، وتنكر أمسك ، وتعلم قدرك في غد ، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتاً أنطقته بذكرك ، ولساناً دنسته باسمك ! وملت إلى القوال فقلت أسمعنا خيراً فدفع القوال وغنى أبيتاً منها :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخلد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما في الأمر أني أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها ، فقلت : يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها ، ولم يسرك مصنوعها ، فقال : أنشد ! فقلت : أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فأنته السكتة ، وأضجرتة النكتة ، وأنطقتك تلك الوقدة ، وأنحلت تلك العقدة . وأطرق ملياً وقال : والله لأضربنك وإن ضربت ، ولأشتمنك وإن شتمت ، ولتلعمن نبأ بعد حين ، ولتلعمن أيننا الضارب وأيننا المضروب ! فقلت : يا أبا بكر مهلاً فإنك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك وثلاث أحوال لم تتعدها في أمرك ، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك ، متعدّ في تهديديك ، لأنك كهمل وأنت شاعر ، وكنت شاباً وأنت مقامر ، وكنت صبيّاً وأنت مؤاجر ، فنطاق القدرة في الفصول الثلاثة ضيقٌ عن هذا الوعيد ، لكننا نصفعك الآن وتضربنا فيما بعد ، فقد قيل اليوم قصف ، وغداً خسف ، وقيل اليوم خمر ، وغداً أمر ! فقال أبو بكر : والله لو دخلت الجنة ، واتخذت السندس والإستبرق جنة ، لصفعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غداً في درج في خرج في برج لأخذك من النعال ما قدّم وما حدث ، وشملك من الصفع ما طاب وخبث ، وأنشدت قول ابن الرومي :

إن كان شيخاً سفيهاً يفوق كل سفيهٍ
فقد أصاب شبيهاً له وفوق الشبيهِ

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت أمراً لا أشاكله
أحامقه حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودُفع القوال فبدأ بأبيات ، ولحن بأصوات ، وجعل النعاس يثني الرؤوس ، ويمنع الجلوس ، فقمنا عن الليل وهو بجره مائل الذقن إلى ماوئطىء من مضجع ، ومُهَّد من مهجع ، ولم يكن النوم ملء الجنون ، ولا شغل العيون ، حتى أقبل وفد الصباح ، وحيعل المؤذن بالفلاح ، وندب إلى النهوض ، بالمفروض ، فأجبنا . فلما قضينا الفرض ، فارقنا الأرض ،

فأوى إلى أم مشواه وأويت إلى الحجره وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما ، ويبيكى على ما جرى دمعاً ودماً ، فإنه إذا سمع بحديث همدان قال : الهاء هم والميم موت ، والذال ذل ، والألف آفة ، والنون ندامة ، وأنه إذا نام هاله منا طيف ، وإذا أنتبه راعه منا سيف ، وأخذ الناس يتراشون بما جرى ويتغاضون ، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ما راب المريض تغامز العواد فجعل يحلف للناس بالعتق ، وتحرير الرق ، والمكتوب فى الرق ، إنه أخذ قصب السبق ، وإنه ينطق عن الحق ، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين ! وسعوا. بيننا بالصلح يحكون قواعده ومقاعده ، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتذرين إليه فأوما إيماءً مهبضة ، وأهتز أهتزازة مغيضة ، وأشارة إشارة مريضة ، بكف سحبها على الهواء سحباً ، وبسطها فى الجوّ بسطاً ، وعلمنا أن للعمور أن يستخف ويستهم ، وللمقامر أن يحتمل ويلين ، فقلنا إن بعد الكدر صفواً ، كما أن عقب المطر صحواً ، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها ، وطرق فى الخلطة نسلكها ، فإن ثمرة الخلاف ما قد بلوتها ؟ فقال ظهر الوفاق لفظاً كما ذكرت ، والجليل أجمل كما علمت ، وسنشرك هذا العنان . وعرض علينا الإقامة عنده سحابة ذلك اليوم ، فاعتلنا بالصوم ، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك قطعنا عنده ، وأخذنا دندانُ مزده ، وخرجنا والنية على الجليل موفورة ، وبقعة الود معمورة ، وصرنا لا تتعل إلا بمدحه ، ولا تتنقل إلا بذكره ، ولا نعتد إلا بوده ، لا بل ملأنا البلد شكراً ، والأسماع نشراً ، وبتنا نحن من الحال فى أعذبها شرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة ، ومن المودة فى أعزها بقعة ، وأوسعها رقعة ، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقاتته ، مؤديان لرسالته ، ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار ، وتظاهرت الآثار ، فى أنك قهرت وأنى قهرت ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل ، قبله العقل . ولا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنناظر بمشهد الخاصة والعامه ، فإنك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتى أو تفر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل العجب مما سمعت ، وأجبتة فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قهرت وأن ذلك عن جهتى صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك ، ولا أتبجح

بقسرك . وإن لنفسك عندك لشأنًا إن ظننتني أقف هذا الموقف ، أنا إن شاء الله تعالى
أبعد مرتقى همة ومصعد نفس أسأل الله سترًا يمتد ووجها لا يسود ! فأما التواتر من الناس
والتظاهر على أنى قهرتكم فلو قدرت على الناس لخطت أفواهم ، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة
وهل إلى ذلك سبيل فأتوسل ، أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواتر ، ثمرة ذلك التناظر ،
مع ذلك التساتر ، فإن كان قد ساءك فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى
الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفًا فيه خيرٌ لك من أن يُنق عليه . وإن أحببت أن تطير
هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك موقفًا . فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوارحي
أجمع وجوارحي كلها فلم تنشد إلا بيت القائل :

وعيدٌ تخرج الآرام منه وتكره نية الغنم الذئبُ

فكم تتكوكب تلامذتك ويتعسكرون ، ويتجيش أصحابك ويتجمعون ، ولست
أراك إلا بين ثنتين : إحداهما تروح إلى أنتى وتعدو إلى طفل ، والأخرى تجيب دعوة
المضطر إذا دعاك بمسلمات . فإن كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفر من
القدر المتاح ، رزقنا الله عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بطيش ! وقلنا من بعد إن
رسالتك هذه وردت موردًا لم نخسبه ، ووصلت موقفًا لم نرتقبه ، فلذلك خرج الجواب
عن البصل ثوما ، وعن البخل لوما . فلما ورد الجواب عليه وسع من الغيظ فوق ملئه ،
وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال : قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا في أمرك ،
وسترى في يومك ، وتُعرف في قومك ! ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل
ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالعدل ، فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس في دار
الشيخ أبي القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت الطرف من ذلك السيد في عالم أفرغ في عالم
وملك في درع ملك ورجل نظم إلى التنبل تبدلا وإلى الترفع تواضعا ، ونطق فودت
الأعضاء لو أنها أسمع مصغية وأستمع فتمنت الجوارح لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله
أن عقد هذا المجلس في دار من يفرق بين من يُحق ومن يزرُق^(١) وكنت أول من حضر
وأنتظرت مليًا حضور من ينظر وقدوم من يناظر ، وطلع الإمام أبو الطيب وأخذ من

(١) من زرق الطائر إذا أخرج مافي أمعائه .

المجلس موضعه ، والإمام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحي والمحتجب بفناء النبوة والضارب في الأدب بعرقه ، وفي النطق بحذقه ، وفي الإنصاف بحسن خلقه ، فحشم إلى المجلس قدام سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موّه عليه ، وحديث كان شبهً لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد أنا إذا سار غيري في التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا متّ سواي في موالاته أهل البيت بلحمة دالة توسلت بغيره لأئمة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لي في آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتي البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المياه ، وسارت في البلاد ، ولم تسر بزاد ، وطار في الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكني أتسوق بها لديكم ولا أتفق بها عليكم ، وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين أذخرتها لا للدنيا . فقال أنشدني بعضها فقلت :

يا لمةً ضرب الزمان	ن على مُعرّسها خيامه
لله درك من خزا	حى روضة عادت ثغامه
لرزية قامت بها	للدين أشرط القيامة
لمضرج بدم النبوة	ة ضارب بيد الإمامه
متقسم بظبا السيو	ف مجرّع منها حمامه
منع الورود وماؤه	منه على طرف الثمامه
نصب ابن هند رأسه	فوق الورى نصب العلامه
ومقبّل كان النبيُّ	بلثمه يشفى غرامه
قرع ابن هند بالقضيب	عذابه فرط استضمامه
وشدا بنغمته عليه	وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلج ساطع	والعدل ذو خال وشامه
يا ويح من ولّى الكتائب	ب قفاه والديننا أمامه
ليضرسن يد النداء	مه حين لا تغنى الندامه

وليدركن على الغرامه مة سوء عاقبة الغرامه
 وحى أباح بنو أمية من طوائهم حرامه
 حتى أشتفوا من يوم بدرٍ وأسبدوا بالزعامه
 لعنوا أمير المؤمنين بمثل إعلان الإلامه
 لم لا تخزى يا سما ١ ولم تصبى يا غمامه
 لم لا تزولى يا جبال ولم تشولى يا نعمامه
 يا لعنة صارت على أعناقهم طوق الحمامه
 إن العمامه لم تكن للثيم ما تحت العمامه
 من سبط هند وأبنا دون البتول ولا كرامه
 يا عين جودى للبقيع وزرعى بدم رغامه
 جودى بمذخور الدموع وأرسلى بدداً نظامه
 جودى بمكنون الدموع أجد بما جاد ابن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت ، وسردت ما سردت . وكشفت له الحال فيما أعتقدت ،
 انحلت له العقدة وصار ساما يوسعنا حاما ، وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك
 من حاكم يفضل ، وناظر يعدل ، يسمع فيفهم ، ويقول فيعلم . ثم حضر ذلك القاضى أبو نصر
 والأدب أدنى فضائله ، وأيسر فواضله ، والعدل شيمه من شيمه ، والصدق مقتضى همه .
 وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيده الله وهو الرجل الذى يحميه لألاؤه ولودعيته
 من أن يذال بمن أو ممن الرجل ، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء ،
 ويركض فى حلبة العلم ما أراد . وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفيراره ،
 وفى العلم شعلته وناره . وحضر بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه ، وقائد العقل يخدمه .
 وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ وإليه يعود . وحضر بعده أصحاب
 الإمام أبى الطيب الأستاذ أيده الله .

« وما منهم إلا أغر نجيبٌ » .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبي الحسن الماسرجسى :

« وكلُّ إذا عدَّ الرجال مقدّمٌ »

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبي عمر البسطامي وهم في الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمداني وله في الفضل قِدحه المعلى وفي الأدب حفظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسئلة المسئلة ، والأسوكة المرسله ، رجال يلعن بعضهم بعضاً فصاروا إلى قلب المجلس وصدده حتى رد كيدهم في نحرهم وأقيموا بالنعال إلى صف النعال ، فقلت لمن حضر : من هؤلاء ؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمي ، فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حضر ، وانتظر أبو بكر فتأخر ، اقترحوا على قوافي أثبتوها واقترحات كانوا يبتوها ، فما ظنك بالهلفاء أدنيت لها النار من لفظ إلى المعنى نسقته ، وبيت إلى القافية نسقته ، على ريق لم أبلعه ، ونفس لم أقطعه ، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت ، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن تؤمن لك حتى تقترح القوافي ونعين المعاني وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروى الذى أسومه ، وذكرت المعنى الذى أرومه ، فأنت حى القلب كما عهدناك ، منشرح الصدر كما شاهدناك ، شجاع الطبع كما وجدناك ، وشهدنا أنك قد أحسنت ، وأن لافتي إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى أرتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام ، مالم ترم الأحلام ، وجادهم العيان بما بجل به السماع ، وأنجزهم الفهم ما أخلفهم الوهم ، ثم التفت فوجدت الأعناق تلتفت وماشعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع في شملته وهب بجملته ، بأوداج ما يسعها الزران ، وعينين في رأسه تزران ، ومشى إلى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر ترحزح عن الصدر قليلا إلى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار ، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرني والمناظرة أشتقت إمامن النظر أو من النظر ، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . فقضت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وانحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصاً على اللقاء ، سريعاً إلى الهجاء

« ولو زبنتك الحرب لم تترمم » .

ففي أى علم تريد أن تتناظر؟ فأوماً إلى النحو، فقلت : يا هذا إن اليوم قدم مع ، والنهار قد ارتفع ، والظهر قد أظف ، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه ، فبماذا يخرج الناس ، فعلا هتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدري الجيب . فإن شئت أن أناظرك في النحو فسلم الآن لى ما كنت تدعيه من سرعة فى البدئية وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل ، ثم أنا أجازيك فى هذا ، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر فى غير هذا ، وارتفعت المضاجعة واستمرت الملاحظة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر إليه فقال : أيها الأستاذ أنت أديب خراسان وشيخ هذه الديار وبهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب ، كنا نعتقد لك السبق والحدق ، وتتأقك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم ، واضطره إلى منازلة أو نزول عنها ومقارة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ ، فأنشدت قول القائل :

ومستلّم كشفت بالرمح ذيله أقت بعضب ذى شقاشق ميله
فجعت به فى ملتقى الحى خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفتينا مؤونة الامتحان، ولم نضع وقتاً من الزمان ، فلو تفضلت وسلمت البدئية أيضاً مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجراً ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقدم ، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ ، فقلت : الراجع فى شيتيه ، كالراجع فى قيئه ، لكننا نريك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتاً من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلى عشرين مرة ، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً ، كما سلمه بادياً ، وصرنا إلى البديهة ، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضٍ ورمى سواد قرونه ببياضٍ

فأخذ أبو بكر يمحصد ، ويحصد ، مقدراً أنا نغفل عن أنفاسه ، أو نوليه جانب وسواسه ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها ، فقال :

يا قاضيا ما مثله من قاضٍ أنا بالذى تقضى علينا راضٍ
فلقد لبست ضفية ملمومة من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تعضين إذا نظمت تنفساً إن العضا في مثل ذلك تعاض
فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض
ولقد قرضت الشعر فاسمع واستمع لنشيد شعر طائعا وقراض
فلا غلبن بديهة بديهتي ولأرمين سواده ببياض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية ملمومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأنكر أن يكون له قافية ، فوافقه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى قولك ذئب غاض ؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا ، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وانقلبت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا ، فما معنى قولك إن الغضا في مثل ذلك تعاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء ، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأنكر البيت جملة ، فقلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك ، وتترا منه وهو يلحق بك فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدراً من قرضت الشعر ولكن هلاقت كما قلت وسقت الحشو إلى القافية كما سقته ؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحرابي والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقة من الأفاضل مع عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة ، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة إلى واحد يصرف عنهم عين

الكَمال^(١) ! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر واليد والذراع والقدم وفي الأدب هم وهم وفي العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبياتاً أنكرها فدعوني من البديهة على النفس واكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه ، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه	فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعنبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصنل ومكفر	في حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صوادح	مثل المغنى شاديا بغنائه
والورد ليس بمسك رياه إذ	يهدي لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجبر	وجلوت للرأين خير جلائه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
بجى أعز محجّر وندى أغر	محجل في خلقه ووفائه
يعشو إليه المحتوى والمحتدى	والمحتوى هو هارب بذمائه
ما البحر في تزخاره والغيث في	إمطاره والجو في أنوائه
بأجل منه مواها ورغائبها	لا زال هذا المجد حلف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متمدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء ، وإبطاء ، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين رداً وقدنا عليه فيها كذا نقداً ، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وفتية وأديب : رأيتم لو أن رجلاً حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون امرأته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : انقد على فيما نظمت ، واحكم كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال : نظرت لكذا وإنما يقال : نظرت إليه ، فكفتنى الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

بالحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت: يا رقيع، إذا جاء الربيع، كانت شواذى الأطيوار، تحت ورق الأشجار، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار. ثم قال لى: لم قلت مثل الحصنات مثل المعنى، فقلت: هن في الخدر كالحصنات وكالمعنى في ترجيع الأصوات. ثم قال: لم قلت زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت: ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة. ثم قال: ما معنى قولك الغيث في إبطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت: لاسقى الله الغيث أديباً لا يعرف الغيث! وقلت له: إن الغيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب. وقال الجماعة: قد علمنا أى الرجلين أشعر، وأى الخصمين أفدر، وأى البديهتين أسرع، وأى الرويتين أصنع. فقال أبو بكر: فاسقوني على الظفر. فقالوا: كفاك ما سقاك! ثم ملنا إلى الترسل، فقلت: اقترح على غاية مافى طونك، ونهاية مافى وسعك، واختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف في الترسل فإن سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخلف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن أقول لك: أكتب كتاباً يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك: أكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك وانظم شعراً فى المعنى الذى أقترح وافرج منهما فراغاً واحداً، هل كنت تمد له ساعداً؟ أو أقول لك أكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل ولا تغافل حتى إذا كتبت ذلك قرىء من آخره إلى أوله وانتظمت معانيه إذا قرىء من أسفله، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً، أو تجيل قدحا، أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك: أكتب كتاباً إذا قرىء من أوله إلى آخره كان كتاباً، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً. هل كنت فى هذا العمل وارى الزند، قاصد القصد؟ أو قلت لك: أكتب كتاباً فى المعنى الذى يقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهية ولا يحجم فيها قلمك، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك: أكتب كتاباً خالياً من الألف واللام تصب معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه، هل كنت تقف من ذلك موقفاً مدوحاً أو يبعثك ربك مقاماً محموداً؟ أو قلت لك: أكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل؟ أو قلت لك: اكتب كتاباً أوائل سطوره كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك: اكتب كتاباً إذا قرىء معرّجاً وسرد معوّجاً كان شعراً هل كنت تقطع فى ذلك شعراً؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك، وتقطع ولكن من ذقنك! أو أقول لك: اكتب كتاباً إذا فسر على وجه كان مدحا وإذا فسر على وجه كان قدحا. هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك: اكتب كتاباً إذا كتبتك تكون قد حفظته، من دون أن لحظته، هل كنت تتق من نفسك به إلا ما لا أطاولك بعده، بل أست البائن أعلم؟! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبة، فقلت: وهذا القول طرمذة! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أبحاثك على مكنونها، وأكثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك، وأسبر فيها لسانك وفمك، فقال: الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم، المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبة؟ فقال نعم: فقلت: هات الآن حتى أطاولك بهذا الجبل وأناضلك بهذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك، ويعارض إنشأى بإنشائك. وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأقطاعها والأسعار وغلاؤها.

فكتب أبو بكر بما نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

« الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة، بهما يتوصل إلى جنات النعيم، ويخلف فى نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى: « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم ». وقد بلضنا من فساد النقود ما أكبرناه أشدّ الإكبار، وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد، وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا فى ذلك ما يربح للناس فى الزرع والضرع، ويعود إليه أمر الضر والنفع. »

إلى كلمات لم تعلق بحفظنا.

فقلت : إن الإكبار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع أسجاع قد نبتت في المعد، ولم تزل في اليد، وقد كتبت وكتبت، ولا أطالبك بمثل ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقي وبقيت الجماعة وبهت وبهت الكافة وقالوا لي : اقرأه، فجعلت أقرأه منكوساً وأسرده معكوساً والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر، صدور بها وتملاً المنابر، ظهور لها وتفرع الدفاتر، وجوه بها وتمشق الحابر، بطون لها ترشق، آثاراً كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه، في تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل، هذا ويرفع الدين، أهل عن الكل، هذا يحط أن في إليه تتضرع ونحن واقفة، والتجارات زائفة، والنقود صيارفة، أجمع الناس صار فقد كريماً نظراً لينظر شيمه، مصاب وانتجعنا كرمه، بارقة وشمنا هممه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا، وجوهه وكشفنا آمالنا وفود إليه بعثنا فقد نظره بحميل يتداركنا أن ونعماءه تأييده وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار^(١) .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضاً فلما إلى اللغة، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذى كتبها وتلك مؤلفاتها فخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت إن نشطت ومجمل اللغة إن اخترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت . وأقترح على أي

(١) هذا الخطاب في ظاهره مغلق، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعماءه، أن يتداركنا بحميل نظره، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا وكشفنا له وجوه أحوالنا، وعلقنا رقاب آمالنا على هممه، وشمنا بارقة كرمه، وانتجعنا مصاب شيمه، لينظر نظراً كريماً، فقد صار الناس أجمع صيارفة، والنقود زائفة، والتجارات واقفة، ونحن تتضرع إليه في أن يحط هذا الكل عن أهل الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديه، على مقتضى آمالنا فيه، كانت آثاراً ترشق لها بطون الحابر، وتمشق وجوه الدفاتر، وتفرع لها ظهور المنابر، وتملاً بها صدور المحاضر إن شاء الله .

باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقداً ، وأسرده عليك سرداً ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أمساه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسألك عما عداه ، فوقف حمارة ، وخذت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضاً فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يقدونني بالأمهات والأب ، ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشى عليه وقت إليه فقلت :

يعز عليّ في الميدان أني قنلت مناسبي جلدأ وقهراً
ولكن رمت شيئاً لم يرمه سواك فلم أطق ياليت صبراً

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة ؟ وتفرق الناس وحسبنا للطعام مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقتنا على الخوان ، كرعت في الجفان ، وأسرعت إلى الرغفان ، وأمعنت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضمًا ، ولا ينال إلا شماً ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرّى ويفيض عن نفس ملأى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك منة وفيك مسكة :

يا قوم إني أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرني يا أبا بكر لم غشى عليك ؟ فقال : لحمي الطبع وحمي الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حمي الطبع وحمي الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجد والمهزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاماً يصير في بطنه مغصاً ، وفي عينه رمصاً ، وفي جلده برصاً ، وفي حلقة غصصاً ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير في عينك قذى ، وفي حلقتك أذى ، وفي صدرك شجى ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن : بفيك البرا ، وعلى هامك الثرى ، ولا أطعمك الخ... إلامن ورا ، كما ترى فقالوا : أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا إلى وقالوا : ملكت فأسجع! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفذها ، أو يدخر علينا كلة لم يعرضها ، فقال : والله لأتركك بين الميمات ، فقلت : ما معنى الميمات ؟ فقال : بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم ، فقلت : وأتركك بين الميمات أيضاً بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والهام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منحوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس وبين الخاآت فقد فتحت علينا باباً بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ وبين البآآت فقد علمتني الطعن وكنت ناسياً بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب . وإن شئنا كلنا بهذا الصاع ، وطاولنا بهذا الذراع ، وعرضنا عليك من هذا المتاع ، وكأثرناك بهذه الأنواع ، ثم خرجت واحتجرت فقد كان اجتمع الناس وغلت الكروش ، ولما خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه ثقيلاً ، وبالآفواه تبجيلاً ، وأنتظروا خروجه إلى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل مجنوده وخلع الظلام عليه فروته .

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه ، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله .

١٦ - نثر بديع الزمان

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الإنسانية . وإذا كان هناك كتاب يخاطبونك بما لانفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمت النفسية والروحية هي أزمتك أنت لو درست نفسك وتطلعت إلى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حياً ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

« فإني وإن كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهري البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاغت يدي النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، وبلوت طعمى الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فماتكاد الأيام ترينى من أفعالها غريباً ، أو تسمعنى من أحوالها عجيباً . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتي سمعه وبصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره » (١) .

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فوراً نفسه وهي مضطربة متأججة، فزى في كتاباته صورة نفسه وهي تتوثب كما تتوثب السنة الجحيم، كقوله في خليفة أبي نصر الميكالى بهراة :

« وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة. أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة مندورد، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن أستطعت أن ترانى محتاجاً فاستطع

« أن أراك محتاجاً إليك ، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لمثلك ! »^(١) وليتأمل القارىء
« إن استطعت أن ترانى محتاجاً فاستطع أن أراك محتاجاً إليك » فإنه غاية فى التهكم اللذاع.

وفى مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لحمى حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت
طعاماً لكنت الأكلة التى تمنع الأكلات...ومن شتمنى من خلف ، فجزاؤه مائة ألف ، وإذا
انتهت الدعوة إلى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق فى ولايته إلا قليل ، والله ما يصلح لحمى للقديد ،
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه ليأبى فى المضغ ، وينشب فى الحلق ، ويقلق فى البطن ،
ولا يخرج من المعى إلا مع الأمعاء ، وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وإن كانوا شهاوى »^(٢)

٣ -- وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبى بكر الخوارزمى ، وكان لذلك مغرماً بالنيل
منه والوقوع فيه . ومرض الخوارزمى ، فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهينه بمرض عدوه
فغضب لذلك ورأى فى هذه التهينة لئوما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نبله ، وقذف
صديقه ذاك بالكلمة الآتية^(٣) :

« الحر ، أطل الله بقاءك ، لاسيما إذا عرف الدهر معرفتى : ووصف أحواله صفتى ،
إذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهى أمانى ، فإن وجدت فهى عوارى ، وأن
محن الزمان وإن مطلت فستفد ، وإن لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها
فى نفسه ، ولا يعدهما فى جنسه ؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت ، وإن لم يمت فسيموت ،
وما أقيح الشامتة ، بمن أمن الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ،
والدهر غرثان طعمه الخيار ، وظلمان شر به الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم
يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه
ودا جميلا ، والحر عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب

الأحقاد ، فلا تتصوّر حالى إلا بصورتها من التوجع لعنته ، والتحزن لمرضه ، وقاد الله المكروه ، ووقانى سماع السوء فيه ، بحوله ولطفه .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها ، وموضوعها ، وله رسالة تشبهها كتبها إلى أبى عامر الضبي يعزيه فى بعض أفكاره وفيها يقول :

« أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى إذا ساء ، ويختص بالنعمة إذا شاء ، فلينظر الشامت فإن كان أفلت ، فله أن يشمت ، ولينظر الإنسان فى الدهر وصروفه ، والموت وصروفه ، من فاتحة أمره ، إلى خاتمة عمره ، هل يجد نفسه ، أثراً فى نفسه ، أم لتدييره ، عوناً على تصويره ، أم لعمله تقديماً لأمله ، أم لحياه ، تأخيراً لأجله ؟ كلا ، بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً ، خلق مقهوراً ، ورزق مقدوراً ، فهو يحيا جبراً ، ويهلك صبراً . وليتأمل المرء كيف كان قبلاً ، فإن كان العدم أصلاً ، والوجود فضلاً ، فليعلم الموت عدلاً . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ما ساء ليذهب ماضر بما نفع ، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمنة ، هل يرى إلا محنة ، ثم ليعطف يسرة ، هل يرى إلا حسرة ؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفتن لهذه الأسرار ، وعرف هذه الدار ، فأعد لنعيمها صدرأ لا يملؤه فرحاً ، ولبؤسها قلباً لا يطيره جزعاً ، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة حداً ، وللعارية رداً . ولقد نعى إلى أبو قبيصة قدس الله روحه ، وبرد ضريحه فعرضت على آمالى قعوداً ، وأمانى سوداً ، وبكيت والسخرى يجود بما يملك ، وضحكت وشر الشدائد ما يضحك ، وعضضت الإصبع حتى أدميته ، وذممت الموت حتى تمنيته ، والموت خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً ، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها ، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها ، وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها ، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها .. الخ » .

٤ — وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الإنسان وينتهى بالدرس إلى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود ، فقد خلق من حيث لا يريد ، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا العوبة صغيرة فى يد القدر يرفعها حين يشاء ، ويرمى بها فى الفناء حين يشاء .

ولأيقف بديع الزمان عند هذا الحد ، وإنما يمضى فيدعوك إلى سياسة نفسك ، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتتؤول بجانبها سيئاته ، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة ، ويدعوك إلى أن تعد لنعم الدنيا صدرًا لا يملؤه الفرح ، وقلبًا لا يطيره الجزع ، وتلك هي السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع في هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعراء ، فقد أخحكه الحزن وأبكاه ، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحر في رد العزيز المفقود ، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى الحزنون بقهقهة الجانين . وقد وصل البديع إلى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان ، ووصل إلى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر ما فيها من العيوب . وهو بهذا ينظر إلى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم المبيت والشر المستطير .

٥ - لكن هذه الساحة النفسية ليست سمة غالبية في بديع الزمان ، فهو في أكثر الأحوال رجل ما كر خبيث ، ومقاماته تنتهى إلى فلسفة واحدة هي السخرية من العالم وأقتناص ما يملكون بشتى الخيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففي المقامة الأصفهانية يخال أبو الفتح الاسكندرى فيحتجز المصلين في المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول في السخر من أولئك المتصدقين :

لناس مُحرَّرٌ فجوَّزَ وأبرز عليهم وبرز
حتى إذا نلت منهم ما تشتهيه ففروز

وفي المقامة الكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل إلى بغيته وقد تعامى طلباً للمال :

أنا أبو قلمون^(١) في كل لون أكون
إختر من الكسب دونا فإن دهرك دون
زجَّ الزمان بحمق إن الزمان زبون^(٢)

(١) أبو قلمون ثوب رومى من الأبريسم يظهر للعين في ألوان مختلفة بصناعته .

(٢) الزبون : الناقة التي تدفع بثفتها رجلها عند الحلب .

لا تكذبنّ بعقل ما العقل إلا جنون

وفي المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالي من الزمان كحالي من النسب

نسي في يد الزمان إذا سامه أنقلب

أنا أمسى من التبيط وأضحى من العرب

وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراد غشوم

الحق فيه مليح والعقل عيب ولوم

والمال طيف ولا يمكن حول اللئام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقدّه على الأغنياء ، ورميه إلى أن كل غنى لئيم ، ومثل هذا قوله

في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللئام لكل ذي كرم علامة

رغب الكرام إلى اللئام وتلك أشراف القيامة^(١)

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه من الكتاب والرؤساء ، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلاً ، ولا يمكن أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف المطبق في البحث عن أسباب الغنى والجاه . ومن دلائل حقدّه وبغيه أن والياً عزل وكتب إليه بعد عزله يستميل فؤاده ، فكتب إليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذي انقضت أيام حسنه ولم تبقى منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غير مرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى

الأدب واللغة والتفسير ضرورياً من الحق « لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل » وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن ثرده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، إلخ .

« تناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرأ ، وتلحظنا شزرأ ، وتجالس من حضر ، ونسترق إليك النظر ، ونهتزل لكلامك ، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فإنه سوق كسد ، ومنتاع فسد ، ودوله عرضت ، وأيام أنقضت :

وعهد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخذت كأن لم يكن وخطت كأن لم يزل

ويوم صار أمس ، وحسرة بقيت في النفس ، وشعر فاض مأوّد فلا يرشف ، وريق خدع فلا يشف ، وتمایل لا يعجب ، وتثن لا يطرب ، ومقلة لا تجرح الحاظها ، وشفة لا تفتن ألفاظها ! وقد بلغنى الآن ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق ، في العسق... وإفنانك اتلك الشعرات حقاً وحصاً . وسيكفينا الدهر مؤونة الإنكار عليك ، بما يرف من بنات الشعر وأمهاته إليك :

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يفعل الشعر بالحدود^(١)

وهي رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات ، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم في المتقدمين أبو المعيرة الوزير عبد الرحمن ابن حزم الأندلسي^(٢) وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز .

٧ --- ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى إليه في مجموع كتاباته لوصل إلى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره ، ولا نعرف كاتباً التزم السجع ، ووفق إلى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساساً لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشى أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هي صورة الاستجداء ، ثم التزم منهجاً واحداً لا يختلف إلا قليلاً بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهي إليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فلن يمكن نكران ما وفق إليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعف والإسفاف ، وما إلى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء ، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برهاناً على فساد الحياة ونقص الأحياء .

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي « أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق^(١) » وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه ، وخواص ندمائه ، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه^(٢) . وكان الصاحب بن عباد يقول كتاب الدنيا أربعة : الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه^(٣) .

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكتاب .

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلاً كريم النفس . وقد شفع لأبى إسحاق الصابى عند عضد الدولة في ساعة غضب ، وتفضيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة « قد سوغتُه نفسه : فإن عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته » فشرع الصابى في محبسه في تأليف كتاب في أخبار بنى بويه ، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمل فقال : « أباطيل أتمقها ، وأكاذيب ألقها » فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة - ودسائس الأصدقاء كثيرة يعانيتها الأحرار في جميع الأزمان ! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة ، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعون إليه في أمره حتى أمر باستحيائه^(٤) .

٣ - والظاهر أن صلته بالصاحب والصابى كانت صلة وداد ، ورسائله إلى الصاحب كثيرة ، ولكن تغلب عليها صفة تردد المشوب بالتملق^(٥) . أما رسائله إلى الصابى فتفيض بالعطف والحنان .

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٧٦ (٢) اليتيمة ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٣٨

(٤) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في اليتيمة ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

وانظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بمقرب إلى جناه ، وبعد على مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبارّه التي ما يزال يوثرنى فيها بالرغائب ، ويصفيني منها بالعقائل . فوقفت منه بين اعتبار واقتباس ، وأعتذار وأغتباط ، وأستبصار في موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحاً بشكوى الأيام في انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، وأستعديت عليها لاستعدائه . وشايعت المهجين لأنارها ، والزارين على أحكامها ، لا اعتراضها دون آماله ، وقدحها في أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهرٌ أناخ على مولاي بصره ، وأخترله دون واجب حقه » (١) .

٤ — وتمتاز رسائله في الاخوانيات بترصيعها بجبات شعره ، فقد أبتدأ إحدى رسائله

إلى الصاحب بهذه الأبيات :

كتابٌ لو أن الليل يرمى بمثله لألقت يداً في حجرتيه ذكاً
تهادى بأبكار المعاني وعونها وأعيان لفظ ما هن كفاء
شواهد لولا أنهن أوالف ضرائر إلا أنهن سواء
لبسنا بها نعمى وألبست الربا خمائل روض جادهن سماء
بنان ابن عباد تعلن نوءه وما صوبه إلا حياً وحياء

وثلاث (٢) كتب تناظرت في الحسن والإحسان ، وتقابلت في البر والإنعام ، لازالت أياديه قلائد الأعتاق، ومراميه مضامير السباق، ولا أنفكت عين الله حامية له . وكافله به (٣) .

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية:

« وقفت على الأبيات التي آتحنفى بها سيدى ، وتكلفت لجوابها على ظلع في خاطرى لطول السفر ، وأتصال حالى بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ،

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحياء) وبذلك يتبين القارىء مهارة

الكتاب في الشعر بالنثر في سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

ويعذر مستأنفاً على التقصير في جواب ما يأتي من أمثاله ، ما دمتنا في ملكة المواجر ،
وتعب البكر والأصائل»^(١).

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الإخوانية ؛ كقوله في وصف
رسالة للصابي :

« عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتلتقي طرف الخطابة ، وعترأى أشخاص البيان ،
وتمايل أعطف الحسن والإحسان ، وقرأت لفظاً جلياً ، حوى معنى خفياً ، وكلاماً قريباً ،
رمى غرضاً بعيداً ، وفصولاً متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج
صيغة المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثاني ، وتعلق العجز فيها
بالمهادى ، أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قرى موصولة ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف
أبكاها وعونها »^(٢).

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له إلى الصاحب في
فتح عمان وإبادة الزوج بها وما وصل إلى عضد الدولة من المغانم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة أشتهرت منهم في أستباحة الناس وأكل لحومهم ،
وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم إذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاي
عن هذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شيء في الإنسان أذ من كفه وبنانه ، وكان
في ذلك اليوم الذي شارف فيه الطلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن
طوائف من أولئك الكلاب فكبا ببعض العلمان دابته فأختلسوه وأقتسموه بينهم وأكلوه
في الوقت ، وتعجب الناس من ضرورتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر
والبحر من عبثهم ومعرتهم ، فانقاد أهل عمان باخعين بالطاعة ، معتصمين بذمة الجماعة ، وتمت
نعمة الله على مولانا في هذا الفتح ، وكملت له مغانم الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية
وفيها فيل صغير بقدر الفرس ما عرف أطف ولا أظرف منه ، وفي الغنائم كل ما تشتهي

الأفـس وتلذ الأعين . والله تعالى يـجنـى مولانا ثمار الأرض براً وبحراً ، وسهلاً وجبلاً ، بمنه وكرمه . آمين . » .

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب عن الطائع لله إلى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

« فأنت وعضد الدولة — كلاً كما الله ! — يدا أمير المؤمنين فيما يأخذ ويذر ، وناظرهما فيما يقرب ويبعد ، بكما أفتـرش مهـاد الملك بعد إقضاضه ، ورفع منار الدين بعد أنخفاضه ، فأبشرا من الله تعالى بالحسنى ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين » (١) .

ومن كتاب عن عضد الدولة في عود الطائع إلى بغداد والتقاءه معه :

« ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالإذن لنا في تلقيه على الماء ، فامتثلناه وتقبلناه وتلقانا من عوائد كرمه ، ونفحات شيمه ، والمخائل الواعدة بحمـيل آرائه ، وعواطف أنجائه ، ورعاية ما كـنـفنا منـه ، وشايـعنا عزه ، إلى أن وصلنا إلى حضرته البهية ، في الجديدة ، التي استقبلت منه بسليل الملك ، وقعيد الخلافة ، وسيد الأنام ، والمستنزل بوجهه در الغمام ، فتكفأت علينا ظلال نوره وبشره ، وغزرتنا جهات تقضاه وفضله ، وقرب علنا سنن خدمته ، وأنالنا شرف العقود بين يديه ، على كرسى أمر بنصبه لنا عن يمينه ، وأمام دسته ، وأوسعنا من جميل تقياه ، وكريم نجواه ، ما يسم بالعز أغانـال النعم ، ويضمن الشرف في النفس والعقب ، وبكفل من الفوز في الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا في الوصول إليه ، والقعود بين يديه ، في مواقع الحاظه ، وموارد ألفاظه ، مراتب لم يعطها أحد فيما سلف ، ولم تجدد الأيام بمثلها لمن تقدم » .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه وأخلاقه ، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب ، وإلى القارىء هذه الكلمات مقتبسةً من رسائله القليلة التي أعفاها الزمان من الضياع .

- « وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم إلى مصارع حتوفهم » .
- « سار إلى سدّة دار الخلافة والسعود تشايحه ، والميامن تواقبه ، وطلائع الآمال تشرف عليه ، وثغر الإسلام يتسم إليه » .
- « وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب ، ولفظته المهارب ، وأقلقته عن مجامه المكايد والكتائب ، تطوع إلى بلاد الشام ينتقل بين مصارع يحسبها مراتع ، ومجاهل بعدها معالم ، يروم أنتعاشا والجد خاذله ، وينبغي أنتياشا والبغي طالبه » .
- « ولما ضاق عن هذا المخدول حلمنا باتساع غوايته ، ووعر الطريق إلى أستبقائه ، استخرنا الله تعالى في أسترجاع ما ألبسناه من النعم » .
- « إن الله سائلك عن الخَطرة والخَلْطة ، واللحظة واللفظة » .
- « أدّرِعْ من ثوب عفافك ، ما يشمل كافة أطرافك » .
- « احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم ، إلى مصارع حمامكم » .
- « التقوى هي العدّة الوافية ، والجنة الواقية ، والتجارة الراجحة ، والسعادة السانحة ، والجلاء للشبهة ، والضياء للغمّة » .
- « سيعيض الله من حرّ الهواجِرِ برد الظلال ، ومن قلق الركاب ، نوح الإياب » .
- « أيقظوا قلوبكم من سِنَةِ الخواطر ، واحبسوا الحَاظِمَ عن محظور المناظر » .

الفهرس الفصل

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

صفحة

- إشارة إلى ما نقله عن السالفين من
 ٢٤ التقاد
 ٢٤ الفرق بين الشعر والدين .
 رأى مؤلف هذا الكتاب في حدود
 ٢٥ الشاعرية .
- ٣ — ابن فارس
- ٢٧ مولد ابن فارس ومذهبه وأشاخه
 ٢٨ ما وقع بينه وبين تلميذه بديع الزمان
 ٣٠ منزلته الشعرية والثرية
 ٣١ نماذج من شعره
 ٣٢ كتاب الصحابي
 ٣٢ حياته العقلية بين التحرر والجمود
 إنكاره أن يكون للفلاسفة شعر
 ٣٣ وإعراب
 ٣٣ الجانب المشرق من حياته العقلية .
 ٣٥ نماذج مما استجاده من شعر الحديثين
- ٤ — آراء ابن فارس في فقه اللغة
- ٣٧ نقد رأى السنيور جويدي
 ما هو فقه اللغة في رأى الثعالبي وابن
 ٣٨ فارس

صفحة

- ١ — أبو الحسن الجرجاني
- ٧ القاضى إنسان له عواطف وأهواء
 ٧ وصف جرجان وما كان بها من نعيم
 ٨ وفاء أبي الحسن لجرجان .
 ٩ أسفاره وأعماله
 ٩ مؤلفاته في الأدب والفقه والتاريخ
 ١٠ إباؤه وعزته
 ١١ نماذج من شعره في التصون والعتاف
 ١٢ اعتذاره من الانتباض عن الناس
 ١٣ تعريده على أفنان الجمال
 ١٤ وصفه لنعيم الحواس .
 ١٥ حنينه إلى ليالى بغداد
 ١٦ رقة الشوق
- ٢ — نقد آراء الجرجاني
- ١٧ كيف ألف كتاب الوساطة
 ١٧ أخوة الأدب وحقوقها المفروضة
 ١٨ أغلاط الجاهليين
 ٢٠ التسف في الدفاع عن أشعار الجاهلية
 ٢١ أثر المكان والطبع في رقة الشعر وجفائه
 ٢٢ أثر الخلقة الطبيعية
 ٢٣ ما هو الجزل وما هو الرقيق ؟

صفحة

- كيف حرم الجاحظ من شرف المنزلة
وكيف سبقه ابن الزيات وإبراهيم
ابن العباس ٥٧ .
تقد رأى ابن شهيد في ذلك ٥٨ .
- ٥ — أبو بكر الباقلائي
- تصويره لما كان في زمانه من أزمة
عقلية ٥٩ .
موقفنا من درس إعجاز القرآن ٦٠ .
الموازنة بين القرآن وبين غيره من
الكلام ٦٠ .
نتيجة هذا البحث ٦١ .
تقد رأى الباقلائي ٦٢ .
الفرق بين القرآن وبين غيره من
الكتب الربانية ٦٣ .
لماذالم يصف الله التوراة والإنجيل
بالإعجاز ؟ ٦٣ .
شرح أسرار تفوق اللغة العربية ٦٥ .
تقد رأى الباقلائي ، ورأى المسيو
مرسيه ٦٤ .
تهم تتأرجح بين اللغة العربية واللغات
الأجنبية ٦٥ .
أثر الغرور القومي ٦٥ .
ليس القرآن من جنس كلام العرب ٦٦ .
تقد هذا الرأي ٦٦ .
دأبنا في الفوارق بين اللغات ٦٧ .
سر البلاغة والفصاحة يرجع إلى ما في
المعنى من قوة وروح ٦٨ .
بين القديم والجديد ٧١ .
تقد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع
إلى المعاني ٧٢ .

صفحة

- رأى ابن سيده وابن جني ٤٠ .
أول من كتب بالخط العربي ٤٠ .
رأيه في التوقيف والاصطلاح ٤١ .
رسم المصحف ٤٢ .
رأيه في نشأة العلوم العربية ٤٢ .
رأيه فيما جهل أصله من التعابير ٤٣ .
تقد هذا الرأي ٤٥ .
الألفاظ المهمة المدلول ٤٥ .
خصائص اللغة العربية ٤٥ .
تعليل ما عرف من كثرة المترادفات ٤٦ .
تأثير الأقاليم في اللغات ٤٧ .
- ٤ — التقد عند ابن شهيد
- الفرق بين البيان وبين النحو
والتصريف ٤٨ .
التنديد بالنحاة والمعلمين ٤٩ .
كلمة الجاحظ في معلم النحو ومعلم
البيان ٤٩ .
تقد رأى الجاحظ وابن شهيد ٥٠ .
محاورة ابن شهيد لتلاميذه من العرب
واليهود ٥١ .
الأنساب والقربابيات بين الحروف ٥٢ .
اختلاف البلاغة باختلاف أقدار
المخاطبين ٥٢ .
الشعر الذي يوضع للمجتدين ٥٣ .
هل في مقدور كل بليغ أن يصل إلى
كل غرض ٥٣ .
البلاغة ضرب من السياسة النفسية ٥٤ .
سر البلاغة يرجع إلى الطبع ٥٥ .
هل الأجسام من صور
النفس ؟ ٥٦ .

صفحة

- ٩٢ . تجنب البحترى للغريب
- ٩٣ . السهو والغلط عند المتقدمين
- ٧ — أبو الهلال العسكري
- ٩٤ . تحقيق تاريخ وفاته
- ٩٤ . أبو أحمد العسكري
- ٩٦ . إباء أبي هلال
- ٩٦ . شعره في التوجع لحظ الأديب
- ٩٦ . صلته بالصاحب بن عباد
- ٩٧ . دفاعه عن أدب الصاحب
- ٩٨ . تحامله على التنبي
- ٩٩ . نثر أبي هلال
- ١٠٠ . نماذج من نثره
- ١٠١ . نماذج من شعره
- ٨ — كتاب الصناعتين
- ١٠٣ . الغاية من علم البلاغة
- ١٠٣ . جودة كتاب الصناعتين
- ١٠٤ . غلبة الأدب على هذا الكتاب
- ١٠٦ . إهماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب
- ١٠٦ . سر البلاغة عند أبي هلال
- ١٠٧ . حسن اللفظ موقوف على جمال المعنى
- ١٠٧ . السهل المتعق
- ١٠٨ . الكلام الجزل
- ١٠٩ . المدار على إصابة المعنى
- ١٠٩ . أطايب من الأدب

٩ — أبو على الخاتمي

- ١١١ . حياته وأدبه

صفحة

- ٧٣ . شواهد من القرآن بلاغتها في معانيها
- ٧٤ . شواهد من كلام العرب وأشعارهم
- ٧٦ . مناقشة بعض السرقات الشعرية
- ٧٦ . أهمية الألفاظ والأساليب
- ٧٧ . الباقلاني بنفي السجع من القرآن
- ٧٨ . خطأ هذا الرأي
- ٨٠ . غلط في فهم السجع

٦ — أبو القاسم الآمدي

- ٨٢ . حياته ومذهبه في الأدب
- ٨٣ . نماذج من شعره
- ٨٤ . معرفته لنفسية أدياء الأدب والبيان
- ٨٥ . رأيه في الحاسة الفنية
- ٨٦ . هل يمكن كسب الذوق بكثرة المران
- ٨٦ . إيثار الشعر المطبوع على المصنوع
- يغتفر للأعراب ما لا يغتفر للشعراء
- ٨٧ . المثقفين
- مسألة العمل والإغراب بإيثار وحشى
- ٨٧ . المعاني والألفاظ
- ٨٨ . دخل هذا الاتجاه في أعمار الألفاظ
- ٨٨ . اللحن لا يعرى منه أحد من الشعراء
- بين صاحب أبي تمام وصاحب
والبحترى
- ٨٩ . اجتماع أبي تمام والبحترى لأول مرة
- ٨٩ . التحليق والإسفاف عند هذين
الشاعرين
- ٩٠ . هل ابتدع أبو تمام مذهب
البديع
- ٩٠ . غرابة شعر أبي تمام وحسد
- ٩١ . معاصريه

صفحة		صفحة	
١٢٠ .	إيثاره لمذهب المعتزلة		مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال
١٢٠ .	تحامل معاصريه .	١١٢ .	بعض أجزائه ببعض .
١٢١ .	مؤلفاته المختلفة	١١٢ .	القدماء والمحدثون .
١٢٢ .	عنايته بجمع أشات الثقافة الأدبية	١١٣ .	براعته في نقد الشعر
١٢٢ .	كتاب الموشح		السر في خمول الحاتمي هو صلفه
١٢٣ .	جمعه للمؤاخذات الشعرية	١١٣ .	وكبرياؤه .
١٢٤ .	تجزيه على أبي تمام .	١١٤ .	احطداه بالمبتني
١٢٤ .	سوق المآخذ بدون تمحيص	١١٥ .	وسفه لغرسة المتنبي
١٢٧ .	وحدة البيت ووحدة القصيدة . .	١١٦ .	الرسالة الحاتمية
١٢٨ .	دقة الوصف	١١٧ .	مناقشة هذه الرسالة
١٢٨ .	تفيد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء		
	الناس يعيشون في رذائلهم أضعاف		١٢ — أبو عبد الله المرزباني
١٢٩ .	ما يعيشون في فضائلهم		
١٣٠ .	بعن الفكاهات	١٢٠	حياته وإدمانه على الشراب

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٨ .	شخصيته الفلسفية .		١ — أبو حيان التوحيدى
١٣٩ .	رأيه في حياة أهل الجنة .	١٣٣ .	أسرار العقبرية
١٣٩ .	حياته الوجدانية	١٣٣ .	مولد التوحيدى وخمول نشأته .
١٤٠ .	كتاب الصداقة والصديق .	١٣٤ .	ثورته على الحياة والأحياء .
١٤١ .	براعته في تصوير الصداقة والحب	١٣٤ .	اتصاله بالصاحب وخروجه عليه .
١٤١ .	تحليل العواطف والأهواء . .	١٣٥ .	ثورة نفسية
١٤٢ .	صورة فنية لمودة صديقين	١٣٦ .	إحراقه لكتبه وغضبه على الناس
١٤٣ .	رأيه في الشريعة والفلسفة	١٣٧ .	هجاؤه لمعاصريه .
١٤٤ .	إخوان الصفاء	١٣٧ .	حديثه عن ابن مسكويه . . .

صفحة

- ١٦٢ . القيمة الفنية لخطبة المنبرية
 ١٦٢ . اهتمامه بالسجع والازدواج
 ١٦٣ . تضمينه لآي القرآن
 ١٦٣ كلفه بالحيال
 ١٦٤ . وقوفه عند الأفكار السطحية
 ١٦٥ . سياسته لعامة الجماهير

٥ — أبو محمد بن حزم

- ١٦٦ . حياته وكلفه بالكتابة عن الحب
 ١٦٧ . كتاب طوق الحمامة
 ١٦٧ . المحبة لاتصح إلا بعد طول الأنس
 ١٦٨ . دوام الوصل لا يذهب بالحب
 ١٦٩ . إغرامه بتتبع أخبار العشاق
 ١٧٠ . وصف رسائل الحب
 ١٧١ . دراسة الحب جزء من علم النفس
 ١٧٢ . رأى ابن حزم في طبيعة المرأة
 ١٧٢ . غرامه منذ الطفولة بدرس المرأة
 ١٧٣ شاهد محزن من وفاء المرأة
 ١٧٥ . المرأة أكثر مواساة من الرجل
 ١٧٦ . السر في تمكن طبع المواساة من النساء
 ١٧٦ . المرأة والرجل في الضعف سواء
 ١٧٧ . ما الصلاح وما الفساد في الرجال والنساء
 ١٧٧ . عفاف ابن حزم
 ١٧٨ . الجمال أهل للدرس

٦ — أبو منصور الثعالبي

- ١٧٩ حياته وشعره
 ١٨٠ مواهبه الثرية

صفحة

٢ — أبو علي بن مسكويه

- ١٤٥ . تحقيق اسمه وإسلامه
 ١٤٥ . اتصاله بابن العميد
 سخرية التوحيدى من اشتغاله
 ١٤٦ . بالكيمياء
 ١٤٧ . سر تحامل التوحيدى عليه
 ١٤٧ بديع الزمان يتودد إليه
 ١٤٩ . شغف ابن مسكويه بالفلسفة اليونانية
 ١٥٠ . وصيته ودستوره في نظام السلوك

٣ — الأخلاق عند ابن مسكويه

- ١٥٢ . تعريف الخلق
 ١٥٣ . حيرته بين الفلاسفة القدماء
 ١٥٤ . اهتمامه بتتيف الخواص
 ١٥٤ . ثقته بالمنطق
 ١٥٦ . الجسم والنفس
 ١٥٥ . تقدرأيه في خلود النفس
 ١٥٦ . جهوده في الفلسفة العملية
 ١٥٧ تحديد آرائه الأخلاقية
 ١٥٨ . آداب الصداقة ورعاية الصديق

٤ — أبو نباته الخطيب

- ١٥٩ أبناء نباته في الأدب العربي
 ١٥٩ . حياة ابن نباته الخطيب
 ١٦٠ . خطبة المنام
 ١٦٠ ولوعه بالأخبار النامية
 ١٦١ . تحليل هذه الأخبار
 ١٦١ أثر ازهد والصلاح في خطبه

صفحة		صفحة	
١٨٧ . . .	يقيمة الدهر .	١٨١ . . .	طرائف من الكتابات
	غزام الثعالبي بإطراء من يترجم لهم من	١٨٣ . . .	كتاب ثمار القلوب
١٨٨ . . .	الشعراء .	١٨٣ . . .	ثعابين مصر في كلام الجاحظ
١٨٩ . . .	استقلال الثعالبي لألفاظ معاصريه	١٨٤ . . .	النقش والتصوير عند الأمم القديمة
١٩٠ . . .	إغفاله لتاريخ الوفيات	١٨٤ . . .	عرق الخال .
١٩٠ . . .	كتاب فقه اللغة	١٨٥ . . .	حشو اللوزينج
		١٨٦ . . .	ماء عناق

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

	ما يجب أن يتحلى به الرجل في الحياة	١ — أبو الفضل بن العميد	
٢٠٨ . . .	الرسمة .	١٩٣ . . .	حياته ومواهبه . . .
٢٠٨ . . .	الرسائل الإخوانية .	١٩٤ . . .	إجلاله لأبي بكر الخياط
	٣ — أبو حفص بن برد	١٩٤ . . .	طريقته في نقد الشعر
٢١١ . . .	حياته وأدبه .	١٩٥ . . .	أدب النفس .
٢١٢ . . .	ضياح رسائله .	١٩٦ . . .	رأية ابن نباته السعدي . . .
٢١٢ . . .	خطابه إلى القواد والكتاب	١٩٧ . . .	ما وقع بين ابن العميد وبين السعدي
٢١٣ . . .	صور النزاع بين العرب والبربر .	١٩٨ . . .	عمل التوحيدى في هذه المحاورة
٢١٥ . . .	قيمة ابن برد الأدبية . . .	أبو الفتح ابن العميد ونزواته في	
٢١٥ . . .	عهد المؤيد بن هشام .	صباه . . .	١٩٩ . . .
	كتاب ابن برد عن المظفر حين قتل	توجع أبي الفضل من سيرة ابنه	٢٠٠ . . .
٢١٦ . . .	وزيره عيسى بن سعيد . . .	مرض ابن العميد ومماته . . .	٢٠١ . . .
٢١٧ . . .	الجانب النفعى واوجدانى عند ابن برد		
	٤ — أبو المغيرة بن حزم	٢ — نثر ابن العميد	
٢١٨ . . .	حياته وخموله . . .	٢٠٢ . . .	عظمته الثرية . . .
٢١٨ . . .	ما وقع بينه وبين أبي محمد بن حزم	٢٠٣ . . .	خطاب وعيد . . .
		٢٠٤ . . .	رسائله الوجدانية . . .

صفحة	صفحة	
٢٣٧ استهزاء الشراب	٢١٩ سخريته من الدراسات الفقهية	
٢٣٨ استهزاء الدواة والمداد	٢٢٠ دقة حسه في اختيار أطياب الحياة	
٢٣٠ الموضوعات المكررة	٢٢٠ سوء ظنه بالناس	
٢٤٠ تهنئة بالشفاء من المرض	٢٢١ حنينه إلى إخوانه .	
٢٤٠ تهنئة بالمرض !	٢٢٢ غربة أدباء الأندلس	
٢٤٠ تكرير العبارات والألغاز	٢٢٢ حديثه عن بلائه بالناس .	
٢٤١ رسالة المرصعة بالشعر	٢٢٣ إقذاعه في الهجاء	
٧ - صاحب بن عباد		
٢٤٣ بداية أمره	٢٢٤ محاماته لبديع الزمان	
٢٤٢ اتصاله بابن العميد	معارضته لإحدى رسائل بديع	
٢٤٤ ولايته الوزارة	٢٢٥ الزمان	
٢٤٤ عدته العلمية	٢٢٥ غلبة التكلف على ثره	
٢٤٤ أخلاقه بين الكرم واللؤم	٥ - أبو الفرج الببغا	
٢٤٥ رغبته في استكتاب الصابي	٢٢٦ حياته وخموله	
٢٤٦ ما اختلقه التوحيدى على ابن عباد	٢٢٧ دورانه حول أغراضه النفسية .	
٢٤٧ صور من غرور صاحب	٢٢٧ نماذج من شعره	
٢٤٨ مفتريات التوحيدى عليه	٢٢٩ مودته لأبي إسحاق الصابي	
٢٤٩ رأى الثعالبي في صاحب	٢٣٠ وصف البيغا	
من قصد صاحب من الشعراء	٢٣١ وصف الصابي للثغة البيغا	
٢٥٠ والكتاب	٢٣١ غلبة النزعة الوصفية على البيغا .	
٢٥١ إغرابه بالكتابة في الطب	٦ - نثر البيغا	
رسالة الخوارزمي الى تلميذ ظهر عليه	٢٣٣ اهتمامه بالإخوانيات	
٢٥٢ الجدرى	٢٣٣ نماذج من إخوانياته	
٢٥٣ كلام الخوارزمي عن الجرب	٢٣٤ رسالته في التهنة بمولودة .	
إغراب صاحب بنظم قصائد خالية	٢٣٥ تفضيل الأنتى على الذكر .	
٢٥٤ من بعض الحروف	٢٣٥ « تهنة » من تزوجت أمه .	
(٢٤ - ٢)	٢٣٦ رسالة ابن العميد في الموضوع نفسه	

صفحة

٩ - قابوس بن وشمكير

- ٣٧٧ . نشأته وأدبه
 ٢٧٨ . شعره في محنته
 ٢٧٨ صنعته في ثره
 ٢٧٩ . ما ابتكره من فنون البديع
 الجمع بين الصور المختلفة في الجملة
 ٢٨٠ الواحدة
 ٢٨١ نقد رسائل قابوس
 دراسة الآداب القديمة تعطينا صورة
 ٢٨٣ عجيبة من أحلام الإنسانية
 ٢٨٦ . هل كانت لقابوس فلسفة ؟
 ٢٨٨ . نشأة التكنية عند العرب

١٠ - أبو إسحاق الصابى

- ٢٩٠ . حياته وأخلاقه النبيلة
 ٢٩٠ . تأثره بالروح الاسلامى
 ١٩٢ . صداقته للشريف الرضى
 ٢٩١ . قصيدة الشريف فى رثائه
 ٢٩٣ . رغبته فى أن يعدحه المتنبي
 ٢٩٤ . تأبى الصابى عن الاتصال بالصاحب
 ٢٩٤ توجهه من الحياة
 ٢٩٥ . رقة شعره وعدوبته

١١ - رسائل الصابى

- ٢٩٦ . فناء روحه فى البيئة الاسلامية
 استقاؤه من منبع على بن
 ٢٩٦ أبى طالب
 ٢٩٧ . ثره تغلب عليه الصبغة الادارية
 ٢٩٧ ضعف الخلفاء لعهد

صفحة

- ٢٥٥ . تحامل الصاحب على المتنبي
 ٢٥٦ إعجاباه بمذهب ابن العميد
 ٢٥٦ . شذرات من رسالته عن المتنبي
 ٢٥٨ قيمته الأدبية

٨ - أبو بكر الخوارزمى

- ٢٥٩ . نبوغه بين معاصريه
 ٢٦٠ حياته وأسفاره
 ٢٦٠ . كلة عن أشعار النساء
 ٢٦١ اتصاله بالصاحب
 ٢٦٢ . تحامله على المتنبي محاملة للصاحب
 ٢٦٢ . فساد الصلات بينه وبين الصاحب
 ٢٦٣ . اصطدامه بالهمذاني بديع الزمان
 ٢٦٤ شعوره بأعباء الحياة
 تشاؤمه من صحبة من يعانون إدبار
 الأيام
 ٢٦٥ فهمه لأسرار البيان
 ٢٦٦ سر البلاغة رجوع الى الصدق
 ٢٦٧ . الخوارزمى بين التحليق والإسفاف
 ٢٦٨ المرح والفكاهة
 ٢٦٩ الجوانب الجدية
 ٢٧٠ شعوره بهزيمته فى الحياة
 ٢٧١ تصوره لبعض من عرف من
 الظالمين
 ٢٧٢ شاهد من سجمه التكلف
 ٢٧٣ . هل كانت للخوارزمى فلسفة
 خاصة ؟
 ٢٧٤ إشارته الى ماوضع بعد الإسلام على ألسنة
 الجاهلية
 ٢٧٥

صفحة

- ٣١١ غرامه بمقارعة كتاب المشرق .
 ٣١٢ خبثه في هجاء الافليلي
 ٣١٢ نموذج من ثره الجيد .
 ٣١٣ وصفه لاحدى المنافرات .
 ٣١٤ فتنته ببعض رسائله
 ٣١٤ وصف البعوض ووصف الحلواء .
 رسالة بديع الزمان في وصف ما عند
 الشواء
 ٣١٥
 ٣١٦ وصف جارية
 ٣١٧ رسالته عن النار والخطب
 ٣١٨ قوته في اللغة العربية
 نثر ابن شهيد لم يبق منه إلا
 القليل
 ٣١٨

١٤ - أبو الفضل الميكالى

- ٣١٩ أسرة الميكالى
 ٣١٩ رأى الثعالبي في أبي الفضل
 ٣٢٠ الإخوانيات عند الميكالى
 ٣٢١ كتابه إلى الثعالبي
 ٣٢١ شكوى الزمان
 ٣٢٢ وصف رسائل الإخوان
 ٣٢٣ صلته بأصدقائه وألأفه
 ٣٢٣ فنه في نثره وشعره
 ٣٢٤ سلطانه على معاصريه

١٥ - بديع الزمان

- ٣٢٥ حياته وأسفاره
 ٣٢٦ رأى الثعالبي فيه
 ٣٢٨ بوادر الشر بينه وبين الخوارزمي

صفحة

- ٢٩٧ غزاره بمواهبه الأدبية
 ٢٩٨ قفرات وصفية
 ٢٩٩ أثر الحكمة قليل في نثره
 كتابه عن الطائع إلى عضد
 الدولة
 ٣٠٠
 كتابه عن عز الدولة وقد زوجت
 ابنته
 ٣٠١ تفوقه وسعة حيلته

١٥ - أبو عامر بن شهيد

- ٣٠٢ آل شهيد
 ٣٠٢ غرام أبى عامر بالفتوة والصبوة
 ٣٠٣ عيشة في القصف والتهتك
 ٣٠٤ كرم نفسه
 فساد رأيه في شئون نفسه وسداد رأيه
 في شئون غيره ، وما اتفق للشاعر
 الفرنسى لافوتين في هذه الحال .
 ٣٠٤ شعوره بكراهة الموت
 ٣٠٥ نوحه على نفسه حين فكر في
 الانتحار
 ٣٠٥
 ٣٠٦ ظرفه في مرضه
 نماذج من شعره الموجه حين أحس
 دنو الموت
 ٣٠٧
 ٣٠٨ شعره في إخوانه ومحجوبه
 ٣٠٨ ما أوصى أن يكتب على قبره
 ٣٠٩ وفاته رحمه الله

١٣ - نثر ابن شهيد

- ٣١٠ براعته في الإنشاء
 ٣١١ مظاهر الاتواء في نثره

صفحة		صفحة	
٣٥٠ .	مناوشات لفظية	٤٢٩ .	المراسلات التي تقدمت المناظرة .
	١٦ — نثر بديع الزمان	٣٣٠ .	جواب الخوارزمي .
٣٥١ .	تصويره لألوان النفوس . . .	٣٣١ .	صورة المناظرة .
٣٥١ .	قوة نفسه وخطابه عن خليفة الميكالي .	٣٣٢ .	المباراة في نظم الشعر
٣٥٢ .	خطابه إلى من هنأه بمرض الخوارزمي	٣٣٣ .	قصيده بديع الزمان .
٣٥٣ .	خطاب في التعزية . . .	٣٣٤ .	قصيدة الخوارزمي .
٣٥٤ .	تحليل هذا الخطاب	٣٣٤ .	جواب بديع الزمان
٣٥٤ .	سخريته من الناس . . .	٣٣٥ .	مناوشة أدبية .
٣٥٥ .	حقده على الأغنياء . . .	٣٣٦ .	ملاحظة .
٣٥٦ .	خطاب إلى إنسان ولى صباه	٣٣٧ .	ملاحظة أشنع .
٣٥٦ .	نقد الأخلاق .	٣٣٨ .	هدنة تعقبها حرب .
	١٧ — عبد العزيز بن يوسف	٣٣٩ .	تحرش وسفه .
٣٥٧ .	حياته وأخلاقه	٣٤٠ .	قصيدة في التشيع .
٣٥٧ .	صلته بالصاحب . . .	٣٤٢ .	استئناف النضال
٣٥٨ .	نماذج من رسائله الإخوانية	٣٤٤ .	نقد قصيدة للخوارزمي
٣٥٨ .	ترصيع النثر بالشعر .	٣٤٥ .	وصف الربيع
٢٥٩ .	وصف الرسائل الإخوانية	٣٤٦ .	ملاحظة . . .
٣٥٩ .	فتح عمان وإبادة الزنوج .	٣٤٧ .	مباراة في الترسل . . .
٣٦٠ .	الرسائل السلطانية . . .		رسالة للخوارزمي في التجارات
٣٦١ .	ققرات من شرة	٣٤٧ .	والأسعار . . .
		٣٤٨ .	رسالة لبديع الزمان تقرأ معكوسة .
		٣٤٩ .	هزيمة الخوارزمي .

(١) فهرس الأعلام

أحمد بن الحسين : ج ٢ ص ٢٢١ (وانظر
المتنبى) .

أحمد بن الحسين : (انظر بديع الزمان) .

أحمد بن الخطيب : ج ١ ص ٨١ .

أحمد زكى باشا : ج ١ ص ٢٩٧ .

أحمد بن صالح : ج ١ ص ٢٩٧ .

أحمد ضيف : ج ١ ص ٣٠٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

أحمد بن طولون : ج ١ ص ٢٩٧ .

أحمد عارف الزين : ج ٢ ص ١٧ .

أحمد بن عبد ربه : ج ١ ص ١٢٢ .

أحمد عبد الخالق السادات : ج ٢ ص ٢٨٩ .

أحمد بن كثير الفرغانى : ج ١ ص ٣٠٢ .

أحمد بن يوسف المصرى : ج ١ ص ١١٣ ،

١٥٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ،

٣٠٤ .

الأحنف بن قيس : ج ١ ص ٨٩ .

الأحوص : ج ١ ص ٢٣٩ .

الأخشيدى (كافور) : ج ٢ ص ٢٦١ .

الأخضرى : ج ١ ص ٦٤ .

الأخطل : ج ١ ص ٧٦ ، ٨٧ ، ٢٥١ ج ٢

١٢٣ ، ٢٣١١ ، ١٢٣ ، ٣١١ .

الأخفش : ج ٢ ص ٨٢ .

ادريس : ج ١ ص ١٢٧ — ج ٢ ص ٣١٤

حرف الألف

آدم (عليه السلام) : ج ١ ص ١٨٣ ، ٢٤٧ ،

ج ٢ ص ٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

أبان بن أبى عياش : ج ١ ص ٨٩ .

ابراهيم بن زيد : ج ١ ص ١٢٧ .

ابراهيم بن العباس : ج ٢ ص ٥٧ .

ابراهيم مصطفى : ج ١ ص ٢٩ .

ابليس : ج ١ ص ١٢٧ .

ابن الأبهري : ج ١ ص ١٦٨ .

أبى بن كعب : ج ٢ ص ٤٢ .

ابن الأثير : ج ١ ص ١٨ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ،

ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٦٣ .

الأمدى : ج ١ ص ١١٣ ، ج ٢ ص ٨٤ ،

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ .

ابن الأجدانى : ج ٢ ص ٣٩ .

أحمد بن ابراهيم بن على : ج ١ ص ٢٤٣ .

أحمد أمين : ج ١ ص ٨٤ ، ٨٦ ،

٩٦ .

أحمد بن أيمن : ج ١ ص ٣٠٠ .

أحمد بن بندار : ج ٢ ص ٣٦ .

أحمد بن حاتم : ج ١ ص ٢٤٦ .

أحمد بن الحارث : ج ١ ص ٢٤٢ .

(١) فى هذا الفهرس أعلام قليلة مكررة بسبب ورودها مختلفة الكنى والألقاب فى

صلب الكتاب .

الأقرع بن حابس : ج ١ ص ٨٩
 أكرم بن صيني : ج ١ ص ٤٨
 أبو أمامة : ج ١ ص ٨٧
 أمين عبدالعزيز : ج ١ ص ٢٩٦
 الأمين (الخليفة) : ج ٢ ص ٨٥
 ابن الأنباري (محمد بن القاسم) : ج ١ ص
 ٢٤٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ؛ ج ٢
 ص ٢٧
 أوس : ج ١ ص ٩٤
 أوسكار وايلد : ج ٢ ص ٩٤
 أيوب بن القرية : ج ١ ص ٨٨
 حرف الباء
 بابك الحرمي : ج ١ ص ٣٣٢
 البارودي : ج ١ ص ٢٠
 الباقلائي : ج ١ ص ٦٧ ، ١١٣ ؛ ج ٢ ص
 ٥١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
 ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١
 البيغاء (أبو الفرج) : ج ١ ص ٢٧ ، ١٢٨ ؛
 ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
 بتروف Petrof : ج ٢ ص ١٦٦
 البحري : ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ؛ ج ٢
 ص ١٨ ، ٢٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ،
 ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،
 ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٨ ، ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٣٣ ، ٣٠٩

أبو إسحاق بن حمام : ج ١ ص ٢٦٨
 أبو إسحاق (الحاجب) : ج ٢ ص ٢٦١
 إسحاق بن إبراهيم الموصلی : ج ١ ص ١٥٢ ، ٢٤
 أبو إسحاق بن محمد البصري : ج ١ ص ١٣٥
 الأسدی (أبو العلاء) : ج ٢ ص ١٨٢
 الاسكافي (أبو القاسم) : ج ٢ ص ١٨٨
 إسماعيل (عليه السلام) : ج ٢ ص ٤١
 إسماعيل بن القاسم (أبو العتاهية) : ج ١ ص ١٥١
 أرسططاليس : ج ٢ ص ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١٤٩ ، ١٥٣ ، ٢٨٨
 أرشميدس : ج ٢ ص ٢٨٨
 أشجع : ج ١ ص ١٦١
 الأشعري (أبو الحسن) : ج ٢ ص ٧٧
 الأشعري (أبو موسى) : ج ٢ ص ٧٥
 الأصبهاني (أبو الفرج) : ج ١ ص ١٠٣ ،
 ٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،
 الأصمعي : ج ١ ص ١٥٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ،
 ٢٥١ ، ٢٥٢ ؛ ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٦ ،
 ٧٢ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ٢٧٦
 الأصفهاني (الراغب) : ج ١ ص ١٦١
 ابن الأعرابي : ج ١ ص ١٤٩ ج ٢ ص ٩١ ،
 ٩٢ ، ١٩٠
 الأعشى : ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ج ٢ ص
 ٧٠ ، ١٠٧
 الأعظمي (نعمان) : ج ٢ ص ٢٧٧
 أفلاطون : ج ٢ ص ١٥٣ ، ٢٨٨
 الافليبي (أبو القاسم) : ج ٢ ص ٣١١ ، ٥٢
 ٣١٢
 الأفوه الأزدي : ج ١ ص ٩٤

بشر بن المعتز: ج ٢ ص ٢٤
 البشري (الشيخ سليم): ج ١ ص ٢٩
 البشري (الشيخ عبدالعزيز): ج ١ ص ٢٩
 البصري (الحسن): ج ١ ص ٦١، ٧٠
 البعيث: ج ١ ص ٢٠٦؛ ج ٢ ص ٧٦،
 ٢٨١
 البغدادى (أبو القاسم): ج ١ ص ٣٣٨،
 ٣٣٩ إلى بقية القصة ص ٣٥٠
 البغدادى (أبو محمد عبدالرازق بن الحسن):
 ج ٢ ص ١٩٨
 البكرى (توفيق): ج ١ ص ٧٧، ٨٦،
 ١٧٣، ١٩١، ٢١٩
 البلاذرى (أبو جعفر): ج ٢ ص ٢٥١
 بلانشو Blanchot: ج ١ ص ٤١
 بودلير Beaudelaire: ج ١ ص ١٨٣
 البها زهير: ج ٢ ص ٧١
 بيان الطفيلى: ج ١ ص ١٤٣، ١٤٤
 بيدبا (مؤلف كليلة ودمنة): ج ١ ص ٢٧١
 ج ٢ ص ٢٣٧
 بيراست الحكيم (ملك الجن): ج ١ ص
 ٢٨٢

حرف التاء

تأبط شرا: ج ١ ص ٩٤
 أبو تمام: ج ١ ص ١٨، ٢٠، ٢١، ٤٨،
 ٥٣، ١٨١؛ ج ٢ ص ٢٢، ٢٤،
 ٣٤؛ ٨٢، ٨٤، ٨٨، ٨٩، ٩٠،
 ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٠١،
 ١٢٤، ١٢٥

التنوخى: ج ١ ص ١١٣، ١٢٢، ٣١٥ إلى
 بقية الفصل

البحترى (وهب بن وهب): ج ٢ ص ٢٧٦
 بختيار: ج ١ ص ٢٤٤
 بدر الحرمى: ج ٢ ص ٣٠٠
 بديع الزمان الهمذانى: ج ١ ص ١٧، ١٨،
 ٢٥، ٢٧، ٧٨، ١٠٥، ١٠٦،
 ١٠٧، ١٠٨، ١١٠، ١١١، ١١٣،
 ١١٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢،
 ١٣٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٤، ١٨٩،
 ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣،
 ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٦،
 ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦،
 ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٦٢، ٢٩٤؛ ج ٢
 ص ٢٢، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ١٤٠،
 ١٤٧، ١٤٩، ١٨٦، ١٨٨، ٢٠٩،
 ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٩،
 ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧٣، ٢٧٧،
 ٢٩٥، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩،
 ٣٢٥، ٣٢٦ إلى نهاية المناظرة ص
 ٣٥٠ ثم ثر بديع الزمان

البديهى (أبو الحسن): ج ٢ ص ٢٥٠
 ابن برد (الأصغر): ج ٢ ص ٢١١، ٢١٢
 ابن برد (الأكبر): ج ٢ ص ٣١١، ٢١٣
 ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢١٣،
 بروكلمان: ج ١ ص ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢،
 ٢٠٣، ج ١ ص ١٦٧
 بزرجهر: ج ١ ص ٩٩
 ابن بسام: ج ٢ ص ١٧٩، ٢١١، ٢١٢،
 ٢١٣، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠،
 ٢٤٢، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٥٩،
 البسطامى (أبو عمر): ج ٢ ص ٣٤١
 بطليموس: ج ٢ ص ٢٨٨
 بشار بن برد: ج ١ ص ١٨، ٢٠، ٤٨،
 ٧١، ١٥٥؛ ج ٢ ص ١٨٢

جالينوس : ج ٢ ص ١٤٩ ، ١٥٣
 جبريل عليه السلام : ج ١ ص ٩٩ ، ١٠٠
 جبريل القرداحي : ج ١ ص ٢٠٣
 الجرجاني (أحمد بن محمد) : ج ٢ ص ١٨١
 الجرجاني (عبدالقاهر) : ج ١ ص ٢٢ ، ج ٢
 ص ٤٢ ، ٧

الجرجاني (أبو الحسن علي بن عبد العزيز) :
 ج ١ ص ١٨ ، ٢٦ ، ١١٣ ، ج ٢ ص
 ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ،
 ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ،
 ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٢٧ ، ١٨١ ، ١٩٠

جرير : ج ١ ص ٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ، ج ٢
 ص ١٨ ، ١٠٩ ، ١٢٣ ، ٢٨١ ، ٣١١

جرير بن عبدالله : ج ٢ ص ٣٧
 الجزايري (ظاهر) : ج ٢ ص ١٥٩
 الجزيري (محمد إبراهيم) : ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥
 الجعدي (الناطقة) : ج ١ ص ٢٨
 جعفر بن محمد بن ثوابة : ج ١ ص ١٧ ج ٢
 ص ١٤١

جميل : ج ١ ص ١٦١ ، ٢٣٩ ، ٢٥١ ج ٢
 ص ٩٠

جنان (معشوقة أبي نواس) : ج ١ ص ٢٤١
 ابن جنى : ج ٢ ص ٤٠

جوت : ج ٢ ص ٦٦
 ابن الجوزي : ج ١ ص ٢٠٢

جوله يزهير : ج ٢ ص ١٦٧
 جویدی : ج ٢ ص ٣٧ ، ٣٨

حرف الحاء

أبو حاتم السجستاني : ج ١ ص ٧٧ ، ٢٥٠
 الحاتمي (أبو علي) : ج ١ ص ١١٣ ؛ ج ٢
 ص ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ .

التوحيدى : ج ١ ص ٢٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١١٣ ،
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ،
 ١٣١ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،
 ٢٥٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ؛ ج ٢
 ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
 ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٢٤ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩

حرف الثاء

اثمالي : ج ١ ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
 ٢٣ ، ٥٥ ، ٨٤ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
 ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،
 ٢٨٦ ؛ ج ٢ ص ١٧ ، ٢٧ ، ٣٥ ،
 ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ،
 ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
 ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٨٠ ، ٣٠١ ،
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨

حرف الجيم

جابر بن حيان : ج ٢ ص ١٤٦
 الجاحظ : ج ١ ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٤٨ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٨٤ ،
 ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
 ٩٨ ، ١١٥ ، ١١٥ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٣٤٠ ،
 ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٧ ،
 ٥٨ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٨٣ ،
 ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٠

٢٣٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ؛ ج ٢ ص ١٨ ، ٢٣٥

٢٣٩

ابن الحبيب : ج ١ ص ٨٢

الخطيئة : ج ١ ص ٥٥ ، ٥٦ ؛ ج ٢ ص ٤٢

حماد بن إسحاق : ج ١ ص ٢٤٢

حمزة الأصفهاني : ج ١ ص ٢٣٠

حممة بن رافع : ج ١ ص ٢٥٢

حميد الدين البلخي : ج ١ ص ٢٠٣

حميد بن ثور : ج ٢ ص ١٠٥

الحميري (السيد) : ج ٢ ص ٩٨ ، ١٢١

الحناط : ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣

ابن حيان : ج ٢ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٥ ،

الخيرى (أبوزكريا) : ج ١ ص ٣٤٤

حرف الخاء

خالد الخريت : ج ١ ص ٢٣٨

خالد بن عبدالله القسرى : ج ١ ص ٧٣

ابن خالويه : ج ١ ص ٢٤٩ ؛ ج ٢ ص ١١٤

الحبزي أرزي : ج ١ ص ٢١٧

الحزرجي (أبودلف) : ج ١ ص ٣٥١

الحثعمي : ج ١ ص ١٢٠

أبو الخطاب (الصابي) : ج ١ ص ١٣٩

الحفاجي : ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١

ابن خفاجة الأندلسي : ج ١ ص ١٧٣

ابن الخلال : ج ٢ ص ١٢٠

ابن خلدون : ج ٢ ص ٢١٥

خلف الأحمر : ج ٢ ص ٨٥ ، ٩٢ ، ١٣٠

ابن خلكان : ج ١ ص ١٣١ ، ٢٤٧ ؛ ج

٢ ص ١٧ ، ٩٤ ، ١٢٠ ، ١٥٩ ،

١٦٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ،

٢٦٠ ، ٣٢٨

الحارث بن شمر الغساني : ج ١ ص ٤٨

أبو حامد المروزي : ج ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣

حافظ إبراهيم : ج ١ ص ٢٠ ، ٤٣ ، ٥٤ ،

١٧٣

الحجاج : ج ١ ص ٤٧ ، ٦٢ ؛ ج ٢ ص ١٣٣

٢٧٢ ، ٢٧٣

ابن الحجاج : ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٤٠ ؛ ج ٢

ص ١١٣

ابن أبي الحديد : ج ١ ص ٦٩ ، ٩٦ ، ١٠١

٢٨٢ ، ٢٨٣ ؛ ج ٢ ص ١٥٩

الحري (أبوبكر) : ج ٢ ص ٣٤٤

الحريزي : ج ١ ص ٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ،

٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٩٤ ؛ ج ٢

ص ٢٢ ، ١٦٢

الحريزي (يهود ابن شلومو) : ج ١ ص

٢٠٣

ابن حزم (أبو المغيرة عبدالوهاب) : ج ١ ص

١١٠ ؛ ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥

ابن حزم (أبو محمد) : ج ١ ص ١٢٥ ؛ ج ٢

ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦

١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ،

٣٠٦ ، ٣٠٧

ابن حزم (أبو بكر) : ج ١ ص ٢٦١ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ؛ ج ٢ ص ١٧٤

حسان : ج ١ ص ٢١٧

الحسن بن علي : ج ١ ص ١٢٧

حسبن مخلوف : ج ١ ص ٢٩٤

أبو الحسين (السيد) : ج ٢ ص ٣٤٠

الحسين بن محمد الحشنامي : ج ٢ ص ٣٢٧

الحصري (أبو إسحاق) : ج ١ ص ٢٤ ،

٢٧ ، ٧١ ، ١٢٦ ، ١٩٩ ، ٢٣٠ ،

٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٥٠، ٢٥١،

٢٥٢: ج٢ ص ٨٢، ١٩٠، ٣١٩

دعبل بن علي: ج ٢ ص ٩١

دكين (من حمير الجن): ج ١ ص ٢٦٣

دوزي: ج ٢ ص ١١٧

ديك الجن: ج ١ ص ١٧٣؛ ج ٢ ص ١٨، ٢٥

ديمومبين (Demombynes): ج ١ ص ٦٩،

١٨٠، ١٨٧، ٢٠٠؛ ج ٢ ص ١٦٧

حرف الذال

الذبياني (الناطقة): ج ١ ص ٦٥؛ ج ٢ ص ٧٠،

١٠١، ١١٢، ١٢٦، ١٣٥

ابن ذريح (قيس): ج ٢ ص ٧٥

أبو ذر: ج ٢ ص ٢٧١

حرف الراء

رؤبة: ج ٢ ص ٢٢

الرازي (أبو الحسين بن فارس): ج ٢ ص ٢٧

الرافعي (مصطفى صادق): ج ١ ص ١٦٢

ربيعة بن حذار: ج ٢ ص ١٨٥

رجاء (أبوسعدي): ج ٢ ص ١٨٥

الرستمى (أبو سعيد): ج ٢ ص ٢٥٠

ابن رشد: ج ١ ص ٢٨٢

الرشيد: ج ٢ ص ٤٦، ٢٥٠

ابن رشيق: ج ١ ص ١٨، ١٩، ٣١، ٢٢

الرضي (الشريف): ج ١ ص ٢٠، ٢٦، ٦٩،

١١٣، ١٢١، ٢٨٣، ج ٢ ص ٢٣١، ٢٥٩،

٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦

الرقاشي (عبد الصمد بن الفضل): ج ١ ص ٨١،

٨٩، ٩٣

الرقاشي (الفضل بن عيسى): ج ١ ص ٨٠، ٨٩، ٩٢

الحليل بن أحمد: ج ١ ص ١٨٤، ٢٦٩، ج ٢ ص

٤٢، ٤٣، ٤٤، ٩٢

خنافر الحميري: ج ١ ص ٣٦، ٣٥، ٥٦

الخنساء: ج ٢ ص ١٠٧

خواجا: ج ١ ص ٢٤٩

خوارزم شاه (مأمون بن مأمون): ج ٢

ص ١٧٩

الخوازمي (أبو بكر): ج ١ ص ١٨، ١٩، ٢٦،

١٠٥، ١٠٦، ١١١، ١١٣، ١١٤، ٢٦،

١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٧٤، ٣٤٦؛ ج ٢

ص ١٣٩، ١٤٠، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٤،

١٩٥، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤،

٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤،

٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠،

٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦،

٢٩٤، ٣١٢، ٣١٩، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٨،

٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٢،

٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٢

الحياط (أبو بكر): ج ٢ ص ١٩٤، ١٩٥

حرف الدال

ابن الداري: ج ٢ ص ٣٤٥

الدؤلي (أبو الأسود): ج ١ ص ٦٦؛ ج ٢

ص ٤٢، ٤٣

دانوزيو (شاعر إيطالي): ج ٢ ص ٢٨٥

ابن داود: ج ١ ص ٨٣، ٨٤، ٨٥؛ ج ٢

ص ١٧١

الدارقطني: ج ١ ص ٢٤٧

ابن درستويه: ج ١ ص ١٨، ٢٥٩،

ابن دريد: ج ١ ص ٧٣، ١١٣، ١٩٨، ١٩٩،

٢٠٠، ٢٠٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩،

- الزوزنى (الكاتب): ج ٢ ص ٢٨٠
 زهير بن نمير (من الجن): ج ١ ص ٢٦١،
 ٢٦٢
 زهير: ج ٢ ص ١٣٠
 ابن الزيات: ج ١ ص ١٨، ج ٢ ص ٧٥
 الزيات (أحمد): ج ١ ص ٦٠
 زياد بن أبي سفيان: ج ١ ص ٤٧، ٦٣،
 ٩٢
 زيدان (جورجى): ج ١ ص ٢٣٤ ج ٢
 ٩٤
 أبو زيد: ج ١ ص ٧٧
 ابن زيدون: ج ١ ص ١٨، ١٨٠، ٢٩٤،
 ج ٢ ص ١٥٩، ٢٠٩
 زيد بن عدى: ج ٢ ص ١٨٦
 زيد بن على: ج ١ ص ١٢٧
 أبو زيد القرشى: ج ٢ ص ٢٦٠

حرف السين

- السجستاني (أبو سليمان محمد بن طاهر):
 ج ٢ ص ١٤٢
 السجستاني (أبو حاتم): ج ١ ص ٢٥٢
 سحبان: ج ١ ص ٢٧، ٥٩، ١٣٩
 ابن السراج: ج ٢ ص ٨٢
 سعد باشا: ج ١ ص ٥٤، ٥٥
 ابن سعدان (أبو عبد الله): ج ١ ص
 ١٢٣
 ابن سعد (أبو الحسين): ج ٢ ص ١٨٥
 السعدى (ابن نباتة): ج ٢ ص ١٥٩، ١٩٦٠،
 ١٩٧، ١٩٨
 سعيد بن حميد: ج ١ ص ١٩١ ج ٢ ص ١٠٨
 سقراط: ج ٢ ص ١٤٩، ١٥٣

- ركن الدولة: ج ١ ص ١١٦، ١٩٥، ٢٠٠،
 ٣٠٣ ج ٢ ص ٢٤٤، ٣٦٠
 الرماني (على بن عيسى): ج ١ ص ٨٩،
 ج ٢ ص ١١٤
 ذو الرمة: ج ١ ص ١٨٢، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٦،
 ٢١٧
 روش (Ruch): ج ٢ ص ٢٥٤
 الروزبارى (أبو بكر بن على): ج ١ ص
 ٢٨٦
 ابن الرومى: ج ١ ص ٢٠، ٦١، ج ٢ ص ١٠٥،
 ١٢٦، ١٣٣، ١٣٧، ١٨٠، ٢١٦، ٣١٩،
 ٣٠٠
 رينان (Renan): ج ١ ص ٤٤، ج ٢ ص
 ٣٣، ٣٢

حرف الزاى

- زبدة الحقب (شيطان بديع الزمان): ج ١
 ص ٢٦٧
 أبو زيد الطائى: ج ١ ص ٢١٥
 ابن الزبعرى: ج ٢ ص ٢٥
 الزبير بن بكار: ج ١ ص ٢٤٢
 الزبيرى (بكار بن عبد الله): ج ٢ ص
 ٢٧٦
 الزجاج: ج ٢ ص ٨٢
 الزجاجى (أبو الوليد): ج ٢ ص ٢٧٦
 الزركلى (خير الدين): ج ٢ ص ٩٤، ١٤٥
 ابن زكريا: ج ٢ ص ٢٥١
 بنت زكريا بن يحيى التميمى: ج ٢ ص ١٧٤
 الزنايبرى: ج ١ ص ٣٤١
 أبو زكريا: ج ٢ ص ١٤٦
 الزعفرانى (أبو القاسم): ج ٢ ص ٢٥٠
 الزوزنى (أبو على): ج ٢ ص ١٨٨

٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ج ٢ ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٥٦ ، ٢٧٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ،
 ٣٠٤ ، ٢٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
 ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٢١١ ، ٣١٢ ، ٢١٣ ،
 ٣١٤ ، ٢١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
 شوقي : ج ١ ص ٢٠ ، ٤٣ ، ١٠١ ، ١٨٥ ،
 الشيباني (أحمد بن يحيى) : ج ٢ ص ٩١

حرف الصاد

الصابي : ج ١ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٥٨ ،
 ١١١ ، ١١٣ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
 ١٧٤ ، ٢٨٦ ؛ ج ٢ ص ١٤٤ ، ١٨٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٥ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ١٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ،
 الصابي (أبو الخطاب) : ج ١ ص ٣٩
 صاحب بن عباد : ج ١ ص ١٧ ، ١٨ ،
 ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩٤ ؛ ج ٢
 ص ٨ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
 ٩٩ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٢٦ ،
 ٣٥٧ (وانظر ابن عباد)

صالح بن عبد الجليل : ج ١ ص ٢٠١

صحر (اسم فتاة) : ج ١ ص ٢٤٨

صدق باشا : ج ١ ص ٥٠ ، ٢٤٣

الصدقي أبو بكر : ج ١ ص ٥٠ ، ١٤٣

صعصعة بن صوحان : ج ١ ص ٧٥ ، ٧٦

٧٧

الصقلبي (زهير) : ج ٢ ص ٣١٣

السلطان العبدى : ج ١ ص ٢٠٦

ابن سكرة (أبو الحسن) : ج ١ ص
 ٣٣٨

السلامي (أبو الحسن) : ج ٢ ص ٢٥٠

سليمان عليه السلام : ج ٢ ص ١٨٣

سليمان بن الحكم : ج ١ ص ٢١٤ ، ٢٥٩ ج
 ٢ ص ٢١٣

أبو السمط بن أبي الجون الأموي : ج ٢ ص
 ٢٧٦

سنوك هوجرنيه (Senouk) : ج ٢ ص
 ١٦٧

سوار بن شراعة : ج ١ ص ٢٢٥ ، ٢٩٧

سهل بن هرون : ج ٢ ص ٥٧ ، ٥٨

السيرافي (أبو سعيد) : ج ١ ص ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ؛ ج ٢ ص
 ١١٤

ابن سيار القاضي : ج ٢ ص ١٤٢

ابن سيده : ج ٢ ص ٣٩ ، ٣٩ ، ٤٠

سيف الدولة بن حمدان : ج ١ ص ٢٣٤ ،
 ٢٨٦ ؛ ج ٢ ص ١١٣ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٨٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤١

أم سيف الدولة : ج ٢ ص ٢٥٦

السيوطي : ج ١ ص ٢٠٢ ؛ ج ٢ ص ٧ ، ٢٧ ،
 ٢٤٤

حرف الشين

ابن شاذان : ج ٢ ص ١٢٠

الشافعي (الإمام) : ج ١ ص ٢٩

شبيب بن شبه : ج ١ ص ٨٠

شكيب أرسلان : ج ١ ص ٨٤

الشقيطي : ج ٢ ص ٣٢

ابن شبيب (أحمد) : ج ٢ ص ٢٦٣

ابن شهيد : ج ١ ص ١٨ ، ٢٦ ، ١١٣ ،

أبو الطيب اللغوى : ج ٢ ص ١١٤ .
أبو الطيب : ج ٢ ص ٢٢٤ (وانظر المتنبي) .

حرف العين

عائكة بنت قند : ج ٢ ص ١٧٤ .
العارض (أبو الفضل) : ج ٢ ص ٩ .
عامر بن الطفيل : ج ١ ص ٩٤ .
عامر بن الظرب العدوانى : ج ١ ص ٢٥٢ .
العامرى (المظفر أبو عامر) : ج ٢ ص ٥٢ ،

٢١٢ ، ١٤٦ ، ٥٣

أبو عامر النجدى : ج ١ ص ١٦٧ .
ابن عباد (صاحب) : ج ١ ص ١١١ ، ١١٣ ،
١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٧٤ ؛ ج ٢ ص ١٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ،
٩٤ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣ ،
٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
٣٦٣ ، ٢٧٧ .

العباس بن الحسين (أبو الفضل) ج ١ ص ١٦٧ .
ابن عباس : ج ٢ ص ٤١ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ٣١٣ ،
٣١٤ .

أبو العباس (كاتب محمد بن إبراهيم) : ج ٢ ص
٢٧١ .

أبو العباس (عبد الله بن المعتز) : ج ١ ص ٥٦ .
أبو العباس بن سابور : ج ١ ص ١٣٩ .
أبو العباس : ج ١ ص ١٣٧ .
العباس بن لأحف : ج ٢ ص ٧٥ ، ١٠٧ .
١٢١ .

العشمى (ابن أبي الفوارس) : ج ٢ ص ٢٧٦ .

الصولى (إبراهيم) : ج ١ ص ١٧ ، ١٨ ؛ ج
٢ ص ١٨١ .

الصولى (أبو بكر) : ج ١ ص ٥٦ ، ٢٤٩ .
الصيمرى (أبو جعفر) : ج ١ ص ١٦٧ .

حرف الضاد

الضبي (أبو العباس) : ج ٢ ص ٢٥٠ .
الضبي (أبو عامر) : ج ٢ ص ٣٥٣ .
ضمرة بن ضمرة : ج ١ ص ٨٩ .

حرف الطاء

الطائع لله : ج ٢ ص ٢٦٠ .
الطائى (أبو تمام) : ج ٢ ص ٨٩ ، ١٢٣ ، ١٢٦ .
ابن طباطبا : ج ٢ ص ٨٢ .
ابن أبي طاهر (أحمد) : ج ١ ص ١٧ .
الطبرى (أبو عبد الله) : ج ١ ص ٤٩ ، ج ٢
ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
الطبنى : ج ٢ ص ٣١٣ .

طه حسين : ج ١ ص ١٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٦ ،
١٧٣ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٤٦ ؛

ج ٢ ص ٤٦

طرفة : ج ١ ص ٢١٧ ، ٢٢٠ ؛ ج ٢ ص ٢٠
الطرماع : ج ١ ص ١٢٥ .
ابن الطواء : ج ١ ص ٣٤١ .
ابن طوق (مالك) : ج ١ ص ٨١ .
ابن طولون : ج ١ ص ٧١ .
أبو الطيب الرازى الكيمائى : ج ٢ ص ١٤٦ .
أبو الطيب (الإمام) : ج ٢ ص ٣٤٠ ، ٣٤٢ .

عبد الله بن شداد : ج ١ ص ٧٤ :
 عبد الله بن عبد الله : ج ٢ ص ١٨٦
 عبد الله عفيفي : ج ١ ص ١٦١
 عبد الله بن عمار البرقي : ج ٢ ص ٢٧٦
 عبد اللطيف بن يوسف البغدادي : ج ٢
 ص ١٥٩
 عبد الله بن مروان : ج ١ ص ٩١
 ابن عبد الواحد (أبو الحسن بن محمد) : ج ٢
 ص ٨٢
 ابن عبد الواحد (القاضي أبو جعفر) : ج ٢
 ص ٨٢
 العتبي (أبو نصر) : ج ١ ص ١٧٠
 أبو عبيدة : ج ١ ص ٢٥٢، ٢٨٣، ٢٨٥
 عثمان بن إبراهيم الخاطبي : ج ١ ص ٢٣٨
 عثمان بن عفان : ج ١ ص ٥٨، ٦٩، ١١٢ ،
 ٢٣٨ ج ٢ ص ٤٢
 عثمان بن مظعون : ج ٢ ص ٦٦
 عثمان بن يوسف القليوبي : ج ٢ ص ١٥٩
 العجاج : ج ١ ص ٧٤
 العجلي (محمد بن علي) : ج ٢ ص ٣٤
 عدى بن زيد : ج ٢ ص ٢٢
 العذري : ج ١ ص ٢٣٨
 عصمة بن بدر الفزاري : ج ١ ص ٢٠٦ ،
 ٢٠٧
 عضد الدولة : ج ١ ص ١١١ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢٣ ؛ ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٤٥ ، ٢٤٤ ،
 ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠
 العكلى (بن حزام) : ج ١ ص ٢٤٨ ج ٢ ص
 ٤٦

العبيد (في عرف أهل الأندلس) : ج ٢ ص ٣١٣
 أبو العتاهية : ج ٢ ص ١٠٥ ، ١٢٥ ، ١٢٧
 عتبية بن أرقم (شيطان الجاحظ) : ج ١ ص
 ٢٦٥
 عتبية بن عبيد : ج ٢ ص ٢٤٥
 عتبية بن مرداس : ج ١ ص ٨٧
 عدة الدولة : ج ٢ ص ٣٠٠
 عز الدولة : ج ٢ ص ٣٠٠
 العسكري (أبو أحمد) : ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ ،
 ٢٨٨
 العسكري (أبو داود التكام) : ج ١ ص ٢٢١
 العسكري (أنظر أبو هلال)
 عبد الحميد العبادي : ج ١ ص ١٨
 عبد الحميد بن يحيى : ج ١ ص ٦٠ ، ٦١ ،
 ٦٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ٢٦٢ ؛
 ج ٢ ص ١٣٣
 عبد الرحمن الشيرازي : ج ٢ ص ١٨٨
 عبد الرحمن بن عبد الله ابن أخي الأصمعي :
 ج ١ ص ٢٤٦ ، ٢٤٩
 عبد الرحمن بن هشام : ج ٢ ص ٢١٨
 عبد الصمد بن الفضل : ج ١ ص ٧٩ ، ٨٨
 عبد الصمد بن المعتدل : ج ١ ص ٢٠ ، ٢١
 عبد العزيز البشري : ج ١ ص ١٨٥
 عبد العزيز (أبو الحسن صاحب ديوان الرسائل)
 ج ٢ ص ٢٦٤
 عبد العزيز جاويز : ج ١ ص ٥٤ ج ٢ ص
 ٧١ ، ٢٢٥
 عبد العزيز يوسف : ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ ج ٢ ،
 ٣٥٧ - ٣٦١
 عبد الله بن خلف : ج ١ ص ٢٤٠

٥٨ ، ٦٩ ، ١٤٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،
 ج ٢ ص ٧٥
 عمر بن أبي ربيعة : ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ؛ ج ٢ ص ٩٧
 عمر بن ذر : ج ١ ص ٨٧
 عمر المطوعي : ج ٢ ص ٣٢٣
 عمر بن هيرة : ج ١ ص ٢٠١
 عمر ابن عبد العزيز : ج ١ ص ٣٣ ، ٦١ ، ٧٠ ،
 أبو عمر الزاهد : ج ١ ص ٢٤٩
 عمر بن شبة : ج ١ ص ٢٤٢
 عمرو (معشوق ابن شهيد) : ج ٢ ص ٣٠٧
 عمرو بن سعيد : ج ١ ص ٢٥٢
 أبو عمرو (غلام ثعلب) : ج ٢ ص ١٨٥
 عمرو بن عبيد : ج ١ ص ١٩ ، ٢٠١ ،
 عمرو بن كلثوم : ج ١ ص ٢١٧
 أبو عمرو بن العلاء : ج ٢ ص ٤٢
 ابن العميد (أبو الفتح) : ج ١ ص ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ج ٢ ص ١٩٩ ، ٢٦٩
 ابن العميد (أبو الفضل) : ج ١ ص ١٩ ،
 ٢٦ ، ٢٧ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١٣١ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧٠ ،
 ١٧٤ ، ١٩٠ ، ج ص ٥٢ ، ١٣٤ ،
 ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٨٢ ،
 ١٨٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٣٥٧ ،
 عميد الملك : ج ٢ ص ١٤٥ .

علقمة بن لبيد : ج ١ ص ٧٤
 العلوي (أبو طالب) : ج ٢ ص ٢٤٦
 العلوي (أبو البركات) : ج ٢ ص ٣٣٠
 العلوي (محمد) : ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٧١ ،
 أم عفيف الحازبية : ج ١ ص ٢٦٤ .
 العقاد (عباس محمود) : ج ١ ص ١٦١
 عقال بن شبة : ج ١ ص ٧٠
 عليكة بن أحمد : ج ١ ص ٢٤٢ ، ١٤٦ ،
 ابن عمر القاضي : ج ٢ ص ١٨٢
 علي ابن أبي طالب : ج ١ ص ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٧ ،
 ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ،
 ٧٥ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ؛ ج
 ٢ ص ٢٩ ، ١٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٩٦
 علي ابن ابراهيم : ج ٢ ص ٢٧
 علي بن أحمد (عليكة) : ج ١ ص ١٤٣
 علي بن الجهم : ج ٢ ص ١٨
 علي بن عاصم : ج ١ ص ٢٣٩
 علي بن عبد العزيز : (أنظر الجرجاني
 أبا الحسن)
 علي بن عبيدة الرياحي : ج ١ ص ١٥٢
 علي بن عرس الموصلي : ج ١ ص ١٤٣
 علي بن كامه : ج ١ ص ١١٦
 علي ماهر باشا : ج ١ ص ١٨٥
 علي بن محمد الكوفي : ج ٢ ص ١٨
 علي بن المستير بن بنت قطرب : ج ١ ص
 ٢٤٦
 علي بن موسى : ج ١ ص ١٢٧
 علي بن هشام القائد : ج ١ ص ٢٤ ، ١٥٢
 علي يوسف : ج ٢ ص ٧١
 ابن عمار : ج ٢ ص ٨٢
 عمر بن الخطاب : ج ١ ص ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٤ ،

فرانك هاريس (Franc Haris) : ج ٢ ص

٢٦٩

الفراهيدى (الحليل بن أحمد) : ج ١ ص

٢٦٦

الفرزدق : ج ١ ص ٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

٢٢٠ ، ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٦٦ ،

٣١ ، ٧٦

فرعون : ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

الفضل بن محمد (القاضى أبو بشر) : ج ٢ ص

٢٢٦

فلوجل (Flügel) : ج ١ ص ٨٤

فيثاغورس : ج ٢ ص ٢٨٨

حرف القاف

قابوس بن وشمكير : ج ١ ص ١١٣ ، ١٥٧

ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،

٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ،

٢٨٩

ابن القارح : ج ١ ص ٢٦٠

قاسم أمين : ج ٢ ص ٧١

القاسم بن على : ج ٢ ص ٩

أبو القاسم الإفليلي : ج ٢ ص ٥٧

أبو القاسم الآمدى : ج ٢ ص ٨٢ ، ٨٧ ،

٧٩

القالى : ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، ٢٥٠ ،

ج ٢ ص ٢٧٣

ابن قتيبة : ج ١ ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٩٩ ،

١٢٩

قدامة بن جعفر : ج ١ ص ١٨ ، ٤٤ ، ٥٦ ،

٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ج ٢ ص ٨٢ ، ٢٧٩ ،

ابن قريعة (أبو بكر) : ج ١ ص ١٤١

عيسى بن سعيد : ج ٢ ص ٢١٦

عيسى بن عمر : ج ٢ ص ٣٧

عيسى بن موسى العباسى : ج ١ ص ١٢٧ ،

عيسى بن هشام : ج ١ ص ٨٦ ، ١٣٣ ،

١٣٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ،

٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

أبو العيضا : ج ١ ص ٨١ ، ٨٤

حرف العين

الغزالى : ج ١ ص ٢٧٢ ، ٣٣٧

الغضنفر بن حمدان : ج ٢ ص ٣٦١

حرف الفاء

ابن فارس (أحمد) : ج ١ ص ٤٤ ، ٥٥ ،

٥٦ ، ١١٣ ، ٢٨٤ ، ٢٤٩ ، ج ٢ ص

٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ،

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ،

٣٥ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٦٤ ، ١٩٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ،

٣٢٦

الفارسى (أبو على) : ج ٢ ص ١١٤

السيدة فاطمة (بنت الرسول) : ج ١ ص

١٢٦

فاطمة بنت عبد الملك : ج ١ ص ٢٤٠

أبو الفتح الإسكندرى (بطل القامات) ج ١

ص ٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٩ ،

٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ؛ ج ٢ ص ٢٠٠

شفر الدولة : ج ١ ص ١٢٠ ، ج ٢ ص ٢٤٤ ،

٢٧٧

ابن القرات (محمد بن على) : ج ٢ ص ١٨٥

أبو فراس : ج ٢ ص ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٥٩ ،

المأموني (أبو طالب): ج ٢ ص ٢٥٠
 مؤيد الدولة: ج ١ ص ١١٨، ١١٩، ج ٢
 ص ٩٤، ٢٤٣، ٤٤
 المبرد (محمد بن يزيد): ج ١ ص ٢٤٦ ج ٢
 ص ٩١، ١٢٨، ١٨٦، ٢٥٦
 متي بن يونس: ج ١ ص ٢٨١
 المتنبى: ج ١ ص ١٧، ١٧، ٢٠، ١٧٤، ٢١٥،
 ٢١٨، ج ٢ ص ١٠، ١٧، ٢٤، ٥٢،
 ٦٦، ٧١، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١١١، ١١٤،
 ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩،
 ١٢٨، ١٣٥، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٤،
 ٢٣١، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ١٧١،
 ٢٦٢، ٢٠٣، ٣٣٤

مقال الشاعر: ج ٢ ص ١٢٥
 مجنون ليلي: ج ١ ص ١٦١، ١٨٥، ٢٣٧
 المجوسى (أبو نصر): ج ١ ص ٢٠، ١٢٣
 محبوب ثابت: ج ١ ص ١٨١
 المحسن (أبو على): ج ٢ ص ٢٤٧
 المحسن بن الحسين: ج ١ ص ٢٤٩
 المختار بن عبيد: ج ١ ص ٧١
 ابن اللدبر (ابراهيم): ج ١ ص ٢٤، ١٥٥،
 ١٥٦، ٢٠٠، ٢٠١، ج ٢ ص ٢١٢
 ابن محلم الشيباني: ج ١ ص ٢٢٥
 محمد (عليه السلام): ج ١ ص ٢٤، ٣٤،
 ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٧، ٤٩،
 ٥١، ٥٠، ٥٧، ٦٨، ٨٨، ٩١، ٩٢،
 ٩٣، ٩٦، ٩٨، ١١١، ١٢٧، ١٤٧،
 ١٨٥، ج ٢ ص ٢٥، ٤١، ٤٤، ٦٦،
 ٧٠، ٧١، ١٠٥، ١٥٩، ١٦٠، ٢١٧
 محمد بن ابراهيم (من أعداء الشيعة): ج ١
 ص ١٢٦

محمد بن ابراهيم (كان يكتب عنده أبو العباس
 (٢٥ - ٢))

ابن قرة: ج ٢ ص ٢٥١
 قس بن ساعدة: ج ١ ص ٣٥
 قريط بن أنيف: ج ٢ ص ٦٨
 قطرى بن الفجاءة: ج ١ ص ٩١
 القلقشندى: ج ١ ص ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٨٠،
 ٢٠٢، ٢٨٢، ج ٢ ص ٢١٥، ٢٤١
 القيس (امرؤ القيس بن حجر): ج ١ ص ٢٨،
 ٦٠، ٦٥، ١٨١، ٢١٧، ٢١٩، ٢٣٩،
 ج ٢ ص ١٩، ٢٠، ٥٥، ٦١، ٦٥،
 ٧٠، ٨٢، ١٠١، ١٢٥، ١٢٦،
 ١٣٠، ٢٠٢

حرف الكاف

الكسائي: ج ٢ ص ٣٩
 ابن الكلبي: ج ١ ص ٢٥٠، ج ٢ ص ٢٧٥
 كلثوم ابن عمرو العتابي: ج ١ ص ٨١
 كولان (Colin): ج ٢ ص ٣٤٢

حرف اللام

لافونتين (La, Fontine): ج ٢ ص ٣٠٤
 لامرتين (Lamartine): ج ٢ ص ٦٦
 لبيد: ج ٢ ص ١٩، ٢٩
 لقمان بن عاد: ج ١ ص ٢٤٨

حرف الميم

ماسينيون (Massignon): ج ١ ص ٦٧، ٢٤٦،
 ج ٢ ص ١٣٣، ١٦٧
 مالك بن الأخطل: ج ١ ص ٨٧
 المأمون: ج ١ ص ١٢٧، ج ٢ ص
 ١٨٦

محمد نجيب الغرابي باشا : ج ١ ص ٢٩
 محمد بن منصور (أبو سعد) : ج ٢ ص
 ٣٢٧ ، ٣٢٩
 محمد المويلحي : ج ١ ص ١٧٤ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٤
 محمد المهدي : ج ١ ص ٢٥٨ ؛ ج ٢ ص
 ٢٦٠
 محمد بن موسى : ج ١ ص ٣٠٢
 محمد هلال بك : ج ١ ص ١٧٤
 محمد هيكل بك : ج ١ ص ٣٣
 محمد بن يوسف الثغري : ج ٢ ص ٨٩
 المهلبى (أبو محمد) : ج ١ ص ١٦٧ ، ٢٧٢
 ابن ميمون (العباس) : ج ٢ ص ١٣٠
 المرزبانى (أبو عبد الله) : ج ١ ص ١١٣ ؛
 ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ٢٦١
 ابن المرزبان (أبو نصر) : ج ٢ ص ٣٤١
 مرسيه (Marçais) : ج ١ ص ٢٣ ، ٢٥ ،
 ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٨ ،
 ٦٢ ، ٧١ ، ١٩٩ ؛ ج ٢ ص ٦٤ ،
 ١٦٧
 المرقش : ج ١ ص ٤٨
 مروان : ج ١ ص ٦٠
 مروان بن أبي حفصة : ج ٢ ص ٢٧٦
 المستعين : ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦٦ ؛ ج ٢
 ص ١٢٩
 أبو مسلم : ج ١ ص ٧٠
 مسلم بن الوليد : ج ١ ص ١٨ ، ٢٠ ، ٤٨ ،
 ج ٢ ص ٢٥٧ ، ٩٠

الذى راسله الخوارزمي) : ج ٢ ص
 ٢٧١
 محمد بن أحمد : (انظر أبو المطهر الأزدي)
 محمد بن أحمد : ج ٢ ص ٢٧
 محمد بن أرمك : ج ٢ ص ٣٤١
 محمد بن إسحاق : ج ١ ص ٨٤
 محمد بنحيت : ج ٢ ص ٣٢
 محمد بن جامع الصيدلانى : ج ٢ ص ١٧١
 محمد بن جعفر : ج ١ ص ٢٤٦
 محمد بن حامد : ج ٢ ص ١٨٩
 محمد بن حبيب : ج ١ ص ٢٤٢
 محمد بن الحسين (ابن أخت الفارسي) :
 ج ٢ ص ٧
 محمد بن خلف : ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠
 محمد السباعي : ج ١ ص ١٧٤
 محمد بن سعيد الكاتب : ج ٢ ص ٣٢ ،
 ٣٤
 محمد بن سلام : ج ١ ص ٣٧
 محمد بن سليمان : ج ١ ص ٢٩٧
 محمد بن صالح الغورى : ج ١ ص ٢٩٨
 محمد عبده : ج ١ ص ١٢٨ ، ٢٢٢ ؛ ج ٢
 ص ٧١ ، ١٣٣
 محمد بن عبد الرحمن المستكفي : ج ٢ ص
 ٢١٢
 محمد بن على : ج ٢ ص ١٠٥
 محمد بن عمران المرزبانى : ج ١ ص
 ٢٤٧
 محمد عبد المطلب : ج ٢ ص ٢١٩
 محمد فريد : ج ١ ص ١٨١
 محمد لطفى جمعه : ج ١ ص ٢٠٥

النصور (الخليفة) : ج ٢ ص ٢٠١
 النصور بن أبي عامر : ج ٢ ص ١٧٤
 النفلوطى : ج ١ ص ١٨٤ ، ج ٢ ص ٧١ ، ٨٩
 المهدي : ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٠١ ، ج ٢ ص ١٨٢
 المهلبى (أبو محمد) : ج ١ ص ٦٧ ، ج ٢ ص ٢٥٥ ،

٢٩٣ ، ٢٩٩

موسى (عليه السلام) : ج ٢ ص ٧٧ ، ١٨٣

موسى بن جعفر : ج ١ ص ١٢٧

الموصلى (إسحاق) : ج ٢ ص ٨٥

ميتس (Mez) ج ١ ص ٨٣٣ ج ٢ ص ٢٥٤

ابن ميادة : ج ١ ص ١٨٤ ، ج ٢ ص ٤٤

الميكالى (أبو نصر) : ج ١ ص ١١١ ج ٢

ص ٣٥١

الميكالى (أبو الفضل) : ج ١ ص ١١٣ ، ١٧٠ ،

١٧٨ ، ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٦ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ،

٢٢٦ ، ٢٦٠ ، ٢١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ،

٣٢٥

حرف النون

النابعة : ج ١ ص ٢٢٠

ابن نايقا : ج ١ ص ٢٠٢

ابن نباته الخطيب : ج ١ ص ٥٨ ، ١١٣ ، ج ٢

ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،

١٦٥

ابن نباتة المصرى : ج ٢ ص ١٥٩

ابن نباتة السعدى : ج ١ ص ٢٠٢

نجاح بن سلمة : ج ٢ ص ١٣٤

نجبة بن على : ج ٢ ص ٢٤٤

أبو النجم : ج ١ ص ١١٧

ابن مسكويه : ج ١ ص ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

١٢٤ ، ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ،

١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،

١٩٨ ، ٢٠٠

ابن مصعب (عبدالله) : ج ٢ ص ٢٧٦

أبو المطهر الأزدي : ج ١ ص ٢٣٨ ، ٣٤٢ ،

٣٤٩ ، ٣٥١

المطيع لله : ج ٢ ص ١٩٩

معاوية : ج ١ ص ٢٥ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٧ ، ١٣٣ ، ٢٥٢ ، ج ٢ ص

٢٨

ابن المعتز : ج ١ ص ٢٠ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ١٥٦ ،

١٧٤

المعتصم : ج ١ ص ١٢٣ ، ٢٢٣ ، ٣٣٢ ، ج ٢

ص ٨٥

المعتضد : ج ١ ص ١٧

المعتمد بن عباد : ج ٢ ص ٢٧٧

المعري (أبو العلاء) : ج ١ ص ٢٦ ، ١٩٢ ،

٢١١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ج ٢ ص ٢٥٦ ، ٢٥٨

معز الدولة : ج ١ ص ٢٤٤

معن بن أوس : ج ١ ص ١٧٦ ، ج ٢ ص ٢٦

معين الدولة : ج ١ ص ١٤٢

المقرى : ج ٢ ص ٢١٥ ، ٢١٨

ابن المقفع : ج ١ ص ١٨ ، ٣٨ ، ٦١٤٣ ، ٧١ ، ٧٢ ،

ج ٢ ص ٢٨٩

المكتفى : ج ١ ص ١٨١

المنادى (يوسف بن حمويه) : ج ٢ ص ٣٥

ابن مناذر : ج ٢ ص ١٣٠

المنتصر : ج ٢ ص ١٢٩

المنخل اليشكرى : ج ٢ ص ٢٢

هرم بن قطبة: ج ١ ص ٨٩

هرمس: ج ٢ ص ٢٨٨

هشام بن حسان: ج ١ ص ٨٩

هشام بن الحكم الأموي: ج ٢ ص ٢١٥ ،

٢١٦

هشام بن عبد الملك: ج ١ ص ٧٠ ، ٧٠ ، ٢٠١

أبو هلال العسكري: ج ١ ص ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٤٨ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١١٣ ،

١٦١ ، ج ٢ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١٣٧ ، ٢٨٨

الهلباوى بك: ج ١ ص ٥٤

الهمداني (أبو الحسين): ج ٢ ص ٢٥٤

الهمداني: (انظر بديع الزمان)

الهمداني (أبو سعيد): ج ٢ ص ٣٤٢

هند بنت الحارث: ج ١ ص ٢٣٩

هوميروس: ج ٢ ص ٦٥

الهيثم بن عدى: ج ٢ ص ٢٧٥

حرف الياء .

يأجوج ومأجوج: ج ١ ص ٢٧٧

ياقوت: ج ١ ص ١٨ ، ٢٤ ، ٨١ ، ٨٢ ،

٨٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٩٩ ،

٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ج ٢ ص ٢٧ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ،

١٢١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ،

١٤٩ ، ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٤٣ ،

٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩

يحيى بن أكرم: ج ٢ ص ١٨٦

يحيى بن محمد: ج ٢ ص ١٨٤

ابن النديم: ج ٢ ص ١٢٠

نصر بن نوح: ج ١ ص ٢٤٩

نصيب: ج ١ ص ٢٣٩

النصيبي (أبو اسحاق): ج ٢ ص ١٣٩

نعم (جارية ابن حزم): ج ٢ ص ١٧٣

النعمان: ج ١ ص ٣٦ ، ج ٢ ص ٢٢٦ ،

١٨٦

نقيل بن عبد العزى: ج ١ ص ٨٩

النمر بن تولب: ج ١ ص ٩٤ ، ج ٢ ص

١٥٠

أبو نواس: ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،

٢٢٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٣٤٩ ،

ج ٢ ص ١٨ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥ ،

١٦١

حرف الواو

واضل بن عطاء: ج ١ ص ٦١ ج ٢ ص ٢٥٤

واليس: ج ٢ ص ٢٨٨

الواقدي: ج ٢ ص ٢٧٥

حرف الهاء

الهائم (أبو علي): ج ١ ص ١٦٧

هرون (عليه السلام): ج ١ ص ١٢٧ ، ج ٢ ص

٧٧

هرون بن أبي الجيش: ج ١ ص ٢٩٧

ابن هرون (سهل): ج ٢ ص ٥٨٠ ، ٥٧

ابن هانيء الأندلسي: ج ١ ص ١٨٨ ، ج ٢ ص

٣١١

ابن هراسة (كثير): ج ٢ ص ١٠٤

الهندلي: ج ١ ص ١٨١ ، ٢١٦ ، ج ٢ ص

٢٠ ، ٢١

اليقوبى (أبو محمد) : ج ١ ص ٣٣٨
 يعوت بن المزرع : ج ١ ص ٢٤٦
 يوسف (عليه الصلاة والسلام) : ج ١ ص
 ١٠٠ ، ٩٩
 يوسف بن إبراهيم : ج ١ ص ٢٩٨
 يوسف الإسمائيلي : ج ٢ ص ٥١
 أبو يوسف (القاضى) : ج ١ ص ٣٣٤

اليربوعى (أبو الأقيشر) : ج ٢ ص ٨
 اليزدادى : ج ٢ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
 يزجرد : ج ٢ ص ٢٧٣
 يزيد بن معاوية : ج ١ ص ٢٥١
 يزيد بن الوليد : ج ١ ص ٦٠
 يعقوب بن إبراهيم (أبو الفرج) : ج ٢ ص
 ١٨٥
 يعقوب بن أبى شيبة : ج ١ ص ٢٤٢

جمع مواد هذا الفهرس فضيلة الأستاذ على عبد الحميد مبارك ، ورتبه
 حضرة سليمان فهى مبارك افندى : فلهما من المؤلف أجزل الشاء .

المراجع

الغرض من هذه المراجع هو تحديد الطبقات التي اعتمدنا عليها عند تحرير الشواهد أو نقد بعض الآراء ليستطيع القارئ الرجوع إليها حين يشاء ، ولم نرد أستقصاء كل ما رجعنا إليه عند تأليف هذا الكتاب وإنما اكتفينا بما لم يكن بدّ من الإشارة إليه في معرض البحث والتحقيق (١) .

إحياء علوم الدين — الغزالي — القاهرة — ١٢٧٨

الأخلاق عند الغزالي — زكي مبارك — ١٩٢٤

الأدب الجاهلي — طه حسين — القاهرة ١٩٢٨

أدب الكتاب — ابن قتيبة — القاهرة ١٩٢٧

أدب الكتاب — الصولي — القاهرة ١٣٤١

أدبيات اللغة العربية — عاطف بركات — القاهرة ١٩٠٩

إرشاد الأديب ، إلى معرفة الأديب (هو معجم الأدباء) .

أسواق الذهب — أحمد شوقي .

الأناني (٢١ جزء) — الأصبهاني — طبع دار الكتب المصرية وطبع الساسي .

الأمالي — القالي — طبع بولاق ١٣٢٤

بغية الوعاة — السيوطي — القاهرة ١٣٢٦

بلاغة العرب في الأندلس — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢٤

البيان والتبيين — الجاحظ — القاهرة ١٣٣٢

تاريخ الأدب العربي — أحمد الزيات — ١٩٢٠

(١) راعينا في تواريخ الطبقات ما أثبتته الناشر ، والقارئ لا يصعب عليه تمييز السنة

الهجرية من السنة الميلادية .

- التحفة البهية — الاستانة — ١٣٠٢
- تجارب الأمم — ابن مسكويه — طبعة مرجوليوت .
- التفضيل بين بلاغة العرب والعجم — أبو هلال العسكري (ضمن مجموعة التحفة البهية) .
- عمار القلوب — الثعالبي — القاهرة .
- تهذيب الأخلاق — ابن مسكويه — ١٣٢٩
- حب ابن أبي ربيعة وشعره — زكى مبارك — الطبعة الثالثة .
- حكاية أبي القاسم البغدادي — أبو المطهر الأزدي — طبع هيدلبرج .
- جواهر الألفاظ — قدامة بن جعفر — الطبعة الأولى .
- الحيوان — الجاحظ — القاهرة .
- الخصائص — ابن جنى — الطبعة الأولى .
- خطب ابن نباتة — بيروت ١٣١١
- درة الغواص — الحريري — الطبعة الأولى .
- دلائل الإعجاز — عبد القاهر الجرجاني — القاهرة ١٣٣١
- ديوان أبي نواس — طبعة دمشق .
- ديوان الشريف الرضى — طبعة بيروت .
- الذخيرة — ابن بسام — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البهية) .
- رسائل إخوان الصفا — القاهرة ١٩٢٩
- رسائل بديع الزمان — بيروت .
- رسائل البلغاء — كرد على — القاهرة ١٩١٣
- رسائل الجاحظ — القاهرة ١٣٢٤
- رسائل الخوارزمي — القاهرة ١٢٧٩
- رسائل الصابي — القاهرة .

- رسالة الغفران — المعري — القاهرة ١٩٢٥
- الرسالة العذراء — ابن المدبر -- طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ (شرح زكى مبارك).
 زهر الآداب — أربعة أجزاء — الحصرى ١٩٢٥
- سحر البلاغة — الثعالبي — دمشق .
- سر الفصاحة — الخفاجى — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- شرح نهج البلاغة — ابن أبى الحديد — القاهرة ١٣٢٩
- الصاحي — ابن فارس — القاهرة ١٩١٠
- طبع الأعشى — القلقشندى — طبع دار الكتب المصرية .
- الصدقة والصديق — التوحيدى — القاهرة ١٣٢٣
- الصناعتين (فى مجلدين) — أبو هلال العسكري — ١٣٢٠
- صهاريج اللؤلؤ — توفيق البكرى — القاهرة ١٣٢٠
- ضحى الإسلام — أحمد أمين — ١٩٣٣
- طبقات الشعراء — ابن سلام — القاهرة ١٣٣٢
- طبقات النحاة — الأنبارى — القاهرة ١٩٢٤
- طوق الحمامة — ابن حزم — ليدن ١٩١٤
- العقد الفريد — ابن عبد ربه — القاهرة ١٣٢١
- عيون الأخبار — ابن قتيبة — طبع دار الكتب المصرية .
- فحول البلاغة — توفيق البكرى — القاهرة
- الفرائد والقلائد — الثعالبي — ١٣١٧
- فقه اللغة — الثعالبي — القاهرة ١٩٢٧
- الفوز الأصغر — ابن مسكويه — الطبعة الأولى .
- القهرست — ابن النديم طبع القاهرة .

١٧٢٧

- كتاب الكتاب — ابن درستويه — بيروت ١٩٢١
- كليلة ودمنة — ابن المقفع — القاهرة ١٣٢٧
- كمال البلاغة — اليزدادى — القاهرة ١٣٤١
- الكنائيات — الثعالبي — القاهرة ١٩٠٨
- المثل السائر — ابن الأثير — بولاق ١٢٨٢
- محاضرات الراغب الأصفهاني — الطبعة الأولى .
- مصارع العشاق — جعفر بن أحمد — القاهرة ١٩٠٨
- معجم الأدباء (سبعة مجلدات) — ياقوت — طبعة مرجوليوت ١٩٢٣
- معجم البلدان (ثمانية مجلدات) — ياقوت — القاهرة ١٣٢٤
- المقابسات — التوحيدى — القاهرة ١٩٢٩
- المكافأة — أحمد بن يوسف — القاهرة ١٩١٤
- مقامات بديع الزمان — بيروت .
- مقامات الحريري — طبع الحلبي .
- مقامات ابن خلدون — القاهرة ١٣٢٢
- من غاب عنه المطرب — الثعالبي — طبع الاستانة .
- مختارات المنفلوطى .
- الموشح — المرزبانى — القاهرة ١٣٤٣
- الموشى — أبو إسحاق الوشاء — ليدن .
- الموازنة بين الطائين — الأمدى — بيروت .
- الموازنة بين الشعراء — زكى مبارك — القاهرة ١٩٢٦
- نثر النظم ، وحل العقد — الثعالبي — القاهرة ١٣١٧
- الخصص — ابن سيده — الطبعة الأولى .

- نشوار المحاضرة — التنوخي — طبعة مرجوليوت .
 نفع الطيب — المقرئ — طبع ليدن .
 نقد الشعر — قدامة بن جعفر — الأستانة ١٣٠٢
 نقد النثر — قدامة بن جعفر — القاهرة ١٩٣٣
 نهاية الأرب — النويري — طبع دارالكتب المصرية .
 نهج البلاغة — علي بن أبي طالب — ١٩٢٥
 الوساطة — أبو الحسن الجرجاني — صيدا ١٣٣١
 الوسيط — أحمد السكندري ومصطفى عناني — ١٩٢٩
 وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٢٩٩
 يتيمة الدهر — الثعالبي — طبعة دمشق .

Encyclopédie de l'Islam

- Huart . — Littérature Arabe. Paris 1923,
 Marçais — Origines de la prose littéraire arabe (Revue Africaine 1^{er} trimestre
 1927) .
 Mez. — La Renaissance de l'Islam (traduction inédite de M. Ruch) .
 — Abulkasim (Heidelberg 1920) .
 Mubarak. — La Prose Arabe au IV^e siècle de l'Hégire .
 — Paris 1931.

* * *

كَمَل طبع الجزء الثاني من كتاب « النثر الفني في القرن الرابع »
 بمطبعة السعادة الكبرى بمصر في يوم الخميس (٤ ذو الحجة سنة ١٣٧٦)
 عانى محمد اسماعيل
 مدير المطبعة

(٤ يولييه سنة ١٩٥٧) م

ديوانه

ديوان
مبارك

مقتطفات من بعض مقالات الكتاب والشعراء الذين تقدوا هذا الديوان

نوصي قراءنا بالاطلاع على مقدمة هذا الديوان ، بل الإمعان فيها ، فقد أرّخ فيها صاحب الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفة خاصة ، ولولا ضيق المقام لآثرنا نشرها برمتها فهي نموذج من النثر الفني الرشيق الجميل ... الدكتور زكي مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظه موسيقى كصوته المعروف لخلافه . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها . سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظماً بدل حصرها في نثره الفني لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن... وشعر ديوانه صور شتى من عواطفه . وخواطره هي مرآة نفسيته ونظراته إلى الحياة ، وهو أمين بفطرتة في تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه ، وكفى بهذا الصدق المطبوع في التعبير فخراً لأى شاعر ، فإن هذه هي الصفة الخالدة التي لا يقل عنها أى نقد ، والتي تستنكر بجانبها المقارنة والتفضيل .

مجلة أبولو الشعرية

* * *

لعل المقدمة التي كتبها الدكتور زكي مبارك خير ما يكتب في تحليل شعره ، فقد تجرد كناقد من ذاته وعمد إلى ما يعلمه عن نفسه فجعله أساساً لتلك النظرة النقدية التي وصف فيها شعره ونفسه . قال عن نفسه : (فإن الشاعر نفسه يحدثنا في مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يجهل قلبه كل الجهل) وأشار في الموضوع نفسه إلى رسالة كان كتبها فقال : (وأعيد عليك يا صديقي أن الأزمة الباقية هي أزمة القلب فقد فهمت كل

شئ وبقى قلبي كالفأفة المجهولة فى ضمير الظلماء) وكلاهما قول شاعر... وإنك لترحب إذ
تقرأ أشعار هذه المجموعة بإشراق ديباجتها وجرسها، والإجادة فى اختيار ألفاظها. ومن
غمر الديوان قصيدة (غريب فى باريس).

محرر المقتطف



قلنا من هذا الديوان صفحة يخاطب فيها المؤلف أهل أسبوط وهى مثال حسن لسائر
القصائد والمقطوعات. وأحسن ما فى الدكتور زكى مبارك أنه يذكر المدن المصرية ويصف
معانى الطبيعة على ضفاف النيل.

محرر المجلة الجديدة



لعل الكثيرين من قراء العربية لا يجهلون الأديب النابغة زكى مبارك، ولعل
الكثيرين يعرفون أنه جمع بين كثير من المواهب والصفات، فهو كاتب وشاعر ومن
متخرجى الأزهر والجامعة، ومن أبناء سنتريس وباريس، ومن رجال التعليم والصحافة
أيضاً، وعلى الجملة هو من الشبان الذين أعطوا حكمة الكهول وتدقيقاتهم وتحقيقاتهم، ومن
الكهول الذين لهم نشاط الشبان وثورة الشباب... جمع فى هذا الديوان كثيراً مما فاضت به
عاطفة وجادت به قريحته الخصبية من قصائد فى الحب والمجد والشباب والجمال، وأهداه تحفة
ممتعة لقراء العربية يتصفحونها فيرون فيها نفوسهم كما يصورها الخيال الصادق والشعور
الفياض والأحلام اللذيذة، ويقرأون فيها نوعاً من الشعر جديداً بخياله وأفكاره وصوره،
قديمًا بنسجه العربى، وأسلوبه الأديبى، ونسجه الحكم الذى لم يفسده شرود عن القواعد
ولا تجن عن أصول اللغة بدعوة الابتكار والتجديد.

محرر الهلال



ديوان زكى مبارك مجموعة من حالاته النفسية فى الفراق والبعد والشكوى والحزن وذكر
الديار والأحباب. وفى شعره الطابع العربى الصميم، وهو نتيجة حفظه ثلاثين ألف بيت فى
حدائثه من الشعر القديم.

محرر الحديث



أهدانا الأستاذ زكى مبارك مجموعة من شعره ، سماها بالعربية « ديوانا » وبالفرنسية « قصائد غرامية » والتسمية الثانية أحق وأولى ... وإن قارئ قصائد الأستاذ مبارك ليدرك من أول وهلة أنه تأثر بالأدب الغربى إلى حد بعيد ، ولا غرو فالأستاذ أديب فى الفرنسية كما هو أديب فى العربية.

محرر جريدة الهدى



الدكتور زكى مبارك عالم وأديب وقد طالع له القراء فصولا رائعة فى مختلف الصحف والمجلات . ولكن الدكتور زكى مبارك لا يكتفى بمثل هذه الأبحاث العلمية المحضه ، بل يعنى كذلك بأدب الخلق والابتداع والنقد وله فيه مؤلفات مشهورة ككتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) وكتاب « ذكريات باريس » . وقد أخرج هذه الأيام ديوان شعر يدل أبلغ الدلالة على إحساس فياض وشعور قوى وشاعرية متقدمة تنعكس فيها شتى العواطف الإنسانية ويمتاز شعر الدكتور زكى مبارك بشيء من تعادل قوى العاطفة والعقل فيه فهو ليس بالشعر الجاف النابع من العقل وحده وليس بالشعر المفكك الصادر عن العاطفة المشوشة ولذلك تلمح فيه أثر الأسلوب المتين والصيغة الحلوة والنظام والتناسب والانسجام . وفى وسعنا أن نقول إن ديوانه جهد عظيم للتوفيق بين نزعات الشعر العصرى القائم على قوة الملاحظة والتحليل والشعر العربى القائم على قوة الخيال و بلاغة العبارة .

مجلة الأسبوع ابراهيم المصرى



كان هـى حين تصفحت هذا الديوان أن أتحسس من روح الشعر : هل استقر فيه أو هو محووم عليه على قرب أو بعد ، أو أنه لم يعمره أبداً ولم يطل عليه من قرب أو من بعد . وقد فرحت لصديقى الوفى الدكتور زكى مبارك حين رأيت روح الشعر يتمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ويحيل فيه الحياة... قرأت فى هذا الديوان قصائد قد بلغت الغاية فى حسن

النظم وقوة المعنى وجمال الأسلوب . ذلك إلى إحكام في ربط المعاني بعضها ببعض وبراءة في حسن السياق مما لا يتهبأ ذلك كله إلا للفحول من الشعراء .

الأهرام محمد خالد

•••

مزية شعر الدكتور زكى مبارك التى تبدو لى هى حسن السبك وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيه بعد طيّ الديوان ولم يعلق بنفسى منها أثر ولم يستقر فى ذاكرتى لها طيف . ولكن الدكتور زكى مبارك أديب كبير وبجائة له آثاره المشهورة ودراساته المعروفة وعالم من كبراء العلماء، وله فى ذلك فضل غير منكور لا يزيدده أن يكون شاعراً ولا ينقصه أن لا يكون.

البلاغ إبراهيم عبد القادر المازنى

•••

شعر زكى مبارك يطردّ فيه الماء ، ديباجة مشرقة وكلام منسجم ولفظ منضد . شعر منبجس من نبع البحرى ومنحدر من جنبه ... ثم إن هنالك ما يبعثنى على أن أوثر شعر الدكتور زكى مبارك على قصائد لبعض الشعراء المحدثين . ذلك بأنك لا ترى فى قوافيه قلقاً ولا نفوراً ولا عيباً ولا تراها مستكرهه على مواضعها ... وإنا لنراه يجيد الشعر حين يستلهم صوته ، والذي يؤخذ من هذا أن فى دخيلة نفس زكى مبارك ميلا شديداً إلى الفتك ، ولقد أطاعه قليلا فأجاد وعصاه كثيراً فكبا .

الأهرام بشر فارس

•••

لقد أزدحت مكتبات الأدباء بمؤلفات الأديب الممتاز النابغة الدكتور زكى مبارك وهاهو ذا يخرج ديوانه للناس ، ومهما حاول الكاتب أن يقول عن شعر زكى مبارك فحسه أنه لا يقول شعراً لمجرد أن يملاً صفحة أو صفحتين ولكنه يقوله عندما يمتلئ قلبه رغبة فى أن يقول الشعر ، ف شعر الدكتور زكى مبارك وحى هذا القلب الكبير الناضج الذى غمرته الأيام

بمحدثاتها وصهرته في أتون تجاريها وأخرجته لصاحبه قطعة من الإحساس السامى الدقيق ...
 تقرأ ديوان الدكتور زكى مبارك من الألف للياء فتحس له في نفسك راحة وتستشعر بلذة
 وتدرك ماذا عسى أن يريد قوله ، أهو جادّ أم عابث ، أهو ضاحك أم باك ، أهو متحمس
 أم متريث ، أهو عاشق أم هو مدنف ؟ أنت تقف على هذه الخواطر وتدركها بنفسك ،
 وأنت تنصف هذا الشاعر الذى ينشد بقلبه أغاريد سامية في هذه الحياة . وثمة عقيدة تخامرك
 هى أن هذا الشاعر الفنان قد خلق ليعيش في عزلة عن الناس وأن يحيا بعيداً عن ضوضاء
 الحياة ومعه من قلبه قيثارة عجيبة ، وإن كان ضنيناً بشعره كما ترض الحياة بالنبوغ .

محمد على غريب الصباح

.*.*

كان لا بدّ من أن يصدر الدكتور زكى مبارك ديوان شعره بعد ما أتخف الأدباء بطائفة
 طيبة من نثره وأبحاثه وتعليقاته على الكتب الأدبية ، وكان موفقاً في نظمه كما هو موفق في
 نثره وخطبه ، لأن الدكتور زكى مبارك أستطاع أن ينشئ نفسه نشأة أدبية ممتازة ساعده
 عليها استعداداه الفطرى وما أحاط به من ضروب شتى . وفي الديوان مجموعة طيبة من الشعر
 العصرى النفيس . وهو يلبس شعره ديباجة بدوية ، ورقة حضرية . وللديوان مقدّمة بدیعة
 كتبها الشاعر بنفسه ولم يسبق إليها فيما أعلم .

محي الدين رضا المقطم

.*.*

للدكتور زكى مبارك مكانة محبوبة بين الشباب ، لأنه يكتب بروح الشباب وينظم
 بعواطف الشباب ، ويرى بعين آمالهم وأحلامهم . وهو في الحياة عصامى وفي الأدب يكاد
 يكون عصامياً ، ولذلك كان لما يكتبه وينظمه رونق ممتاز يختص به . وقد أصدر أخيراً
 ديواناً من الشعر الطريف ، الذى يجمع بين حسن الديباجة ومثانة الأسلوب وبين الأفكار
 المبتكرة والخواطر الفذة والصور النفسية الجذابة ، فنهىء الدكتور زكى بهذا الديوان ، ونهنيء
 القراء بهذه الهدية التى يهديها إليهم .

المصور طاهر الطناحي